

الانتقاء الإسلامي

في الشعر المصري المحافظ

من ١٨٨٢ إلى ١٩١٩



ييل سليمان طبوشه



الانجاء الاسرارى

فى الشعر المصرى المحافظ
من سنة ١٨٨٢ - سنة ١٩١٩

تأليف

الدكتور نبيل سليمان طبوشه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِهِ نَسْتَعِينُ
رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً
وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا .
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

إهداء

الى أحبائى ..

« زوجتى العزيزة .. وأولادى الأعزاء »
فمن أجلهم كان هذا الكتاب ؟

نبيل

مقدمة

الاتجاه الاسلامى فى شعر مدرسة الشعراء المحافظين فى مصر قضية جديرة بالدراسة والبحث ، لا لأنها ذات مضمون زاخر بالمعاني الاسلامية والعاطفية الدينية ، ولا لأنها كانت تمثل تيارا قويا فى الفكر الأدبى المصرى يوم كانت النزعة الدينية غالبة على النفوس ، ويوم كان لعلماء الدين - بما ينتسبون اليه - صوت مسموع ورأى مطاع .

ولكن لأنها قضية تعكس العداء الصليبي الذى كان ولا يزال يكيده للاسلام ويعمل على تقويض دعائمه ، منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادى حين تجددت المؤامرات الصليبية ضد الاسلام وتأمرت الدول الأوروبية على تمزيق الكيان الاسلامى وتقسيم أملاك الدولة العثمانية ، فاحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وتونس سنة ١٨٨١ ، ومراكش سنة ١٩١٢ ، واحتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ ، والعراق سنة ١٩١٤ ، وفلسطين سنة ١٩١٨ واحتلت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١ .

وكان هذا الاحتلال تأكيدا لروح العداء الصليبي ضد الاسلام وشعوبه وقد ظهر ذلك فى سياسة الهدم للقيم والمبادئ الاسلامية ، وفى اشاعة الفساد وألوان الانحراف بين عامة المسلمين ، وفى افساد نظم التعليم ، واستنزاف ثروات البلاد ، والقضاء على الحريات ، والتفرقة بين عنصرى الأمة كما ظهر فى الدعوة الى العلمية ، ونبد الفصحى ، واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وفى الهجوم على الاسلام والطعن فى مبادئه ، مع التبشير بالمسيحية واعلاء شأنها على حساب الاسلام .

وازاء هذا الخطر الصليبي الزاحف - كانت حتمية التصدى الاسلامى لهذا العدوان ، فظهرت الدعوة الى الجامعة الاسلامية فكرة سياسية دينية تستهدف تجمع المسلمين تحت لواء الخلافة العثمانية فى مواجهة التحزب الغربى ومؤامراته ضد الدولة العثمانية وشعوبها الاسلامية ، وتعالى صيحات المسلمين بالدعوة الى التحرر الاسلامى من ربة الاستعمار الأوروبى ، وانبرى دعاة الوطنية ينددون بسياسة الاستعمار ويعبثون مشاعر الأمة للنضال فى سبيل الحرية والاستقلال .

وبذلك تجاوزت الآمال الوطنية مع الآمال الإسلامية في الخلاص من الاستعمار الغربي ، وامتزجت العاطفة الوطنية بالعاطفة الدينية في الاعتصام بالخلافة العثمانية رمز الرابطة الدينية التي تجمع بين المسلمين .

ثم كانت الدعوة الى اصلاح المجتمع الاسلامي من آفات الغرب ومخازي المدنية الحديثة ، وتنقية الدين مما علق به من شوائب البدع والخرافات والاهتمام بالتعليم ، والحفاظ على اللغة القرآنية ، واطهار شخصية الاسلام وابراز محاسنه والاشادة بحضارته . . رد فعل اسلامي لمحاولات الهدم الصليبي لمقومات الحياة الاسلامية .

وفي غمرة هذه المواجهة بين الشرق الاسلامي والغرب الصليبي كان الشعراء المحافظون في مصر يأخذون أماكنهم في صفوف المدافعين عن الاسلام في كل الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية .

فدعوا الى الجامعة الاسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية ، وأيدوا سلطانها وناصروا شعوبها ، ونددوا بأعدائها ، وجاهدوا في سبيل تحقيق السيادة الوطنية المصرية ، وشاركوا في الدعوة الى اصلاح الاجتماع بالحث على مكارم الاخلاق ونبذ الفساد والانحلال حيناً ، وبالدعوة الى محاربة البدع والخرافات وتصحيح العقائد حيناً آخر ، ثم بالدعوة الى العلم والتعليم تارة ، وبالدعوة الى البر والاحسان والتكافل الاجتماعي تارة أخرى .

كما حافظوا على تراث الأمة العربية والاسلامية بتمسكهم بالتقاليد الفنية القديمة في شعرهم من ناحية ، ثم بدفاعهم عن اللغة العربية من ناحية أخرى .

كما تصمدوا للطاعنين في الاسلام فدافعوا عن مبادئ الدين ، وأشادوا بحضارته ، وهتفوا بمجوده .

وهكذا أدى الشعر المحافظ رسالته الاسلامية والوطنية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ أمته وكان تعبيراً صادقاً عن آمالها وأمانيتها الدينية والوطنية .

وقد رأيت ان هذا الدور الاسلامي الذي أداه الشعر المحافظ في هذه المواجهة الشاملة بين الحضارة الاسلامية الأصيلة والحضارة الغربية الوافدة يستحق الدراسة والبحث ، لأنه يعكس ظلال السيوف التي

استشهدت الإسلام والمسلمين ، بقدر ما يكشف عن عظمة الإسلام وقدرته
على الثبات والتحدى بما له من إمكانات تصلح أساسا لأقوى حضارة .
وتلك أهمية هذا البحث في نظري .

أما من أعنيهم بـ « الشعراء المحافظين » فهم ذلك الجيل من الشعراء
الذين جاءوا بعد البارودي ، وتبعوه في منهجه الفني ، وحافظوا على طريقة
القدماء في صياغة الشعر ، وسماههم الجيل الذي خلفهم بالمحافظين
لتمسكهم بالمادة الأدبية القديمة .

وفي مقدمة هؤلاء الشعراء « أحمد شوقي » و « حافظ إبراهيم »
و « محمد عبد المطلب » و « أحمد محرم » و « أحمد نسيم » و « أحمد
الكاشف » و « علي الغاياتي » و « عبد الحليم المصري » و « محمد حمدي
النشار » و « الشيخ حسن القاياتي » .

ولست أريد في هذا البحث أن أحصى الشعراء المحافظين عدا ، ولا أن
أستشهد بشعرهم جميعا في كل موقف أو مناسبة ، فان ذلك فوق طاقة
البحث ، وإنما أريد أن أرسم الملامح العامة للاتجاه الإسلامي في شعرهم
وهذا في رأيي - يصدق بمثال واحد كما يصدق بأكثر من ذلك .

★★★

أما منهج البحث فانه يقوم على ثلاثة أصول :

١ - تاريخي : وأقصد به العلاقة بين النص وظروف العصر وأحداث
البيئة من حيث ان الأدب عامة صورة لما يموج به العصر والبيئة من ظروف
وأحداث يتأثر بها الأديب .

٢ - فني : وأعني به دراسة الخصائص الفنية وبيان القيم الشعرية
والتعبيرية للشعر المحافظ في ضوء المذهب الفني الذي ينتمي اليه شعراء
هذا الجيل .

٣ - نفسي : من حيث ان هذا الاتجاه الإسلامي في الشعر المحافظ
كان صدى لمؤثرات سياسية واجتماعية وثقافية وحضارية ذوات صبغة
دينية ، قد انفلتت بها نفوس هؤلاء الشعراء واستجابت لها عواطفهم .

★★★

وفى ضوء هذا المنهج ، قسمت البحث الى أربعة أبواب وخاتمة :
اختص الأول منها بدراسة (الاتجاه السياسى) فى الشعر المحافظ ،
وفيه عالجت القضايا السياسية ذوات الصلة بالدين سواء منها ما يتصل
بالمسلمين عامة أو بالمصريين خاصة .

وقد جاء هذا الباب فى فصلين :

تحدثت فى الأول منهما عن « الجامعة الاسلامية » فبينت أنها كانت
نيارا سياسيا دينيا يستهدف مقاومة الغرب المسيحى وصدده ودفع عدوانه ،
وتحرير بلاد الشرق الاسلامى من سيطرته . وأن هذا التجمع الاسلامى
تحت راية الخلافة العثمانية كان ضرورة يفرضها واجب الدفاع عن الاسلام
والمسلمين . ثم أشرت الى موقف الزعماء السياسيين فى مصر من الدولة
العثمانية . فذكرت أنهم كانوا يرون فيها سلطان الدين ، كما كانوا يرون
فى سيادتها تهديدا للاحتلال البريطانى فى مصر ، ثم تكلمت عن موقف
الشعراء المحافظين فبينت أنهم قد اتجهوا نحو الدولة العثمانية يؤيدونها
ويلتفون حول رايته ، ويمتدحون سلطانها حامى حمى الاسلام ،
ويستميحونه نصرا لمصر ، ويشكون اليه ما أصابهم على يد الانجليز ،
ثم تحدثت عن تأييد الشعراء للدولة العثمانية فى حروبها الاسلامية التى
كانت مظهرا من مظاهر التجمع الاسلامى فى مواجهة الغزو الصليبي .
ثم أشرت الى المعانى الاسلامية فى شعر الحروب العثمانية ، ودلالته على
غلبة النزعة الدينية فى هذا العصر من ناحية ثم على مشروعية الحرب التى
خاضتها الدولة العثمانية دفاعا عن مقدساتها من ناحية أخرى . ثم أشرت
الى تهجم الغرب على الاسلام وأثر ذلك فى إثارة الحمية الدينية واقتناع
المسلمين بضرورة التجمع الاسلامى لمواجهة العداء الصليبي للاسلام ثم بينت
موقف الشعراء المحافظين من هذا الهجوم .



وفى الفصل الثانى من هذا الباب تحدثت عن « السيادة الوطنية
المصرية » ، فذكرت أن الاتجاه نحو تحقيق السيادة الوطنية المصرية كان
مرهونا بزوال الاحتلال البريطانى الذى أصاب الروح الوطنية باليأس
والاستخذاء ، ثم أشرت الى جهود الزعماء السياسيين فى انهاض الروح
الوطنية ، وبث معانى العزة والكرامة فى النفوس ، ثم تحدثت عن أهم
القضايا الوطنية ذات المساس بالدين ، وعرضت لموقف الاسلام من هذه
القضايا . ثم ختمت بملاحظات عامة .

أما الباب الثاني : فقد جعلته في « الاتجاه الاجتماعي » محاولاً رسم صورة عامة للحياة الاجتماعية المصرية مبيناً موقف الشعر المحافظ من قضايا المجتمع ومشكلاته في ضوء المفاهيم الإسلامية .

وقد جاء هذا الباب في فصلين :

أولهما : في « الحياة الاجتماعية في مصر : تصوير عام » وفي هذا الفصل قدمت صورة عامة للحياة الاجتماعية المصرية من خلال تيارين أساسيين هما : الجديد الطارئ والقديم الموروث .

ثم تحدثت عن هذين التيارين وأبرزت أثرهما في الحياة المصرية ثم بينت كيف تعامل الشعر المحافظ مع هذين التيارين بما يتفق وموقف الإسلام . وانتهيت في هذا الفصل إلى أن المجتمع المصري قد كان في حاجة إلى الإصلاح والنهضة .



أما ثاني الفصلين من هذه الباب : فهو « الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي » وفي هذا الفصل أبرزت أهم القضايا والمشكلات الاجتماعية التي شارك الشعر المحافظ في إصلاحها بفكر موصول بالإسلام .

ولقد كان من أبرز هذه القضايا قضية المرأة ، ومشكلة الفقر ، وقضية التعليم ، وقضية الشباب ، وقد أوضحت من خلال مناقشة هذه القضايا مدى الدور الاجتماعي الذي أداه الشعر الإسلامي المحافظ في هذه الفترة المفعمة بالمشكلات والأحداث الاجتماعية .



أما الباب الثالث من أبواب الرسالة فقد تناولت فيه « الاتجاه الحضاري » كما يتمثل في اهتمام الشعراء بتجلية ملامح الحضارة الإسلامية وإبراز قسوماتها في مواجهة الحضارة الغربية الوافدة .

وقد قسمت هذا الباب إلى فصلين :

تحدثت في **الأول** منهما عن (الإشادة بالحضارة الإسلامية) فذكرت أن الاتجاه نحو الحضارة الإسلامية ، والإشادة بعطائنها ، وتمجيد بناتها والهتاف بالإسلام الذي صنعها وبالأمة التي حملتها إلى الناس كان محاولة لرد اعتبار المسلمين في هذه الحقبة التي كان الشرق الإسلامي فيها يتردى في مهاوى التخلف والجمود ويترنح تحت ضربات الاستعمار وتتهاوي أعلامه تحت أقدام الغزاة ، وتعجز إمكاناته عن المواجهة المتكافئة مع

الحضارة الغربية الناهضة ، ثم أبرزت ملامح هذه الحضارة الإسلامية من خلال الوثائق التاريخية مؤكداً أن الإسلام هو صانع هذه الحضارة ، ثم تملكت صورة هذه الحضارة العلمية والعملية أو العقلية والمادية في مرآة الشعر المحافظ .

ثم تحدثت عن تمجيد الشعراء المحافظين لعظماء الإسلام ، فأشرت الى أن هذا التمجيد كان صورة من صور البعث النفسى تستهدف إعادة الثقة فى نفوس المسلمين المعاصرين ، وتستحضرهم الى الجهاد والمضى فى طريق المجد الذى بناه الأولون .

وفى الفصل الثانى من هذا الباب : تحدثت عن « التعريف بالإسلام فى مواجهة التحديات » فبينت أن التعريف بالإسلام كان يستهدف إثبات صلاحية الإسلام بل ضرورته لبناء نهضة قوية على أساسه .

ثم ذكرت أن « الأفغانى » و « محمد عبده » قد رادا هذا الاتجاه بما كتبا عن الإسلام ، ثم أشرت الى دور الصحف الدينية فى دعم هذا الاتجاه ثم تحدثت عن دور الشعر فى الكشف عن مزايا الإسلام ومحاسنه ثم ذكرت أن الشعراء المحافظين قد أخذوا من منطلق الاحساس بمزايا الإسلام وعظمة مبادئه يهتفون به ، ويدعون الى التمسك بمبادئه واحياء منهجه ، مؤكدين أنه السبيل الوحيد لاستعادة المجد الغارب ، ثم بينت أن ايمان الشعراء بعظمة الإسلام قد دفعهم الى الحرص على تراثه وحماية لغته الفصحى من محاولات الهدم التى تعرضت لها فى هذه الآونة .

أما الباب الرابع فقد قصرته على « الدراسة الفنية » للشعر الإسلامى المحافظ فى مصر .

وقد قسمت هذه الدراسة الى فصلين :

تناولت فى الفصل الأول منهما : « الشكل الفنى للقصيدة الإسلامية فى الشعر المحافظ فى مصر » من حيث الصياغة أولاً ، ثم من حيث البناء الفنى للقصيدة ثانياً .

وفي الصياغة ، تحدثت عن : الألفاظ ، والعبارات ، والمحسنات
البديعية ، والموسيقى الشعرية ، والصور الجمالية .

وفي البناء الفني تحدثت عن منهج المحافظين في بناء قصائدهم ومدى
ما حققوه من تطور في هذا المجال .

وفي الفصل الثاني من الدراسة الفنية تناولت « المضمون الاسلامي
في الشعر المحافظ في مصر » فتحدثت عن :

الأفكار والمعاني الاسلامية ، ثم تحدثت عن العاطفة الدينية في شعر
المحافظين ، ثم تكلمت عن الموضوعات الاسلامية في شعرهم .

أما الخاتمة فقد أوجزت فيها أهم نتائج البحث .

أما المصادر التي استقت منها الدراسة ومدى الافادة منها فاني أذكر
على سبيل الاجمال أن هذه المصادر كانت كثيرة ومتنوعة وأن البحث قد
أفاد منها جميعا ولكني - في حدود هذه المقدمة أجد صعوبة في بيان ذلك
تفصيلا ومن ثم اكتفيت بالإشارة اليها في هوامش البحث ثم أثبتتها مرتبة
في نهاية الرسالة .

وبعد :

فهذا ما وفقني الله اليه ، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه
أنيب ..

البَابُ الأولُ الاتِّجَاهُ السِّيَاسِيُّ



● ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول :

الجامعة الإسلامية

الفصل الثاني :

السيادة الوطنية المصرية

الفصل الأول

(الجامعة الإسلامية)

كان الاتجاه نحو الخلافة العثمانية وتأييد فكرة الجامعة الإسلامية ، تيارا أساسيا في الفكر السياسي المصري منذ أواخر القرن التاسع عشر وإلى ما بعد الحرب العالمية الأولى وكان لذلك الاتجاه دوافعه الدينية والوطنية التي تتلخص في الخوف على ديار الإسلام من خطر الزحف الأوروبي الذي اشتد على المسلمين في نحو منتصف القرن التاسع عشر حين أخذت أوروبا تغرس مخالبيها في كثير من بلاد العالم الإسلامي .

فاحتل الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ ثم تونس سنة ١٨٨١ ، واستولى الروس على القوقاز ، وسيطرت إنجلترا على الهند ثم على مصر . بعد ذلك ، واستعمرت هولندا أندونيسيا وبات العالم الإسلامي كله محوطا بالخطر مهددا بالضياع .

وازاء هذا الاحساس بالخطر على الإسلام تنادى المسلمون بالدعوة إلى ما يأمر به الدين من وحدة دينية تجمع المسلمين صفا واحدا في مواجهة عدوهم المتربص بهم .

ومن هنا ولدت فكرة الجامعة الإسلامية تيارا سياسيا دينيا يستهدف مقاومة الغرب المسيحي وصدده ودفع عدوانه ، وتحرير بلاد الشرق الإسلامي من سيطرته .

وكانت كلمات السيد جمال الدين الأفغاني في هذه الحقبة هي صوت النذير الذي أيقظ المسلمين على خطر الزحف الصليبي الجديد ، ووجههم

وجهة الجامعة الاسلامية لمقاومة هذا الزحف وصدده . ومن هذه الكلمات التي كانت تتردد فى جنبات العالم الاسلامى يومئذ قوله :

« العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عابو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص فجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا » (١) « الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدا ناظرة نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت ، وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان فى كثير من الشئون الخطيرة والمواضع الكبرى حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية » (٢) .

« جميع الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عداء الاسلام وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الاسلام سحقا » (٣) .

ومما قوى هذا الاحساس بالخطر لدى المسلمين . . ما كان يبدو من الدول الأوروبية من سلوك العداء والتحدى للإسلام والمسلمين : فقد كانت روسيا « لا تنقطع عن إثارة الفتن بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركى ، ومدهم بالسلاح بدغوى التخلص من حكم المسلمين وكان « جلادستون » زعيم الأحرار بإنجلترا يلقى الخطب الرنانة ويؤلف الرسائل المطولة ناسبا الى تركيا اضطهاد المسيحيين مشيرا الى السلطان عبد الحميد بقوله : « الشيطان » و « عدم المسيح » (٤) .

وقد بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح حلا للمسألة الاسلامية القضاء على المسلمين ، ونشئ قبر الرسول الكريم ونقل عظامه الى متحف اللوفر فى باريس (٥) . وكان لهذه الأحداث - ولا شك -

(١) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ١٣٧ - المطبعة السلفية - القاهرة سنة ١٣٤٣هـ .

(٢) لوثرروب ستودارد . . المرجع السابق . والصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٤) د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، ج ١ ، ص ٢ .

(٥) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، ج ١ ، ص ٢ .

أثرها في تنمية الشعور بالرابطة الاسلامية وتغذية الاحساس بالخطر الذي يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار الغربى المتربص بها (١) .

وفى خضم هذه الأحداث نشطت الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وأخذ المصلحون يحثون على اتحاد كلمة المسلمين ويدعونهم الى الاخوة الدينية التى يأمر بها الدين وكانت مقالات « العروة الوثقى » فى « الوحدة الاسلامية » ذات صدى بعيد فى الوعى الاسلامى يومئذ .

يقول الامام محمد عبده فى « العروة الوثقى » (٢) داعيا الى الوحدة الاسلامية :

« ان من أدركنا الى بيشاور (٣) دولا اسلامية متصلة بالأراضى متحدة العقيدة يجمعهم القرآن وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقلام كما اتفق عليه سائر الأمم ؟ ولو اتفقوا عليس ذلك يبدع منهم فالاتفاق من أصول دينهم ، هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم لبعض ؟ أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله فى قوله : « انما المؤمنون اخوة » فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المندفعة عليهم من جميع الجوانب » (٤) .

ويقول تحت عنوان (الوحدة والسيادة أو الوفاق والغلب) :

« هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بهما . ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، جاء فى قول صاحب الشرع أن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وجاء فى توجيهه لا تقاطعوا ولا تدابروا ، ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » وهذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ونهاهم عن التفرق والتغابن وامتن عليهم بنعمة الاخوة بعد أن كانوا أعداء ، ونطق الكتاب الالهى « انما المؤمنون اخوة » .

(١) د . محمد حسين : المرجع السابق ، ص ٣ .

(٢) من المعروف أن جمال الدين الأفغانى هو صاحب الفكرة فى مقالات « العروة الوثقى » وأن محمد عبده كان يصوغ الأفكار بعبارته .

(٣) « أدركنا » و « بيشاور » الاولى فى تركيا غربا والثانية فى بلاد افغان شرقا .
راجع : تاريخ الامام ج ٢ ، ص ٢٨١ .

(٤) العروة الوثقى - العدد التاسع ٢٥ من رجب سنة ١٣٠١ هـ ٢٢ مايو ١٩٨٤
راجع تاريخ الامام ج ٢ ، ص ٢٨١ .

ويقول :

« .. كل هذه الرزايا التي حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ما كان قاذفنا ببلائها ، ورامينا بسهامها ، الا افتراقنا وتدابيرنا ، والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه لو أدينا حقوقا تطالبنا تلك الكلمة التي تهل بها السنتنا ، وتطمئن قلوبنا بذكرها ، وهي كلمة الله العليا هل كان يمكن للغرب أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل كان يلمع سبب العدوان في وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الأعداء الا وأقدامنا في صياصيتهم وأيدينا على نواصيتهم ؟ » (١) .

على أن فكرة الوحدة التي دعا اليها السيدان : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما من زعماء العالم الاسلامي لم تكن غريبة على المسلمين وانما كان شعورا روحيا قائما بالفعل يربط بين المسلمين برباط الايمان، اذ كان مؤتمر الحج السنوي في مكة يدعم هذا الشعور الأخوي ويقوى من روابطه حيث يؤدي الحجاج جميعا مناسك واحدة وفي أيام معلومات ، وهناك يتعارفون على اختلاف سنتهم وألوانهم ، ويتباحثون العواطف الدينية ، ويتباحثون في الشؤون الاسلامية ويتدارسون مشكلاتهم وقضايا أوطانهم .

كذلك كانت الخلافة الاسلامية في تاريخ المسلمين عاملا مهما من عوامل الوحدة بينهم . لا سيما في عصور الاسلام الأولى في حين كانت الخلافة قوية مهيبة ، وكانت رمزا لوحدة المسلمين وهيبتهم والدفاع عن دينهم وحفظ عقيدتهم وتحقيق السيادة لهم .

وفي هذه المدة كان السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) على رأس الدولة العثمانية التي كانت على الرغم مما أصابها من عوامل التصدع في الداخل والخارج أكبر الدول الاسلامية وأقواها وأصلحها للقيام بالدور القيادي في حركة التجمع الاسلامي وفي الدعوة الى الوحدة الاسلامية تحت جناح الخلافة العثمانية .

وكان السلطان عبد الحميد قد نشط في احياء عظمة الخلافة الاسلامية في هذه الحقبة ، وعمل على استرداد ما كان لها من الجلالة والهيبة والخطورة في العالم الاسلامي (٢) فنأدى بأن سلطته الزمنية

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي ، ج ١ ، ص ٧١ .

تستند الى سلطته الدينية فهو ظل الله على الأرض ، وأمير المؤمنين ، وخليفة
النبي وخادم الحرمين الشريفين (١) .

كما احاط نفسه باطار من التقوى والزهد وظهر بمظهر الخليفة
الزاهد . فأعاد الى الأذهان صورة الخلفاء المسلمين الذين التزموا بفرائض
الدين وتجردوا للدفاع عن الاسلام . وكان لرسله ودعائه الذين بعث بهم
الى البلاد الاسلامية دورهم في تجميع القلوب حوله والدعوة له خليفة على
المسلمين واماما لهم وحاميا لدينهم من عدوان الغرب المسيحي . ومن ثم
اتجهت مشاعر المسلمين ولا سيما في البلاد التي هددتها الأطماع
الاجنبية (٢) . نحو السلطان عبد الحميد الذي نجح في احياء فكرة
الخلافة الاسلامية ونجح من خلالها في تهيئة الشعور الاسلامي وتهيئته
للولاء له .

كما نجح في حمل امراء المسلمين وقادتهم على الاعتراف بسلطته
الروحانية فولوا وجوههم شطره وحسبوه قبلة آمال العالم الاسلامي ،
وقدسوا مقامه تقديسا ، وغدا العظماء والكبراء يتقاطرون على « فروق »
من كل فج من فجاج العالم الاسلامي لمبايعة الخليفة الأعظم أمير المؤمنين
وحامي بيضة الاسلام الذي مملكته مملكة حصن الاسلام والمسلمين (٣) .

وبذلك سرى في ذهن المسلمين من رعايا الدولة العثمانية : « أن في
تأييد السلطان تأييدا للاسلام وهو خادمه وناصره ، واعلاء لشأن الشريعة
وهو حاميا ومؤيدها وجامعا للكلمة وهو ما يأمر به الدين ويحض عليه ،
فالتفوا حوله وساروا تحت علمه ، وبايعوه سيذا واماما (٤) .

وهكذا صار الخليفة العثماني في نظر المسلمين ممثلا للاسلام ،
وداعيا له ، وصار تأييده في نظرهم واجبا يفرضه الدين وصار الالتفاف
حول راية الخلافة أمرا ضروريا تستوجبه طاعة الخليفة (٥) .

واذ نجح السلطان عبد الحميد في احياء مكانة الخلافة الاسلامية
وبعث هيبتها في النفوس وتهيئة الشعور الاسلامي للجهاد في سبيل الله

(١) د. علي حسنى الحروبلى : القومية العربية من الفجر الى الظهر ، ص ١٥٧ .

(٢) د. علي حسنى الحروبلى : غروب الخلافة الاسلامية ، ص ١٨٧ .

(٣) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي ، ج ١ ، ص ١٤١ .

(٤) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، ص ١ .

(٥) محمد سالم الحمداني : التيار الديني في التسلسل العراقي الحديث ، ص ٢٥ .

« رسالة دكتوراه » مخطوطة بكلية الآداب ، جامعة عين شمس .

واعلاء راية الاسلام . أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى لتمد يد العون اليه وتشد أزره بالالتفاف من حوله . وكان من وسائله فى تحقيق أهدافه الكشف عن ألوان العداء والمقت التى تضمهر الدول الغربية للمسلمين ولم تكن الدول الغربية تتورع عن خلق المذابح الوحشية فى المكان المطلوب وفى الآونة المطلوبة فحدثت مذابح أرمينية ، ومذابح لبنان ومذابح الاسكندرية (١) .

وكانت أخبار المجازر الوحشية البشعة فى بلاد البلقان تتردد بين المسلمين فتوقد نار الحمية الدينية فى قلوبهم حتى غدا مفهوم المسألة الشرقية مفهوما دينيا يتمثل فى النزاع المستمر بين النصرانية والاسلام أى مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدول القائمة بأمر الاسلام وبين دول المسيحية (٢) .

وأمام هذا الصراع الدينى الخطير بين المسيحية والاسلام ، أو بين الغرب الصليبي والشرق الاسلامى أصبح التجمع الاسلامى - أو - الجامعة الاسلامية تحت راية الخلافة العثمانية ضرورة يفرضها واجب الدفاع عن الدين ضد الغزو الصليبي الزاحف .

وكان زعماء الفكر السياسى فى مصر يرون فى الدولة العثمانية ما يراه المسلمون فيها من أنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزتهم وليس للدين سلطان فى سواها ، (٣) وأنها هى الحامية لبيضة الدين الاسلامى (٤) .

وأن زوالها - لا قدر الله - يكون مجلبة للآخطار ، أكبر الأخطار . ومشعلة لنيران يمتد لهبها بالأرض شرقها وغربها شمالها وجنوبها ، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الاسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تعد بعد الحروب الصليبية الا معارك صبيانية (٥) .

(١) عباس محمود العقاد : الاسلام فى القرن العشرين . حاضره ومستقبله ، ص ٥٢ .

(٢) مصطفى كامل : المسألة الشرقية ، ص ٥ ، ط ٠ أولى ، سنة ١٨٩٨ .

(٣) محمد رشيد رضا : تاريخ الامام ، ج ١ ، ص ٩٠٩ .

(٤) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية - مقدمة الطبعة الثالثة سنة ١٩١٢ .

(٥) مصطفى كامل : المرجع السابق ، ص ١٣ .

وهذه المنزلة السامية للدولة العثمانية وهذا الواجب المقدس المنوط ببقائها يقتضى من المسلمين ضرورة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وقوتها والالتفاف حول رايتها وتعزيزها بالأموال والأرواح . لأن فى حفظها حفظ كرامة المسلمين وشرفهم ، وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية (١) .

بهذه العاطفة الدينية اتجه الشعراء المحافظون فى مصر الى الدولة العثمانية دولة الخلافة الاسلامية يؤيدونها - وقد رأوا فيها حصن الاسلام - ويلتفون حول رايتها ، ويمتدحون سلطانها ، وحامى حماها أمير المؤمنين وخليفة النبى صلى الله عليه وسلم - وناصر الاسلام وحامى بيضة الدين - السلطان عبد الحميد .

وكان هذا الاتجاه نحو الخليفة العثمانى ونحو الدولة العثمانية مظهرا للعاطفة الدينية التى أشعلها السلطان عبد الحميد وزعماء المسلمين بتأثير الظروف السياسية التى كان يجتازها العالم الاسلامى فى صراعه مع الغرب المسيحى . وقد ظهر أثر هذه العاطفة الدينية فى نظرة الشعراء المحافظين الى الخليفة العثمانى من حيث أنه رجل الاسلام الأوحده ، وحامى حماه المهدد ، الذى جاهد الأعداء وذادهم عن حوض الدين وأعاد الى الاسلام أمنه ومجده ، ولولاه لتضعض الاسلام وضاع ملك المسلمين .

يقول « شوقى » مادحا خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد (٢) :

يا واحد الاسلام غير مدافع	انا فى زمانك واحد الأشعار
ان الهلال وانت وحدك كهفه	بين المعاقل منك والأسوار
لم يبق غيرك من يقول أصونه	صنه بحول الواحد القهار

ويقول « محرم » عن السلطان عبد الحميد مشيدا بجهوده فى حماية الاسلام : (٣)

حمى بيضة الاسلام عن يد لاس	فأصبح من كيد العدا وهو سالم
وصان دمار الدين والدين حوله	ايا من من أعدائه وأشائمه
هو الدائد الأعداء عن حوض مجده	بصارم عزم لا يحاكيه صارم

(١) مصطفى كامل : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٢) الشوقيات ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

(٣) ديوان محرم ، ج ١ ، ص ٢٠ .

ويقول « الكاشف » مخاطبا السلطان عبد الحميد : (١) .

يا حامى الاسلام وابن حماته فى دولة لا تنتهى خصماؤها

ويقول مصورا عبد الحميد بأنه كان كطوق النجاة للمسلمين من
خطر محقق : (٢)

ولقد أتى والسيف فى عنق الحمى وبنوه غرقى فى عباب دماؤه

فأقال عشرته وجمع شمله وشفاه من آلامه وشقاقه

فنجاه به الملك الكبير من الأذى وتهلل الاسلام بعد بكائه

ويقول « نسيم » من قصيدة له فى تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد
الفطر : (٣)

خليفة الله يا ابن الغر من نجب لله درك يوم الروح من عضد

جاهلت فى الملك تحميه وتحفظه جهاد طه مع الأنصار فى احد

وقد اعلت الى الاسلام نصرته حتى زهى بك واستلرى الى مسند

ويقول من قصيدة أخرى متوجها بالخطاب الى جلالة السلطان
عبد الحميد : (٤)

وقد اعلت الى الاسلام نصرته حتى ارتدى روضة باليانع الخضل

وبت ترعى الرعايا فى مراقدها وصرت تحمى ثمار الفازع الوجل

فلا برحت لهذا الدين تكلؤه حتى يعود الى ايامه الأول

(١) ديوان الكاشف ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(٢) ديوان الكاشف ، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٣) ديوان نسيم ، ج ١ ، ص ١٨ .

(٤) ديوان نسيم ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

ويقول شوقي من قصيدة له يمدح السلطان عبد الحميد ويشيد
بفضله في جمع شمل المسلمين : (١)

فلولاك ملك المسلمين مضجع ولولاك شمل المسلمين شستات

على هذا التقدير - وهو صحيح - كون الشعراء المحافظون في
مصر أحاسيسهم تجاه الخليفة العثماني وأخذوا يرددون هذه الأفكار التي
كانت تقع من نفوس المسلمين موقع القبول والرضا لأنها تعبر عن أملهم
في خليفتهم وفي دولته العلية .

وإذا كان الخليفة العثماني مثالا للحاكم المسلم الذي يطبق الشرع
ويقوم العدل ويحكم بما أنزل الله ، ويسهر على مصالح المسلمين ، رأينا
شعراءنا المحافظين يتجهون إلى مدحه بتلك العناصر الإسلامية أو بخصائص
الحكم الإسلامي الذي يمثله حقيقة أو حلما للمسلمين في هذا العصر .

فيقول « حافظ إبراهيم » من قصيدة له بمناسبة الدستور العثماني
يخاطب السلطان عبد الحميد :

أرضيت ربك إذ جعلت طريقه أما وفزت بنعمة الرضوان
وجمعت بالدستور حولك أمة شتى المذاهب جمة الاضغان
فجعلت أمر الناس شورى بينهم واقمت شرع الواحد الديان (٢)
ويقول « الكاشف » : (٣)

قد قمت بالحكم عدلا لا يميل بك الـ هوى ولا يتخطى رايتك الرشـد
وسرت بالملك مأمون المذاهب ميـ مون المساعي على القرآن تعهد
ويقول من قصيدة له يصف ملامح الحكم الإسلامي في ظل الدستور
الجديد : (٤)

الحكم عدل والرعية حرة والملك بينهما أعز فخور
وخليفة الرحمن مطرد الندى والبر موفور الجلال وقور
مصدوقة شوره عال رايه والأمن تحت لوائه والنور
يرعى ويسترعى العباد أمورها ملك له التدبير والتخير

(١) الشوقيات ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(٣) ديوان الكاشف ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٤) ديوان الكاشف ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

حسب العباد من النظام وأهله إلا يدل على الوضع وزير
جمع الشوارد حول حوض واستوى فى ظله مستأجر وأجير
ويقول « محرم » : (١)

انا يسوس أمورنا وقيمهها ملك بأمر الهه قوام
لولا حزامته وشلة بأسه ومضاؤه لتضعع الاسلام
ما زال يحمى حوضه مذ جاءه وكذاك يحمى غيله الفرغام

الى غير ذلك من الصفات الاسلامية التى تذكرنا بملامح الحكم
الاسلامى ولكن السؤال الذى يطرح نفسه من منظور الشعراء لسياسة
السلطان عبد الحميد هو :

هل كان السلطان عبد الحميد نموذجا للحاكم المسلم فعلا كما صوره
الشعراء ؟

أم أن الشعراء قد غلبتهم عاطفتهم الدينية فعظموا الاسلام فى شخص
ال خليفة وتقربوا الى الله بمدحه بأجل الصفات التى ينبغى أن يكون عليها
رجل الاسلام ومن تتعلق به آمال المسلمين ؟

والذى يبدو لى - أن أغلب هذه الصفات كان من وحي العاطفة
الاسلامية التى فاضت بمعانى التقدير والاحلال لرمز الاسلام وخليفة
المسلمين السلطان عبد الحميد الذى جاهد فى سبيل الاسلام والمسلمين .

والحق أن السلطان عبد الحميد قد أدى فى سبيل الدفاع عن الاسلام
وحماية المسلمين دورا يستوجب ثناء المسلمين عليه بقدر ما أثار من أحقاد
الغرب وأباطيلهم ضده . فلقد كان عبد الحميد هو آخر الحصون التى
دافع بها الاسلام عن وجوده وكان اسقاطه هو آخر حلقة من حلقات
المقاومة للسيطرة الغربية الكاملة على العالم الاسلامى .

وقد كشفت وثائق الصهيونية كيف حول هرتزل ودعاة الصهيونية
بعد عقد مؤتمرهم الأول فى سويسرا سنة ١٨٩٧ الالتقاء بالسلطان
عبد الحميد واغراءه لفتح الطريق الى فلسطين ، وكانت أولى المحاولات هى
محاولة « هرتزل » (١٩٠٠ - ١٩٠١) وكان رئيسا لتحرير جريدة
« نيوفرى » فى « فيينا » الذى تقدم بعرض مفاده أن يتعهد الصهيونيون
بدفع الدين العثمانى البالغ (٢٢ مليون ليرة انجليزية) وبناء أسطول

(١) ديوان محرم ، ج ١ ، ص ٢٣ .

كامل للدفاع عن أراضي الدولة العلية وعقد قرض بمبلغ مائة مليون فرنك تصرف في سبيل التسليح العام وذلك نظير نزول اليهود المضطهدين في أنحاء العالم بفلسطين . وقد سجل « هرتزل » في مذكراته رد السلطان عليه حيث قال : « بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبذل بعدم اليوم شيئا من المحاولة في هذا الأمر (التوطن بفلسطين) فاني لست مستعدا لأن أتخلي عن شبر واحد من هذه البلاد ليذهب الى الغير ، فالبلاد ليست ملكي ، بل هي ملك شعبي الذي روى تراثها بدمائه وليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب » (١) .

وفي المحاولة الثانية تقدم ثلاثة من اليهود (مرزاحي - جال - ليون) الى السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٢ بعرض ضخيم مفر يتضمن ما يلي :

- ١ - الوفاء بجميع الديون المستحقة على الدولة العثمانية .
- ٢ - بناء أسطول لحماية ثغور الامبراطورية العثمانية .
- ٣ - تقديم قرض بخمسة وعشرين مليون ليرة ذهبية دون فائدة لانعاش مالية الدولة ، وذلك مقابل :

- (أ) اباحة دخول اليهود الى فلسطين للزيارة .
- (ب) السماح لليهود باقامة مستعمرة ينزل فيها أبناء جلدتهم قرب القدس الشريف وقد رفض السلطان عبد الحميد هذا العرض في اصرار عجيب (٢) .

أفلا يدل ذلك على اخلاص السلطان عبد الحميد لأمانة الخلافة الاسلامية وحرصه على دولة الاسلام مهما كانت المغريات على الرغم من شدة احتياجه الى المال لاصلاح الاقتصاد التركي المتداعي ؟

واذن فقد كان السلطان عبد الحميد - رغم ما قيل عنه وأشيع - حصنا منيعا للاسلام قد أخفقت في عهده كل محاولة مسيحية ، وكل مؤامرة يهودية ضد المقدسات الاسلامية حيث نشبت الحرب الكونية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) (٣) .

(١) أنور الجندي : « العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي » ص ١٧٠/١٦٩ ، وانظر : د . علي جريشة : في « اساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي » ص ٤٧/١٦ .

(٢) أنور الجندي : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابو الحسن الندوي : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ص ١٧٣ .

ولذلك رددت الشعوب الاسلامية اسم السلطان عبد الحميد مقرونا بحماية الاسلام ونصره والدفاع عن بيضة الدين وجمع شمل المسلمين .

وكان حرص السلطان عبد الحميد على جمع شمل المسلمين وتوحيد صفوفهم باعثا للشعراء على مدحه والاشادة بسياسته الحكيمة التي وصلت ما بين المسلمين وألفت بين قلوبهم ، وكان من جهود السلطان في هذا الصدد : مشروع سكة حديد الحجاز (١) لتسهيل طريق الحج أمام المسلمين ، وربط البلاد الاسلامية بعضها ببعض .

وقد خلق هذا المشروع في أنحاء العالم الاسلامي حماسة دينية كبيرة فانهاالت التبرعات للمشروع من كل بلد اسلامي حتى غطت التبرعات ثلث النفقات ، وتبرع السلطان عبد الحميد نفسه بمبلغ كبير ، فنال بذلك رضا المسلمين .

وكانت مصر في مقدمة البلاد الاسلامية التي تحمست للمشروع وشاركت فيه بالمال والكلمة . فقد تألفت اللجان في جميع جهات القطر لجمع التبرعات ، ونظمت القصائد لهذا الغرض وكتبت المقالات لذلك . ومن الأشعار التي نظمت في الدعوة الى التبرع قول شوقي : (٢).

يا امة المصطفى جلت حوائجكم	فقدموا الخير على الله يقضيها
لا تسمعوا لمريب في خلافتكم	كفى الخلافة ما يأتى اعاديها
ما هذه الحرب في زى السلام لكم	الا صليبية والكل صاليها
فكثلوا ما استطعتم من ديونكمو	عند النبي فان الله موفيها
تلك الاعانة لأمين ولا كذب	اعانة المصطفى جبريل جابيها
فمن يضن على طه وفي يده	فضول مال للشیطان ما فيها

ولا شك أن هذا المشروع قد قوى ثقة السلطان عبد الحميد نفسه كخليفة للمسلمين كما قوى ثقة المسلمين به كخادم للحرمين الشريفين .

(١) بدأ المشروع سنة ١٩٠٠ بمد خط حديدى من دمشق الى المدينة المنورة وتم هذا الجزء سنة ١٩٠٨ وكان السلطان عبد الحميد ينوى مده الى مكة بدلا من طرق القسوافل القديمة ، وقد قدرت تكاليف المشروع بثلاثة ملايين جنيه اكتببت فيها المسلمون في سائر الأرض ، وكان المشروع وقتذاك حديث المسلمين ، راجع :

(أ) غروب الخلافة الاسلامية : للخربوطلى ، ص ١٩٠ .

(ب) الاتجاهات الوطنية ، ج ١ ، ص ١١ .

(٢) محمد سيد كيلانى : « ترام القاهرة » ص ٥١ .

وقد ظهر ذلك فى اشادة الشعراء بهذا العمل الاسلامى فى ثنايا قصائد المديح .

يا بنت « روما » لا تكونى كما
كانت آئينا بين قيل وقال
دفنت عدل الله فى أرضه فاستوثقى من شر ذاك المال (١)

يقول شوقى بمناسبة صدور « الدستور العثمانى » مشيرا الى سكة حديد الحجاز : (٢)

اسدى الينا امير المؤمنين يدا جلت ، كما جل فى الاملاك مسديها
وليس مستعظما فضل ولا كرم من صاحب (السكة الكبرى) ومنشيها (٢)

ويقول « حافظ ابراهيم » فى تهنئة السلطان عبد الحميد مشيدا بآثره فى المحافظة على الاسلام ومنوها بسكة حديد الحجاز وآثرها فى التقريب بين المسلمين : (٣)

سما فوقه ، والشرق جدلان شيق لطلعته والغرب جدلان يرقب
فقام بأمر الله حتى ترعرعت به دوحة الاسلام والشرك مجذب
وقرب بين المسجدين تقربا الى الملك الأعلى فنعم المقرب
ويقول الكاشف مشيدا بفضل السلطان فى تسهيل سبل الحج للمسلمين وفى تأليف قلوبهم : (٤)

وسهلت سبل الحج ان سلوكها لاسرع من سير الغمام اويسر
دعا لك بيت الله ما قام منسك بآركانه للمسلمين ومشعر
وقربت ما بين البلاد من المدى ونلولتها ما باعها عنه تقصر
والفت اشتات القلوب على الهدى واصبح يخشاها الضلال المنفر

ويقول « عبد الحليم المصرى » من قصيدة له بمناسبة الدستور العثمانى مشيرا الى مشروع السكك الحديدية الذى يسر الحج وأمن طريقه :

(١) الشوقيات ، ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢) السكة الكبرى ، هى سكة حديد الحجاز .

(٣) ديوان حافظ ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٤) ديوان الكاشف ج ١ ، ص ٤٤ .

مدت ما بين (مصر) للحجيج وما
فأصبح القفر مأنوسا بطارقه
وأصبحت مكة تسعى الشعوب لها
هذا يطوف بيت الله معتمرا
بين (الخطيم) سبيلا غير منقضب
وأصبح الوحش يستدعى فلا يجب
لكل ساع بها ضرب من الأرب
وذاك من نفحات القبر في عجب (١)

وهكذا كان مشروع السكة الحديدية الحجازية بما بعثه في المسلمين
من حماس ديني وغبطة روحية عاملا مهما في نجاح الدعوة الى الجامعة
الاسلامية والايمان بالخلافة العثمانية التي أكدت للمسلمين - من خلال
هذا المشروع - حرصها على المقدسات الاسلامية ، وتأمين الطريق اليها ،
وتسهيل أداء فريضة الحج للمسلمين الذين يرون في أداء هذه الفريضة
تكفيرا لذنوبهم ، وتجديدا لايانهم .

وفي ذلك يقول السفير البريطاني في الآستانة العلية في تقريره عن
سنة ١٩٠٧ :

« ويمكننا أن نقرر بأنه من بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على
الأقل عناصر بارزة في الموقف السياسي العام ، أهمها خطة السلطان الماهرة
التي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب
الخلافة الذي هو الرئيس الروحي في الدين الاسلامي ، وأن يقيم لهم
البرهان على قوة شعوره الديني وغيته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز
التي ستهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بأداء فريضة
الحج الى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة وبهذا تفتح له أبواب الحياة
الأخرى وما تحويه من جنة ونعيم ، وقد ترتب على هذه السياسة أن أصبح
حائزا على خضوع رعاياه له خضوعا أعمى بشكل لم يسبق له مثيل » (٢) .

وكان تعلق المسلمين بالخليفة - الى جانب أنه أثر من آثار العاطفة
الدينية تجاه رمز الاسلام - دليلا على نجاح سياسة السلطان عبد الحميد
في اقناع المسلمين بمكانة الدولة العثمانية ومركز الخلافة الاسلامية
وضرورتها لصد العدوان الخارجي الذي تعاظم خطره على بلاد الاسلام في
هذه الفترة .

ومن ثم رأينا زعماء السياسة المصرية يتجهون صوب تركيا ويتعلقون
بأهداب الدولة العثمانية ويعلنون في غير مناسبة ارتباطهم وتبعيتهم لها .
وكانوا يرون في ذلك حكمة سياسية تقتضيها المصلحة الوطنية التي

(١) ديوان المصري ج ١ ، ص ٤٥ .

(٢) د . علي حسني الحروبلى : غروب الخلافة الاسلامية ، ص ١٩٠/١٩١ .

لا تتعارض مع المصلحة الإسلامية في هدفها العام وهو مقاومة الغزو الأجنبي وصدده والحيلولة بينه وبين تمكين وجوده في البلاد الإسلامية التي وقعت في قبضته كمصر وتونس ومن قبلها الجزائر .

وكانت الدولة العثمانية - رغم ما أصابها من علل الضعف والجمود - هي أقدر البلاد الإسلامية على قيادة التجمع الإسلامي في مواجهة التحزب المسيحي . ومن هنا وقر في نفوس المسلمين أنها طوق النجاة من خطر العدوان الأجنبي على بلادهم .

فلما وقع الاحتلال البريطاني على مصر سنة ١٨٨٢ كانت تركيا هي أمل المصريين في الإفلات من قبضة الانجليز لأن تركيا - فضلا عن زعامتها الروحية للمسلمين - كانت - بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ صاحبة السيادة على مصر . وبسبب هذه السيادة الرسمية - من ناحية ثم بسبب الزعامة الروحية من ناحية أخرى ظل الوجود الانجليزي في مصر معلقا ومهددا بالوجود التركي في مصر سياسيا وروحيا الى أن زالت السيادة التركية عن مصر سنة ١٩١٤ .

وقد أدرك زعماء الفكر السياسي في مصر خطر الدور الذي يمكن أن تؤديه تركيا لصالح القضية المصرية ضد الاحتلال الانجليزي فسبعوا الى دار الخلافة وأحسنوا العلاقة بها واسترضوا خليفتهم ، وأعلنوا في كل مناسبة تمسكهم بالسيادة التركية وجاهدوا في سبيل الحفاظ على علاقة مصر بالدولة العثمانية وحاربوا كل اتجاه يدعو الى الانفصال أو الاستقلال عنها لما في ذلك من خطر على القضية الوطنية والإسلامية في آن واحد .

لقد كانت التبعية المصرية لتركيا في هذه الفترة بالذات - سلاحا فعلا في مناوأة الانجليز واحباط آمالهم في مصر ، استغله الوطنيون في اطلاق الاحتلال وفي اقناعه من ناحية أخرى بعدم جدوى البقاء في مصر العثمانية الإسلامية .

يقول أحد الكتاب في مقال له سنة ١٩٠٨ (١) مشيرا الى هذه القضية :

« انه ليس في المصريين الذين يقدرّون الظروف السياسية قدرها من يقول بالاستقلال التام ، لأن القول به عين القول بأفراغ وجود مصر السياسي في شكل من أشكال الاستعمار البريطاني ، بل هو عليها شقاء

(١) الاستاذ : « محمد صادق عنبر » انظر : السواء ، في ١٤/١٠/١٩٠٨ .

وبلاء ، ونحن الآن أشد ما نكون انتصارا الى بقاء علاقتنا بدولتنا متينة
مكنة ومن الحكمة أن نعتصم بهذه العلائق دفعا لغوائل الحوادث » .

واذن فقد كان من مقتضى الحكمة السياسية أن تطل مصر على ولائها
السياسي وتبعيتها للسيادة التركية اضعافا للوجود الانجليزي في مصر
والى ذلك يشير مصطفى كامل بقوله : « ان مظاهره الأمة نحو الدولة العلية
هي مظاهره قوية ضد الاحتلال الانجليزي واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم
في الاكتاب للجيش العثماني هو اقتراح عام ضد الانجليز في مصر (١) .
ويقول في رسالة بعث بها الى مدام « جوليت آدم » :

« انك تعلمين خطتي نحو تركيا وما أراه واجبا نحوها فقد أفصحت
عن ذلك في خطبتي ، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من
السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ما دام الانجليز
محتلين وطننا العزيز » (٢) .

ويتساءل « مصطفى كامل » ردا على جريدة (لاند بندنس بلج) :

« ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها
لانجلترا أو تعاھلت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية
الانجليزية ألا تصير ولاية انجليزية ؟ » (٣) .

وكان رأى الزعماء السياسيين في مصر متفقا في ذلك مع السياسيين
الأوروبيين المخلصين لمصر فقد كتب المستر (بلنت) تصير المسألة المصرية
في مذكراته سنة ١٩٠٨ يقول :

« وقد نصحت لهم – أى الوطنيين المصريين – بالحرص على أن تكون
صلات المصريين بالدولة العثمانية حسنة بوجه خاص ، وذلك لأن العلاقة
التي تربط مصر بالامبراطورية العثمانية هي في الواقع الضمان الحقيقي
لسلامتها من مطامع انجلترا ، وكرر هذه النصيحة في رسالة الى مؤتمر
« جنيف » في سبتمبر سنة ١٩٠٩ . اذ قال : « لا تسمحوا بقطع صلاتكم
بالدولة العثمانية لأن مركزكم فيها يحول دون اطماع الأجانب فيكم
وبالرغم من الصداقة القائمة بين « الآستانة » و « لندن » فلا يمكن أن
أصلق أن الامبراطورية الاسلامية الكبرى يمكنها بأى حال أن تترككم للدولة

(١) عبد الرحمن الرافعي : « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

مسيحية ، وكرر ذلك في رسالته الى مؤتمر (بروكسل) سنة ١٩١٠ « (١) .

والحق أن سيادة تركيا على مصر وحسن العلاقة المصرية بتركيا قد حال دون اعلان انجلترا حمايتها على مصر منذ عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩١٤ - اذا كانت السيادة العثمانية على مصر عقبة أمام انجلترا تمنعها من اعلان الحماية الرسمية عليها ولذلك حاولت الحكومة البريطانية أن تشتري من تركيا الجزية التي تدفعها اليها مصر لتحل انجلترا محلها في سيادتها القديمة وكان رد تركيا هو الرفض (٢) .

واذن فان مصلحة مصر الوطنية كانت في حسن العلاقة بتركيا وأن الالتجاء الى الخلافة العثمانية كان ضرورة يحتملها الوجود الانجليزى آنذاك .

وقد سجل الشعر المحافظ في مصر هذه الفكرة السياسية القائلة بأن حسن العلاقة بين مصر وتركيا يحول دون تنازل الثانية عن حقها المعترف به دوليا ويجعل مركز الانجليز في مصر غير شرعى .
يقول « شوقى » مخاطبا الخليفة السلطان عبد الحميد : (٣)

ابا القمرين عرشك فى قلوب تجاوز فى الولاء المستطاعا
نرى فى الصيان لحق مصر فلولا العرش يعصمه لضاعا
يود سواك أن تهذى اليه ولن تشرى القلوب ولن تباعا
ويقول « الكاشف » مبينا أثر العلاقة الحسنة مع تركيا فى نفع القضية المصرية وعدم شرعية الاحتلال الانجليزى لمصر ، يقول مخاطبا الخديو عباسا سنة ١٩٠٣ : (٤)

ان اتصالك بالخليفة ضامن رد الغير مروعا مغلوبا
والحجة البيضاء فى يدك التى فتحت مجالا للجهاد رحيبا (٥)

(١) عبد الرحمن الرافعى : « محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية » . ص ١٩١ وما بعدها نصائح (بلنت) ص ٢٠٣/٢٠٤ .

(٢) مصطفى كامل : (وغائب الحزب الوطنى) ص ٥٥٥ .

(٣) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٤٧٧ - توثيق د. أحمد الحوفى .

(٤) ديوان الكاشف ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٥) يقصد بالحجة البيضاء عدم شرعية الاحتلال لما فى ذلك من نقض لمعاهدة لندن سنة ١٩٤٠ التى اعترفت فيها انجلترا مع سائر الدول باستقلال مصر وبقائها تحت السيادة العثمانية : راجع : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ، ج ١ ص ١٧ .

ويقول من قصيدة له فى حرب طرابلس سنة ١٩١١ يحض المصريين على التمسك بعرى العثمانية ويطلب اليهم أن يضعوا قضيتهم مع المستعمرين بين يدى أمامهم فهو كفيل بانقاذهم :

ان الذى جعل الخلافة فيكم جعل المودة والمحبة فينا
ان ائتلاف قلوبكم وقلوبنا ليمد أيديكم الى ايدينا
يا آل مصر وفي الحوادث عبرة فتصفحوها اليوم معتبرينا
فدعوا القضية للخليفة عليكم بعد الوداد اليهم ناجونا (١)

ومن منطلق الاحساس بأهمية الوجود العثماني فى القضية المصرية علق المصريون على الدولة العثمانية آمالا كبارا فى مؤازرتهم ضد الاحتلال .

وقد عبر الشعر المحافظ عن هذه الآمال التى جاشت فى صدور الأمة وارتبطت بمكانة الخليفة فى نفوسها فجعلت منه حاميا وحارسا ضد أعدائها المتربصين بها . وهى لذلك ترجو عونه وتأييده ، وتستنجد به وتشكو اليه كلما أصابها بأس أو مسها سوء . بل انها لترى ذلك واجبا على خليفة المسلمين الذى نيط بعنقه شئونهم وحيطة دولهم (٢) .

يقول شوقى معبرا عن آمال الأمة ومتوجها بالخطاب الى الخليفة العثماني : (٣)

على الباب هز بابك منا فسعينا وفى النفوس مرام
وتجلت فاستلما كما لنا س بالركن ذى الجلال استلام
نستمح الإمام نصرا لمصر مثلما ينصر الحسام الحسام
فلمصر - وانت بالحب أدري - بك يا حامى الحمى استعصام
والى السيد الخليفة نشكو جور دهر أحراره ظلام
وعلوها لنا وعودا كبارا هل رأيت القرى علاها الجهام (٤)
فارفع الصوت انها هى مصر وارفع الصوت انها الأهرام
وارع مصر ولم تزل خير داع فلها بالذى ارتك زمام

(١) ديوان الكاشف ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) راجع : د . محمد محمد حسين - فى - « الاتجاهات الوطنية » ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٣) الشوقيات ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٤) يشبه وعود الانجليز بالسحاب الذى لا يمطر .

فها هنا ترى « شوقى » يتوجه بالخطاب الى الخليفة العثمانى الذى تعلقت به آمال الأمة فى الخلاص من جور الاحتلال وظلم الاستعمار ، فيستميحه نصرا لمصر ، ويستنجد به لحمايتها ورعايتها فهو حامى الحمى ، وهو خير راع يرعى شئون المسلمين .

ويقول « الغياتى » من قصيدة له بمناسبة الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ ، مناشدا أمير المؤمنين عون مصر على التخلص من غمة الاحتلال التى جثمت على صدرها فكادت تحبس أنفاسها :

أمير المؤمنين مضت قلوبك إليك يحثها الحب المكين
تؤمل أن تراك لها معينا وانت لها على الدهر المعين
رأتك أمامها الأمل المرجى وفيك لدائها البرء المبين
فيا أمل القلوب إليك مصر تشير وبين جنبها حنين
تحن إليك يا رب المعالي وقد حلت بساحتها الشجون
رمتها الحادثات بشر قوم لهم فى كل مظلمة شئون
قضت فى عصرهم مصر ، ولولا رجاء فيك ما قرت عيون
فاعزز يا حمى الاسلام شعبا بعزك لا يذل ولا يهون (١)

أرأيت الى أى مدى كانت الأمة تتعلق آمالها الوطنية فى التخلص من الوجود الانجليزى على الدولة العثمانية وعلى خليفاتها - السلطان عبد الحميد - أمير المؤمنين - وحامى حمى الاسلام ؟ وإلى أى مدى أدى الشعر الاسلامى المحافظ رسالته الوطنية فى التعبير عن آمال الأمة تجاه دولة الخلافة استعصاما بالوحدة الاسلامية ، واستمسكا بحبل الله المتين الذى يشد المسلمين بعضهم الى بعض ؟

وأيا ما كان الأمر . فقد كانت الأمة المصرية على وعى كامل بحقيقة الدور الذى يمكن أن تؤديه دولة الخلافة لصالح القضية الوطنية ولصالح الاسلام معا . فتوددت الى الدولة العلية وإلى سلطانها وحرصت على اعلان هذا الشعور الطيب تجاه الدولة العثمانية فى كل مناسبة .

ومن ذلك انه لما اقترب عيد الجلوس السلطانى وكان فى ٢١ أغسطس ١٨٩٧ احتفلت به الأمة المصرية احتفالا لم يسبق له مثيل . فمنذ صباح ٢٨ من أغسطس أخذ السكان يجدون فى اقامة الزينات ، لا فرق بين غنى وفقير ، هذا أمام بيته ، وذاك أمام حانوته حتى لا يكاد الانسان

(١) ديوان الغياتى « وطنيتى » ، ص ٥٥ .

يرى فى جميع الشوارع والحارات الا اعلاما تخفق فوق جدران المساكن والمحلات التجارية . وأقيمت حفلات ساهرة فى حديقة الأزبكية . . . وأقيم احتفال كبير فى الجامع الأزهر (١) حضره بضعة آلاف من الطلبة والعلماء وألقيت فيه الخطب وأنشئت فيه القصائد .

وقد وصفت صحيفة « المؤيد » هذا الاحتفال فقالت : « احتفلت الأمة المصرية أمس بشعائر ذكرى عيد الجلوس الشاهافى المجيد احتفالا باهرا . ولم يسبق لمصر أن تحتفل بمثل هذا الاحتفال قبل العام فهو اذن بمثابة صوت عام من الأمة المصرية يعلن دوام ارتباطها وتعلق آمالها الخالصة بجلال المتبوع الأعظم من جهة وإعلان بحجة دافعة على الاحتلال أنه أجنبي غاصب ، تجفوه القلوب ، وتتخطاه الأميال من جهة أخرى ، (٢) » .

وقالت صحيفة الوطن القبطية تحت عنوان (معنى احتفال المصريين) :

« لم يسبق فى سنة من السنين ان المصريين احتفلوا بعيد جلوس الحضرة السلطاني بمثل احتفال هذه السنة . تنبه المصريون الى ارتباطهم بالحضرة السلطانية واحتفلوا فى جميع أنحاء القطر المصرى ، وتنافسوا فى اظهار الولاء لجنابه الرفيع بإقامة الزين الباهرة من تلقاء ذواتهم . وهذا الاحتفال هو بمنزلة تظاهر ضد الاحتلال وبمنزلة احكام العروة الرابطة مصر بالدولة العلية . فالانجليز كانوا يتمنون فك هذه العروة حتى ينظر المصريون اليهم وحدهم ، ويعولوا فى الأمور عليهم ولكنهم - أى الانجليز - نهجوا فى سياسة أتت غير مرامهم ، فان المصريين رأوا أن غاية سياساتهم ابتلاع مصر » (٣) .

بمثل هذا الاحتفال عبرت مصر عن عاطفتها تجاه السلطان العثمانى ودولته العلية لأنها رأت فى الدولة العثمانية حصن الاسلام كما رأت فيها عوناً للقضية المصرية ضد مطامع الانجليز .

على أنه لا تناقض بين العاطفة الوطنية المتجهة الى حماية الوطن تحت راية السيادة التركية على مصر .

فالدين والوطنية توأم على عكس ما قد يظن بعض الناس - كما يقول مصطفى كامل - اذ يقول :

(١) نصر الدين عبد الحميد « مصر وحركة الجامعة الاسلامية » من عام ١٨٨٢ - ١٩١٤ ، ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها . عن المؤيد فى ١/٩/١٨٩٧ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة . عن جريدة الوطن ، عدد ١٨٩٧/٩/٣ .

« قد يظن بعض الناس ان الدين يناهى الوطنية ، أو أن الدعوة الى الدين ليست من الوطنية في شيء ، ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأم متلازم وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ، ويفديه بروحه وما تملك يده ، ولست فيما أقول معتمدا على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ولكنى أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة « بسمارك » أكبر ساسة هذا العصر وهو رجل خدم بلاده ورفع شأنها . فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته « لو نزعتم العقيلة من فؤادى لنزعتم معها محبة الأوطان » (١) .

وينقل الامام محمد عبده عن « بسمارك » أيضا قوله :

« لو نفضت عقيدتى بدينى لم أختم بعد ذلك سلطانى ساعة من زمان . اذا لم أضع ثقتى فى الله لم أضعها فى سيد من أهل الأرض قاطبة . لكن انظروا الى تجلوني ملكت من موارد الرزق ما يكفينى وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده . فلماذا أشتغل ؟ ولم أجهد نفسى فى العمل ؟ ولم أعرضها للهموم والآلام ؟ لا يبعثنى على شيء من هذا الا شعورى بأننى فى جميع ذلك أعمل عملى لوجه الله . اسلبونى هذا الايمان تسلبونى محبتى لوطنى . . اعلموا أننى لو لم أكن مسيحيا مخلصا لم يكن لكم وزير كبير مثلى يدبر أمر الاتحاد الألماني » (٢) .

كذلك كان مصطفى كامل يرى أن التمسك بالدين والوطنية كان دائما سبب ارتقاء الأمم كما أن عدم التمسك بهما كان سبب انحطاطها ، ولهذا فلا بد من التمسك الشديد بهما (٣) .

وهذا المزج فى السياسة المصرية بين الدين والوطنية يرجع الى الاعتقاد بأن السياسة الأوروبية هى سياسة مسيحية قائمة على التعصب الدينى ضد المسلمين وأن المحور الذى تدور عليه هذه السياسة تجاه الدولة العلية هو الاعتداء على المسلمين بغير حق (٤) وأن الأوروبيين انما يحاربون المسلمين حربا صليبية فى شكل سياسى (٥) . وأن من يتصفح

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ، ص ١٢٨ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ، ج ٢ ، ص ٢٨١ . من مقال له عن

(بسمارك والدين) نشر فى المنار فى ١٨٩٩/١/٢١ .

(٣) انظر : « اللواء » عدد ١٩٠٠/١/١٦ .

(٤) مصطفى كامل : « اللواء » عدد ١٩٠٠/٣/٩ .

(٥) مكرم عبد الفتاح : « العلاقات المصرية العثمانية من خلال المصادر التركية ،

رسالة دكتوراه - غير منشورة بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ص ١٥٢ .

تاريخ الدولة العثمانية ويمعن النظر في أحوالها من أول يوم وضع فيه أسسها الى هذا اليوم يجد ان أوروبا لم تحاربها الا بسبب الدين ولم تتدخل في شئونها الداخلية الا بدعوى نصره الدين ولم تعادها الا لأنها دولة اسلامية (١) .

واذن فليس بدعا ان تمتزج السياسة بالدين في الفكر السياسي المصري ، طالما أن سياسة أوروبا قد تلونت بلون الدين بل وامتزجت به الى حد التعصب المقوت .

ومن ثم لم ير السياسيون في مصر حرجا من مطالبة السلطان العثماني بنصرة القضية المصرية . لأنهم لم يروا في ذلك ما يعارض ولاهم الروحي للدولة العثمانية وللخليفة العثماني .

وقد عبر الشعر المحافظ في مصر عن هذا الاتجاه السياسي أصدق تعبير فيقول شوقي : (٢)

يا آل عثمان أبناء العمومة هل تشكون جرحا ولا تشكو له ألما ؟
نحنو عليكم ولا ننسى لنا وطنا ولا سريرا ولا تلجا ولا علما
هذي كرائم أشياء الشعوب فان ماتت فكل وجود يشبه العدا

ويدعو الكاشف ربه أن تتخلص بلاده من كل أجنبي دخيل ولكنه لا يدعو بالانفصال عن دولة الخلافة ، لانه لا يرى منافاة بين الاخلاص للدولة العثمانية ، والاخلاص للقضية المصرية أو لا يرى تناقضا بين التبعية للخليفة العثماني وطاعة الخديو عباس الثاني فيقول : (٣)

ويا بلادى مالي كلما نظرت عيناى ما فيك من جند وأعوان
وسطوة للدخيل المعتدى اضطربت روى وقرح سكب الدمع أجفانى
واحر شوقى الى يوم أراك به فى مامن منه بل وأطول تحنانى
فلا تطيع سوى عبد الحميد ولا نرضى أميرا سوى عباسك الثانى

ولا ريب أن امتزاج الدين بالوطنية في مفهوم العصر وفي فكر الزعماء الوطنيين في مصر قد كان عاملا من عوامل التعلق بالدولة العثمانية ، والايمان بفكرة الجامعة الاسلامية ، سبيلا الى الخلاص الاسلامى والوطنى من خطر الزحف الاستعمارى على بلاد الاسلام .

(١) مصطفى كامل : « اللواء » عدد ١٢/٢/١٩٠٠ .

(٢) الشوقيات ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

(٣) ديوان الكاشف ، ج ١ ، ص ٥٤ .

وفى سبيل هذا الخلاص الاسلامى كان التجمع الاسلامى تحت راية
الخلافة العثمانية ضرورة حتمية يفرضها العدوان الخارجى على بلاد
الاسلام .

وكان تأييد الدولة العثمانية ، والوقوف الى جانبها فى حروبها
المقدسة مظهرا من مظاهر التجمع الاسلامى فى وجه الخطر الصليبي ،
واحياء لمبدأ الجهاد الاسلامى ضد العدوان على ديار الاسلام .

فحينما انتصرت تركيا على اليونان سنة ١٨٩٧ هلك الشعراء لهذا
النصر ، وزادت ثقتهم فى تركيا حامية الاسلام ، وناصره الدين ، واعتبروا
هذا النصر نصرا للدين وعزا للاسلام .

وفى هذا يقول « شوقى » مهنثا خليفة المسلمين ومعبرا عن فرحة
الدول الاسلامية التى ترى فى انتصار الترك انتصارا لدين الله (١) :

بسيّفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيا ن تضرب
وزيد حمى الاسلام عزا ومنعة ورد جماح العصر ، فالعصر هيب
رفعنا الى النجم الرؤوس بنصركم وكنا بحكم الحادثات نصوب
ومن كان منسوباً الى دولة القنا فليس الى شئ سوى العز ينسب
الى أن يقول مخاطبا السلطان عبد الحميد :

فلا زلت كهف الدين والهادى الذى الى الله بالزلفى له نتقرب

ولكى ندرك حقيقة الشعور الاسلامى فى مصر تجاه الأتراك فى هذه
الحرب . يكفى أن نعلم أن المصريين كانوا يسهرون الليالى الطوال منتظرين
بتشوق وشغف ورود أنباء القتال . وأن عدد اللجان التى تشكلت لجمع
التبرعات لاعانة الجيش العثمانى بلغت ٤٥ لجنة فى العاصمة و ٣٠٠ فى
سائر جهات القطر ، وتشكلت لجنة للسيدات المصريات برئاسة حرم
« رياض باشا » (٢) .

ولقد تجلى هذا الشعور الاسلامى بواجب التضامن بين المسلمين لدفع
العدوان وحماية العقيدة والمقدسات عندما تعرضت طرابلس الغرب
للعنوان الايطالى سنة ١٩١١ .

(١) ديوان شوقى ج ١ ص ٢٧٥ . توثيق وتبويب الدكتور/ احمد الحوفى .
(٢) محمد سيد كيلانى : ترام القاهرة . ص ٤٥ . وانظر « مصر وحركة الجامعة
الاسلامية » ص ٩٨ .

فقد هب الشعب المصرى بكامله للأخذ بناصر الدولة للوقوف أمام الخطر الخارجى ، وردع عنفوانه . فتألفت اللجان فى القاهرة والاسكندرية لجمع التبرعات وارسال المتطوعين وفتحت الجرائد صفحاتها تدعو للاكتتاب والتطوع لنصرة اخوانهم فى طرابلس والدفاع عن آخر معقل للإسلام فى أفريقيا . فتألفت اللجنة العليا لاعانة الدولة العلية فى الحرب الايطالية تحت رئاسة الأمير « عمر طوسون » فى أكتوبر سنة ١٩١١ (١) كما أنشأ الشيخ يوسف جمعية الهلال الأحمر فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١١ لهذا الغرض (٢) وقد أدت الصحف المصرية فى هذه الحرب دورا بارزا عبأت به شعور الأمة وأثارت حماسها لما يدور فى ميدان الحرب حتى غطت أخبار الحرب على الكثير من الموضوعات التى اعتادت الصحف تقديمها لقراءها . وتميزت مقالاتها عن الحرب بالاثارة والجرأة . فكانت (العلم) تنشر تحت عناوين : « النجدة .. النجدة » و « الخطر .. الخطر » و « ايه أيها المسلمون ألا نفوس أبيات لها همم » - مقالات تهيب فيها بأفراد الشعب أن يقفوا مع اخوانهم فى نضالهم ، وتستندى أكفهم وتحثهم على الجهاد والتطوع لنصرة الدين والدولة (٣) وأمام تلك الروح التى أبدتها الأمة المصرية نحو أشقيائها العرب والمسلمين فى طرابلس أوعز الانجليز الى الحكومة القائمة بايقاف حملة الصحف على ايطاليا فأصر « محمد سعيد » رئيس الوزراء ووزير الداخلية بلاغا الى الصحف فى ٥ نوفمبر سنة ١٩١١ طالبها فيها بالاعتدال فى لهجة التعليق على أخبار الحرب (٤) .

كما أعلن الانجليز - بموافقة الحكومة المصرية - حياد مصر واغلاق الحدود فى وجه المتطوعين والبعثات الطبية ، وقوافل الذخيرة ، ولكن على الرغم من هذه القيود التى فرضها الانجليز على الشعب المصرى ليتخلى عن مؤازرة أشقيائه فى جهادهم واصلوا تأييدهم لهم (٥) .

وقد واكب الشعر المحافظ هذا الشعور الاسلامى فى مصر فاستنهض الهمم واستحث العزائم ، واستثار الوجدان الاسلامى لمؤازرة المقاتلين فى طرابلس واستنفر الحمية الدينية باظهار فظائع الطليان ووحشيتهم فى

(١) سالم عبد النبى قنبير : « الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية فى الادب العربى المعاصر » ص ٣٠٧ .

(٢) د . محمد حسين : الاتجاهات الوطنية .. ج ١ ص ٣٥ .

(٣) راجع : مجلة العلم من ١٠/٨ - الى - ١٨/١٢/١١١ .

(٤) مجلة العلم ١٩١١/١١/٥ عدد : ٤٥٨ .

(٥) سالم قنبير : المرجع السابق ص ٣١٢ .

هذه الحرب ، واستنكر مواقف رجال الدين المسيحي الذين ينتسبون الى
المسيحية ، والمسيحية منهم براء .

يقول شوقي مستحثا جموع المسلمين الذين ينضوون تحت لواء
الدولة العثمانية على التعاون فيما بينهم على البر باخوانهم المقاتلين في
طرابلس : (١)

يا قوم عثمان والدينا	مناولة	تعاونوا بينكم يا قوم عثماننا
كونوا الجدار الذي يقوى الجدار به		فان الله قد جعل الاسلام بنيانا
البر من شعب الايمان افضلها		لا يقبل الله دون البر ايماننا
هل ترحمون لعل الله يرحمكم		بالبيد اهلا وبالصحراء جيرانا
في ذمة الله او في ذمة نفر		على طرابلس يقضون شجعانا

ويقول « حافظ » مصورا فظائع الطليان في هذه الحرب : (٢)

كبلوهم ، قتلوهم ، مثلوا	بلوات الخدر ، طاحوا باليتامى
ذبحوا الاشياخ والزمنى ولم	يرحموا طفلا ، ولم يبقوا غلاما
احرقوا النور ، استحلوا كل ما	حرمت لاهى فى العهد احتراما
بارك المطرون فى اعمالهم	فسلوك بارك القوم علاما
ابهدا جاءهم انجيلهم	آمرا يلقي على الارض سلاما

وياسى « عبد المطلب » لاهل طرابلس ويهيب بالمسلمين أن ينجدوا
اخوانهم وأن يردوا عن حمى الاسلام أعداء الاسلام فيقول :

خليل مالى ان تذكرت برقة	بجنبي نيران الاسى تتلهب
نعم راعنى من نحو برقة صارخ	يهيب بانصار الهلال الاركبوا
دعا صارخ الاسلام يا لبنى الهنى	اغار العدا اين الحسام المشطب
كانى به يدعو الخلافة مسمعا	كانى به فى المسلمين يثوب
ارادت حمى الاسلام روما فاقبلت	زعانفها فى بغيها تشطب

(١) ديوان شوقي : ج ٢ ، ص ٨٢ ، توثيق د . احمد الحوفى .

(٢) ديوان حافظ : ج ٢ ، ص ٦٦ .

ويستنكر « عبد المطلب » موقف البابا وقد راح يبارك الجنود المعتدين ويعدهم الجنة ويتساءل : أين هذا من تعاليم المسيح ؟

إذا وقف البابا يبارك جنودكم فما كل بابا للمسيح مقرب
سلوه أفي الانجيل للحرب آية إذا كان في انجيله ليس بكذب
ويسخر من هذا الوعد الكاذب الذي يرمى بالمقاتلين في التهلكة حيث
تحصدهم سيوف المجاهدين :

لكم جنة البابا مآب وانما مفاتيحها من أرض برقة تطلب
وان لدى أسياقنا ورماحنا بأبوابها علما هلموا فجربوا
ثم يخوف الأعداء من قوة الاسلام وحمية رجاله فيقول :

حذار فللاسلام في كل بقعة سراة اذا ما أجذب الناس أخصبوا
حذار فللاسلام في كل أمة حماة اذا ما شزر الدهر قطبوا
حذار فللاسلام في كل بلدة دهاة اذا ما أظلم الرأي أثقبوا
ثم يتوجه بالحديث الى أبناء مصر فيحثهم باسم الدين على البذل
والعطاء لانتقاذ الدين ونجدة المسلمين فيقول :

بنى مصر هذا الدين يدعو فأقبلوا على الله في تأييده وتقربوا
بنى مصر قد رام الخلافة معشر تنادوا على غدر بها وتآلبوا
بنى مصر هذا موقف العزم فانهضوا سراعاً الى احرازه وتآلبوا
اذا ما تنادى المسلمون فانما لنجدتنا كل الممالك ترقب
وكم في سبيل الله من أريحية لمصر بها راب الخلافة يشعب
تفيض على الاسلام بالجود أنعم غزارا اذا ما أخلف الأرض صيب (١)

ويقول « المصرى » يستنفر همم المسلمين ويحرضهم على القتال الى
جانب اخوانهم في طرابلس دفاعاً عن دينهم ضد عدوهم المتربص بهم :

يا أيها المسلمون استيقظوا وكفى نوما فان عيون الغرب لم تنم
هذى ممالككم تنشى وأرضكم يسومها القوم سوم النوق للسلام
أصبحتم بلدا في كل ناحية كأنما صرتم في دولة الخدم
الله في الدين ان الدين قد صار على صحيفة الموت متلوا بكل فم

(١) ديوان عبد المطلب ، ص ٢٨٥ .

إذا طرابلس ضاعت فالسلام على من فى (الكنانة) والبيتين والحرم
فاستصرخوا الله ينصركم على نفر طغى عليكم وأربى غير محتشم

ثم يتجه بالحديث الى مسلمى مصر فيدعوهم الى البذل فى سبيل الله
حتى تنفجر هذه الأزمة التى تعتصر الدين وتهدد دنيا المسلمين فيقول :

يا مسلمى مصر هل برهنتم كرما فى أزمة الدين والدنيا على الكرم
فاخرجوا المال من أقصى خزائنكم المال لله ليس المال للنسم (١)

ويقول من قصيدة أخرى بعنوان (الصوت الثانى) (٢) وهى من
قصائده فى الحرب الطرابلسية يستحث فيها بنى عثمان ويستحلفهم
بقوادهم العظام وبالأماكن المقدسة ، وبأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام أن
يجيروا ذلك الشعب الحزين الذى يستجير بهم من الموت :

بنى عثمان بالجيش المفازى	(بشوكت) بل (بانور) بل (نيازى)
بمكة بالمدينة بالحجاز	بيت القدس بالبيت الحرام
(موسى) بل (بعيسى) بل (أحمد)	بكل ديانة وبكل معبد
بكل كريمة تطوى وتحمى	أجيروا المستجير من الحمام
أجيروا ذلك الشعب الحزينا	لأتم جاهه دنيا وديننا
فداؤوا ذلك الداء الدفينا	وحلوا عقلة الخطب الجسام

« ولأحمد محرم » فى هذه الحرب عدد من القصائد التى تفيض
بالعاطفة الدينية وتدعو المسلمين الى مؤازرة اخوانهم ، وتحرضهم على القتال
فى سبيل الله .

ومن هذه القصائد قصيدة بعنوان « الحرب الوحشية فى
طرابلس » وفيها يستنفر جموع المسلمين للقاء عدوهم ، ويذكركم ببلاء
المسلمين فى صدر الاسلام ويستدعى صور البطولة التى زخرت بها معارك
المسلمين فى الماضى يريد أن يوقد الحمية الدينية ويبعث النخوة لتفيض
النفوس بالبذل والتضحية فى سبيل الله والوطن .

فيقول :

أين الحماة وقد ضاعت محارمنا ؟ أين الكفاة ؟ وأين اللادة الغير ؟

(١) ديوان المصرى : ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٢) ديوان المصرى : ج ٢ ، ص ٨٨ .

أين النفوس ترامي غير هائبة ؟ أين العزائم تمضي ما بها خور ؟
 أين الأكف يفيض المال متدفقا منها كما اندفقت وطفاء تنهمر ؟
 من لي بهم معشرا صيدا غطارفة ما ضيعوا ذمة يوما ولا غدروا
 ان ادعهم لجلاء الغمرة ابتدروا وان اصح فيهم مستنفرا نفروا (١)

ويشد « الكاشف » على يد الخليفة العثماني مؤكدا وقوف المسلمين الى جانب اخوانهم في (الحرب العثمانية الايطالية) (٢) فيقول :

المؤمنون اليك مستبقونا لنمارهم وديارهم فادونا
 فاحشد كتابك التي اعدتها للحق ابلج والرجاء متينا
 واترك لقوتك الرهيبة حكمها تجد العداة اليك يحتكمونا

ثم يتوجه بالخطاب الى ايطاليا المسيحية التي استباححت العدوان على الآمنين من المسلمين الذين لم يرتكبوا في حقهم اثما ولا عدوانا فيقول لهم متساثلا :

ابهذا العدوان الوحشي اوصاكم المسيح عليه السلام ؟
 يا آل عيسى ما لعيسى لم يقم مستنكرا ما انتم جانونا ؟
 اوصاكم بالعتدكن فما لكم بالآمن المأمون فتاкина
 ماذا جناه المسلمون عليكم وهم على الامصار غلابونا

ثم يهاجم السياسة الانجليزية التي اكرهت مصر على الحياد فيقول :
 ما للحيود وما لمصر ؟ وما بها الا شجونا تستثير شجونا
 ما كان للمتطوع المختار ان يشكوا قيودا او يخاف ظنونا

ثم يتجه الى اخوانه في طرابلس فيطمئنهم لوقوف اخوانهم في مصر الى جانبهم على طريق الجهاد حتى النصر فيقول :

★★★

يا أخت مصر وفي حشاها جمرة لبيك حتى يكتفى الداعونا
 بعثت اليك بزادها وتود لو بعثت اليك الجند مبتدرينا (٣)

(١) د. بدوي طبانة : « أحمد محرم » في « خمسة من شعراء الوطنية » ص ٥٧ .

(٢) ديوان الكاشف ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(٣) ديوان الكاشف ، ج ٢ ، ص ١٧ .

وينتقد « اسماعيل صبرى » سياسة الغدر والعدوان فى « الحرب بين الايطاليين والأتراك » فى طرابلس (١) فيقول :

بعض هذا الجفاء والعدوان راقبى الله أمة الطليان
قد ملأت الفضاء غلدا وجهلا وتسمنت غارب الطفيان
وبعثت السفين ترمى طرا بلس بحرب مشبوبة النيران
تغرق البحر والمواثيق والعهد جهارا ، ونمة الجيران

ويخوف الايطاليين عاقبة الشر والعدوان فيقول من قصيدة له يذكر فيها الايطاليين المعتدين « بأثينا » التى استباححت الشرور والفجور فكان عاقبتها سوء المآل :

يا بنت « روما » لا تكونى كما كانت أثينا بين قيل وقال
دفنت عدل الله فى أرضه فاستوثقى من شر ذاك المآل (٢)

واذا كان الشعر الاسلامى فى مصر قد أدى دوره فى الحرب الطرابلسية فألهب حماس الجماهير الاسلامية وأثار حميتها الدينية ، ووجهها الى مؤازرة المجاهدين فى طرابلس بالمال والعتاد والرجال متحديا فى ذلك سياسة المحتل الذى فرض الحياد على مصر . . فان هذه الحرب كانت دفعة قوية لفكرة الجامعة الاسلامية وتأكيدا لضرورة التضامن الاسلامى الذى أثار دهشة العالم الغربى وحمل ساسته على الجزع والارتباك . . فأخذوا يتساءلون فى الخطب الكبير وفى الذى عساه أن ينفجر انفجارا عاما فى مشرق العالم الاسلامى ومغربيه فقال : « غبريال هانوتو » وهو وزير فرنسى من وزراء الخارجية السابقين :

« بالله لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزنابير
الساعة ؟ اليس لأنها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامى
اجمع ؟ » .

فايطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها
ومنتهاها (٣) .



والواقع أن تضامن المسلمين كان دائما - وسيظل - يؤتى أطيب
الثمرات وأوفق النتائج لصالح الاسلام والمسلمين .

(١) ديوان اسماعيل صبرى ، ص ١٨٢ .

(٢) ديوان اسماعيل صبرى ، ص ١٨٦ .

(٣) لوثرروب سودارد حاصر العالم الاسلامى ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

وفى هذه الحرب الطرابلسية تضامن المسلمون . فماذا كان نتيجة هذا التضامن الاسلامى ؟ يقول الأمير « شكيب أرسلان » (١) « كانت اعادة مصر فى الحرب الطرابلسية مائة وخمسين ألف جنيه وأنفقت الدولة العثمانية على تلك الحرب نحو مليون جنيه » . فانظر الى ما كان لذلك من النتائج ..

النتيجة الأولى :

وهى أهم شئ : حفظ شرف الاسلام وافهام الأوروبيين ان الاسلام لم يمت وأن المسلمين لا يسلمون بلدانهم بدون حرب وفى ذلك من الفائدة المادية والمعنوية للاسلام ما لا ينكره الا مكابر .

النتيجة الثانية :

أن هذا المبلغ الضئيل بالنسبة الى نفقات الدول الحربية قد كان السبب فى توطين الطرابلسيين أنفسهم على المقاومة والمجاهدة بما رأوا من نجدة اخوانهم لهم فكانت هذه المقاومة سببا لتجشم ايطاليا المعتدية من المشاق والخسائر ما هو فوق الوصف الى أن صار كثير من سياسة الطليان يصرحون بندمهم على هذه الفارة الطرابلسية .

النتيجة الثالثة :

مهما يكن من عدد القتلى الذين فقدهم العرب فى هذه الحرب فان مجموع قتلى الطليان الى اليوم يفوق مجموع قتلى العرب أضعافا مضاعفة . فلقد لقى الطليان فى هذه الحرب من الأحوال ما لا يتسع لوصفه مقالة أو رسالة وفى واقعة واحدة هى واقعة « الغويهاة » على باب بنغازى ثبت فيها مائة وخمسون مجاهدا لثلاثة آلاف جندي طلياني من الفجر الى غروب الشمس الى أن انقرضوا جميعا .. فالمسلمون قد قاتلوا فى هذه المعركة جيشا يفوقهم فى العدد عشرين ضعفا وقتلوا نصفه . أى قتلوا عشرة أضعافهم . والله تعالى قد قدر لهم فى حال القوة أن يغلّبوا عشرة أضعافهم وفى حال الضعف أن يغلّبوا ضعفيهم فقط . كما قال الله تعالى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلّبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلّبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون (٦٥) الثن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكون منكم مائة صابرة

(١) شكيب أرسلان : « لماذا تاخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » ص ٢٢/٢١ .

يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين ، (٦٦) .

صدق الله العظيم

النتيجة الرابعة :

أنه قد كانت نفقات إيطاليا في الحرب الطرابلسية في السنة الأولى أي من سنة ١٩١١ الى سنة ١٩١٢ نحو مائة مليون جنيه . .

فهذا كله نتيجة تلك الاعانة القليلة والنفقات الضئيلة التي قام بها المسلمون في تلك الحرب (١) .

ومعنى ذلك أن تعاون المسلمين وتضامنهم في هذه الحرب قد وقف سدا منيعا في وجه الزحف الاستعماري على بلاد الاسلام ، وحال دون تحقيق أحلام الايطاليين في طرابلس ، وجسد فكرة التجمع الاسلامي - أو - الجامعة الاسلامية في مواجهة الخطر الصليبي الجديد .

ثم كان موقف المسلمين في الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ (٢) صورة أخرى من صور التجمع الاسلامي في مواجهة الخطر الصليبي ضد الاسلام .

ففي هذه الحرب تجلت فكرة الجامعة الاسلامية ماديا ومعنويا حين وقف المسلمون الى جانب تركيا يشدون أزرها بالمال والعتاد ، ويتابعون أخبارها في ميدان القتال وأيديهم على قلوبهم خوفا من الهزيمة أمام الأعداء .

لقد كان المسلمون يترقبون أنباء الحرب وقلوبهم على أحد من جمر الغض فلما طير البرق نبا الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الاسلامي للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء ، فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه الى بنى قومه : يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية

(١) شكيب أرسلان : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٢) نشبت الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ حين عم الاضطراب دول البلقان فهبت مطالبة بالاستقلال الاداري عن الدولة العثمانية ثم اضطر تركيا الى اعلان الحرب على هذه الدول في ٢٧ أكتوبر ١٩١٢ . وفي هذه الحرب التي أوقدتها الدول البلقانية النصرانية خسرت تركيا جميع أملاكها الاوربية فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبا غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ومهددة شر تهديد ، راجع : لوثرروب - سودارد : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء روسيا في بطرسبرج لرفع الصليب وشكه في قبة مسجد « أيا صوفيا » للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب المسجد الأقصى في بيت المقدس . . أيها المؤمنون الاخوة : اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا فان الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم الى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ويجاهد في سبيل الذود عن حياض الاسلام والمسلمين » (١) .

وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطبا الدولة البريطانية : « أننا ننادى الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركيا اتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين انفجارا يجر لبلاء عظيم » (٢) .

وفي مصر عقدت اللجان والجمعيات لجمع التبرعات . وعننما وردت الأخبار الأولى الى مصر بانتصار تركيا قامت مظاهرات الفرح والابتهاج بهذا النصر ، وقبضت سلطات الاحتلال على بعض المحرضين عليها . ولكن هذا الفرح ما لبث أن تحول الى وجوم عندما وردت الأنباء بتقهقر الجيوش التركية وسقوط « أدرنة » بعد حصار دام خمسة شهور أبليت فيها حاميتها أروع بلاء (٣) .

وهكذا تجاوبت أصداء هذه الحرب البلقانية في كل البلاد الاسلامية وسيطرت أنباؤها على مشاعر المسلمين في كل مكان .

وقد واكب الشعر المحافظ في مصر هذه الحرب كما واكب الحرب الطرابلسية وتابع الشعراء مع مسلمى العالم أحداث المعارك في جبهات القتال .

فحين سقطت « أدرنة » في يد البلقان ارتفع صوت شوقى يندبها ويبكيها بكاء حارا مخلصا يصدر عن عاطفة اسلامية خالصة . فقد ذكره ذلك بهزيمة المسلمين في الأندلس ، وذكره تقلص ظل الاسلام عن شرق أوروبا وقتذاك بضياغ سلطته في غربها حين طرد العرب من الأندلس ، ولذلك سمى قصيدته « الأندلس الجديدة » (٤) وفيها يقول شوقى : (٥)

(١) لوثرروب سودارد : « حاضر العالم الاسلامى » ج ١ ، ص ١٤٤/١٤٥ .

(٢) لوثرروب سودارد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٣) راجع د . محمد محمد حسين : « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر »

ج ١ ، ص ٤٠ .

(٤) راجع : د . محمد محمد حسين : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٠ .

(٥) ديوان شوقى ، ج ١ ، ص ٣٨٥ . توثيق د . أحمد الحوفى .

يا اخت اندلس عليك سلام
تزل الهلال عن السماء فليتها
أزرى به وأزاله عن أوجه
جرحان تمضى الأمتان عليهما
بكما أصيب المسلمون وفيكما
لم يطو ماتهما وهذا ماتم
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت
هوت الخلافة عنك والاسلام
طويت وعم العالمين ظلام
قدر يحط البدر وهو تمام
هذا يسيل وذاك لا يلتام
دفن اليراع وغيب الصمصام
لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
فيما نحب ونكره الأيام

★★★

ويندد شوقي بالذين استغلوا اسم الدين في الانتقام من المسلمين
الآمنين والتنكيل بالأبرياء من المدنيين ، فارتكبوا باسم المسيحية أبشع
الآثام والمسيحية منها براء فما كان المسيح عليه السلام سفاكا للدماء
ولا كان داعيا لباحة الحرمات وانما كانت دعوته رحمة ومحبة
وسلاما : (١)

أخذ المدائن والقرى بخناقها
غطت به الأرض الفضاء وجوها
تمشى المناكب بين أيدي خيله
ويحته باسم الكتاب أقسة
عيسى سبيلك رحمة ومحبة
ما كنت سفاكا للدماء ولا امرأ
يا حامل الآلام عن هذا الورى
أنت الذى جعل العباد جميعهم
واليوم يهتف بالصليب عصائب
خلطوا صليبك والخناجر والمدى
جيش من المتحالفين لهام (٢)
وكست مناكبها به الآكام
انى مشى البغى والاجرام
نشطوا لما هو فى الكتاب حرام
فى العالمين وعصمة وسلام
هان الضعاف عليك والأيتام
كثرت عليك باسمك الآلام
رحما وباسمك تقطع الأرحام
هم للاله وروحه ظلام
كل أداة للاذى وحماس

★★★

(١) د • محمد محمد حسين : المرجع السابق ، ص ٤٠ •

(٢) لهام (بضم اللام) أى عظيم كأنه يلتهم كل شيء •

واذن فما أشد التناقض بين المسيحية والمسيحيين وما أكذب هؤلاء المنتسبين الى المسيحية حين لا يتخلقون بأخلاقها السمحة الكريمة .

وما أبعد هذا السلوك الوحشى من تعاليم المسيح ومن كل القيم الانسانية التى جاءت بها الأديان السماوية واصطلحت عليها الأمم المتحضرة .

وقد أثار هذا العمل الوحشى مشاعر الشيخ « عبد المطلب » فأخذ يستثير عواطف المسلمين بهذه الصور الاجرامية التى ارتكبها جنود البلقان ضد الضعفاء من المسلمين فيقول : (١)

رموا غرض العلوان عن قوس فتنة	إذا ضمرت كانت بوار العوالم
فان حسبوا الاسلام لانت قناته	فما زال دين الله صلب المعاجم
عدوا طورهم فاستضعفوا ليث غابه	وعاثوا فسادا فى القرى والعواصم
يسومون ضعفاها العذاب مبرحا	ويغلون بغيا فى انتهاك المحارم
فمن حرة تبكى عفاها هفت به	يد البغى من تلك الأكف الظوالم
وطفل يعانى سكرة الموت فى الطبى	ويكرع من كأس الردى غير هائم
إذا ما بكت أمه فتكت بها	ذبابة هندی من البيض صارم
بواك يذيب القلب رجع أنينها	وتجرى لها حزنا دموع الغمام

★★★

ويستنكر الكاشف ما ارتكبه جنود البلقان فى هذه الحرب من فظائع تتبرأ منها المسيحية التى يحاربون باسمها كذبا وزورا . . فيقول :

صليبة يا قوم أم عنصرية	حروبكم ؟ والدين هذا أم الشرك ؟
وجيرانكم أعداؤكم أم حمائكم	وأعداء عيسى المسلمون أم الترك
فهل كان عيسى يطلب الثأر بالخنا	وهل كان من أخلاقه البغى والفتك ؟
أقر بأضغان النفوس ملوككم	ومن كان فى شك فقد ذهب الشك (٢)

★★★

(١) ديوان عبد المطلب ، ص ٢٧١ .

(٢) ديوان الكاشف : ج ٢ ، ص ٢٣ .

ولقد يستلقت النظر في شعر المحافظين في مصر عن الحروب
العثمانية بوجه عام شيوع الروح الاسلامية في ثناياه . يظهر ذلك في :

١ - احترام الشعراء المحافظين لحرمة الدين المسيحي ، ولكانة السيد
« المسيح » عليه السلام على الرغم مما ارتكبه المسيحيون في حق
المسلمين من فظائع تتنافى مع المسيحية السمحة وهذا من أدب
الاسلام في احترام الأديان السماوية .

٢ - الإشارة الى نظام الاسلام في أسرى الحرب والتنويه بانسانيته في
معاملة الأسرى يقول عبد المطلب : في « حرب طرابلس بين الترك
والطليان » : (١)

علينا أن نجل كل غضب نجيعا من دماكم ثخيننا
وأن يلقي أساراكم لدينا مكارم بثها الاسلام فينا
مكارم يعلم الثقلان أنا ورثناها عن الآباء ديننا

٣ - أن القتال في الاسلام يستهدف اقرار العدالة في الأرض واعلاء كلمة
الحق في دنيا الناس ومتى تحقق ذلك في واقع المجتمع الانساني
فلا قتال . ولكن سلاما ورحمة !!

وفي ذلك يقول « عبد المطلب » مخاطبا جنود الأعداء :

فان يك في ملوك الأرض عدل وفي اهل السياسة منصفونا
نرد الى أكتها المواضي ونرعى فيكم الحق المصونا (٢)
٤ - أن الاستعانة بالله ، والاستغاثة به تعالى من مقومات النصر في
المعارك :

يقول « المصري » مخاطبا جنود الاسلام :

فاستصرخوا الله ينصركم على نفر طفى عليكم واربي غير محتشم (٣)

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٨٩ .

(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٨٩ .

(٣) ديوان المصري : ج ٢ ، ص ٨٤ .

٥ - أن عقيدة المقاتل من أهم مقومات النصر على الأعداء . ومن ثم وجب على المسلمين أن يعدوا للجهاد شبابا صالحين :

من كل محتفظ بالدين ذى ثقة للنصر منتدب بالله معتصم (١)
وأن يحاربوا الأعداء :

بكل فتى إذا ذكر المنايا يحن إلى مواردها حينما
تعلم حفظ بيضته وليدا وأشرب حب ملقه حينما
يرى أى حياة إذا أهنت فيأبى أن يهان بأن تهونا (٢)

٦ - أن المقاتل المسلم يغلب عشرة من أعدائه - كما يقول القرآن الكريم (٣) ، وفى هذا يقول « الكاشف » عن قصيدة له فى الحرب العثمانية الإيطالية : (٤)

هاتوا الذئاب إلى الليوث فخمسة منهم أبادوا منكم خمسينا

٧ - من أخلاق المقاتلين المسلمين أنهم :

جند إذا طلبوا خفوا ، وإن سلبوا عفوا ، وإن غلبوا كفوا عن الفخر (٥)

وبهذه المعانى الإسلامية أشاع الشعراء المحافظون فى قصائدهم عن الحروب العثمانية جوا دينيا يوحى بغلبه النزعة الدينية فى هذا العصر ، ويؤكد مشروعية الحرب التى خاضتها الدولة العثمانية دفاعا عن مقدساتها . وكان السلطان العثماني حريصا على تأكيد هذا المعنى الدينى حتى يضمن

(١) ديوان الكاشف . ج ١ ، ص ٥٠ .

(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٨٥ .

(٣) سورة الأنفال : آية : ٦٥ .

(٤) ديوان الكاشف : ج ٢ ، ص ١٩ .

(٥) ديوان المعرى ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

عون المسلمين ووقوفهم - بوحى من عاطفتهم الدينية - الى جانب اخوانهم المسلمين فى قتالهم ضد الظليان والبلقان الذين ارتكبوا أبشع الجرائم ضد المسلمين الآمنين .

وبذلك كانت الحروب العثمانية مظهرا من مظاهر التجمع الاسلامى فى مواجهة الخطر الصليبي الجديد ، وكان الدين سلاخا فعلا فى هذه الحروب أثار به الشعراء حمية المجاهدين ، واستنفروا عزائم المسلمين لمؤازرة اخوانهم فى جبهات القتال .

واذا كانت الحمية الدينية من أهم أسباب التجمع الاسلامى ، فإن كل ما يثير هذه الحمية الدينية من شأنه أن يدعم فكرة الجامعة الاسلامية ، ويعمق لدى المسلمين احساسهم بضرورتها فى مواجهة الخطر على الاسلام والمسلمين .

ومن هنا كان تعلق المسلمين بفكرة الجامعة الاسلامية يشتد كلما بدا فى الأفق البعيد شبح الخطر على الاسلام والمسلمين .

وفى هذه الفترة تعددت منافذ الخطر ، وتنوعت أساليب الغزو الاجنبى للعالم الاسلامى . وكان الغزو الفكرى هو أحد هذه الأساليب وأخطرها وقد ظهر ذلك عندما أخذ المفكرون من سياسة الغرب وكتابه فى التهجم على الاسلام والطعن فى مبادئه ، والزراية بالمسلمين وبمدينتهم التى أسسها القرآن .

فكتب « فولتير » و « لامنس » و « هانوتو » و « برتران » و « داركور » و « لافيجرى » و « كرومر » و « مرجليوث » و « سكوت » و « رينان » و « زويمر » وغيرهم .. عن الاسلام ما ليس منه .

وكان « هانوتو » الفرنسى ، « كرومر » الانجليزى على رأس أولئك الطاعنين فى طبيعة الاسلام ومبادئه .

أما « هانوتو » فقد كتب سنة ١٩٠٠ مقالا عن الاسلام بمناسبة سياسة فرنسا فى المستعمرات فتحرش بمسالتين من أمهات مسائل الدين وهما : التوحيد ، والقدر .

وخلاصة ما قاله « هانوتو » فى ذلك - موازنا بين المسيحية والاسلام :

« ان اعتقاد النصارى فى التثليث وتصورهم للاله الانسان جعلهم يرفعون مرتبة الانسان ويحولونه حق القرب من الذات الالهية على حين ان العقيدة الاسلامية بدعوتها الى التوحيد وتنزيه الله عن البشرية حملت الانسان على الضعف والوهن » ، والعقيدة المسيحية القائلة بحرية الانسان وادارته دفعته الى العمل والجهد ، اما عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر فحملتهم على الجمود والركود » (١) .

ولم يتورع « هانوتو » عن ثقل شتائم « مسيو كيمون » - الفرنسى - فى الاسلام ونبيه والمسلمين ، ووصفه للاسلام بأنه « جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء » ووصفه للمسلمين بأنهم وجوش ضارية ، ومطالبته بإياداة خمسهم والحكم على الباقيين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ، ووضع قبر النبى (٢) فى متحف اللوفر (٣) .

ولقد أثارت تلك المطاعن غضب الامام محمد عبده فانبرى للرد عليها وتفنيدها بما يشهد له بسعة العلم وقوة العارضة (٤) وقد اعتذر « هانوتو » للأستاذ الامام حين قابله فى باريس (٥) ولكن هذا الاعتذار لم يغير شيئا من حقيقة العداء المسيحي للاسلام .

أما كرومر : فقد انتقد الاسلام وصوره ديناً رجعياً لا يصلح لأن يقوم على أساسه نظام اجتماعى راق ، وأنه عبارة عن مبادئ وضعت من ألف سنة هدياً لهيئة اجتماعية فى حالة الفطرة والسذاجة ، وهذه المبادئ منها ما يجير الرق ، ومنها ما تضمن أمراً أهم من هذا كله وهو افراغ القوانين

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ص ٣٣٢ ، وراجع فى ذلك أيضاً :

- (أ) محمد رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ، ج ١ ، ص ٤١٥/٤٠١ .
(ب) د . محمد عبادة : الأعمال الكاملة للامام محمد عبده ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ .
(ج) د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، ج ١ ، ص ٢١٥ - ٤١٥ .
(٢) صلى الله عليه وسلم .
(٣) راجع ترجمة مقال هانوتو : فى تاريخ الامام محمد عبده ، ج ٢ ، ص ٢٠١ - ٤١٥ .
(٤) راجع : د . محمد عبادة : الأعمال الكاملة للامام محمد عبده ، ج ٣ ، ص ٢٠١ - ٢٢٠ .
(٥) راجع : تاريخ الامام ، ج ٢ ، ص ٤٣١ وما بعدها .

المدنية والجناثية والمالية في قالب واحد لا يقبل تغييرا ولا تحويرا ، وهذا ما أوقف تقدم البلدان الاسلامية التي دان أهلها بالاسلام (١) .

وخلاصة ما يراه « كرومر » في الاسلام أنه مناف للمدنية وغير صالح الا للزمن والمحيط اللذين وجد فيهما ، وأن المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدن الا بعد أن يتركوا دينهم ، وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ويبت فيهم روح البغض للاغيار والشقاق وحب الانتقام (٢) .

وقد انبرى الذادة الغير من رجال الاسلام للرد على « كرومر » وتقنيده مزاعمه . وكان الأستاذ « محمد فريد وجدي » في مقدمة من تصديروا للرد على مفتريات « كرومر » . وقد نشرت جريدة « الدستور » هذه المقالات في الرد على « كرومر » سنة ١٩٠٧ ، ثم جمعت في كتيب تحت عنوان « اللورد كرومر والاسلام - ردود وملاحظات - بقلم محمد فريد وجدي سنة ١٩٠٨ » .

كما كان « مصطفى الفلاييني » أحد المدافعين عن الاسلام عند مفتريات « كرومر وأكاذيبه » (٣) .

وأيا ما كانت جهود المفكرين من رجال الاسلام في الرد على مطاعن الخصوم . فإن هذه المطاعن التي استهدفت النيل من الاسلام قد أثارت - ولا شك - حمية المسلمين فازداد اشفاقهم على الاسلام ، واشتد حماسهم للدفاع عنه . وقوى ايمانهم بضرورة التجمع لمواجهة الخطر عليه .

وبذلك كانت موجات العداء للاسلام قوة دفع ونماء لفكرة الجامعة الاسلامية .

وقد شارك الإشعر المحافظ في مصر في شرف الدفاع عن الاسلام ضد هذه الحملات فأشاد بموقف الامام محمد عبده في الرد على « هانوتو » وجزع لضعف المسلمين وهوانهم واجتراء الأعداء على دينهم ، وسخر من مطاعن الخصوم ضد الاسلام . مؤكدا براءة الدين من النقائص وجهل الأعداء بطبيعته .

(١) المؤيد : في ١٩٠٧/٤/٢٤ - العدد ٥١٤٨ .

(٢) مصطفى الفلاييني « الاسلام روح المدنية أو الاسلام واللورد كرومر » ص ١٣ بيروت سنة ١٩٠٨ .

(٣) راجع مصطفى الفلاييني : المرجع السابق .

يقول اسماعيل صبرى من قصيدة له فى رثاء الامام محمد عبده
مشيدا بجهوده فى الدفاع عن الاسلام ضد أعدائه :

ورب اناس حاربوا دين احمد فثرت عليهم ثورة الليث عاديا
وقفت واقلام القواية شرع واقلام اهل الحق ترنو سواها
وافحمت بالبرهان كل مناضل لو أنك لم تغضب لزد تهاديا (١)
ويقول « احمد محرم » مشيرا الى فعال « هانوتو » فى التهجم على
الاسلام :

ايهم « هانوتو » بقبر محمد ويسوع حولىه يطوف ويعكف ؟
ايقول تلك . فلا تميد باهلها باريس من فزع ويهوى المتحف (٢)
فلسوف ينظر اى ملك ينطوى ولسوف يعلم اى عرش يخسف
ويحى على الاسلام ! هان وزلزلت اى الخطوب شعوبه فاستضعفوا
لولا التعصب لم ترع فى ظله ام تميد ولا ممالك ترجف
ثم يقول مشيرا الى رد الامام :

كشف الكتاب عن المحجة فانظروا وارى المحجة عندكم ان تصدقوا
لوذوا باروع ما تخاف نفوسكم ان الكتاب على النفوس لآخوف
ان الذى قهر الجابر ما له مثل يعد ولا شبيه يوصف
تزجى اساطيل القضاء سطوره وتقود خيل الله منه الأحرف (٣)
ويقول « عبد المطلب » فى رثائه للامام محمد عبده مشيرا الى موقفه
من « هانوتو » : (٤)

فكم من يد للدين اسدى وموطن تبين فيه للذى ضل رشده
وما نسى الأقوام موقفه الذى به رد هانوتو وقد ضل كيده

★★★

ومن القصائد التى أنشئت فى الرد على مزاعم « كرومر » قصيدة
« ل احمد محرم » وفيها يقول مخاطبا « كرومر » :

(١) ديوان اسماعيل صبرى ، ص ٦٠٩ .

(٢) يشير الى ما جاء فى مقال « هانوتو » من ضرورة نقل قبر النبى عليه الصلاة
والسلام الى متحف اللوفر بباريس .

(٣) ديوان احمد محرم : ج ٢ ، ص ٧١ .

(٤) منشآت الامام : ج ٢ ، ص ٣٣٦ .

وكان يظن ابن الفرنسي انه اتى بالذي لا يمكن الناس جرده

★★★

ومن القصائد التي أنشت في الرد على مزاعم « كرومر » قصيدة
« لأحمد محرم » وفيها يقول مخاطبا « كرومر » :

زعمت الدين والقرآن جاء	بما يشقى حياة المسلمينا
زعمت محمدا لم يؤت رشدا	ولم يسلك سبيل المصلحينا
فليتك كنته لتسن شرعا	يبلغنا مكان السابقيننا
سننا الرشيد للأقوام طرا	ولولا الدين لم نك راشدينا
ولولا معشر ضلوه منا	لكننا السابقين الأوليننا
اتزعم ما جنى الجهلاء ديننا	وتأخذنا بجهل الجاهليننا
رويدك ايها الجبار فينا	فما أنصفتنا دنيا وديننا (١)

★★★

ويقول « حافظ إبراهيم » من قصيدة له في « وداع كرومر » مشيرا
الى تلك المزاعم : (٢)

وأودعت تقرير الوداع مقامزا	راينا جفاء الطبع فيها مجسدا
غمزت بها دين النبي واننا	لنغضب ان أغضببت في القبر (أحمدا)

★★★

ويقول « أحمد نسيم » مخاطبا « اللورد كرومر » ومشيرا الى مطاعنه
في الاسلام : (٣)

بالورد هل لك في الاسلام من غرض	ترمى اليه بسهم غير ممنون
ألم يكن دين طه خير ما نهضت	به البلاد الى علم وتمدين
فكل معتق للدين معتقدا	هاجت ثوائره من بعد تسكين

★★★

وهكذا شارك الشعر الاسلامي المحافظ في مصر في شرف الدفاع
عن الاسلام والتصدي لهجمات الغزو الفكري للعالم الاسلامي معبرا بذلك
عن ثورة الشعور الاسلامي التي أقدمتها الحمية الدينية والغيرة الاسلامية .

(١) ديوان أحمد محرم : ج ٢ ، ص ١٥ .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم : ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) ديوان أحمد نسيم : ج ١ ، ص ٨ .

ونخلص مما تقدم الى ما يأتي :

أولاً : أن فكرة الجامعة الاسلامية في هذه الفترة كانت تياراً أساسياً في الفكر السياسي المصري ، دعت اليه عاطفة الدين التي تجعل من المسلمين على اختلاف أوطانهم اخوة متحابين في الله . يتعاونون على البر ، ويتناصرون ضد العدوان على الاسلام والمسلمين .

كما دعت اليه عاطفة الوطنية التي رأت في الجامعة الاسلامية تحت جناح الخلافة العثمانية سلاحاً تناوى به الاحتلال البريطاني الذي لم يجرؤ على إعلان الحماية على مصر الا في ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد دخول تركيا في الحرب العالمية وسقوط السيادة العثمانية على مصر (١) .

ثانياً : أن الاسلام كان - ولا يزال - أوثق الوشائع بين شعوب العالم الاسلامي وأنه - لذلك - كان سلاحاً فعالاً في كل معارك النضال التي خاضتها الأمة الاسلامية فمن خلاله عبأ الزعماء شعور الأمة للجهاد وحرصوها على القتال ، وحببوا اليها البذل والعطاء ، واستشاروا حميتها الدينية لمؤازرة المجاهدين في ميادين القتال .

وبذلك كان الاسلام هو الجبل المتين الذي شد المسلمين بعضهم الى بعض كالبنيان المرصوص في مواجهة الخطر الزاحف . وكان هو الحصن الحصين الذي قاوم المسلمون من داخل أسواره طلائع الصليبية في العصر الحديث .

ثالثاً : أن الشعر الاسلامي المحافظ في مصر قد أدى رسالته في هذه المرحلة النضالية من تاريخ مصر الحديث : فصاغ الشعور الاسلامي ، وعبر عن الآمال الوطنية للجماهير بالكلمة الصادقة والصورة الموحية والخيال البارع ، والايقاع الجميل .

(١) مكرم عبد الفتاح عبد الخالق : العلاقات المصرية العثمانية .. من خلال المصادر التركية ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة . بآداب (عين شمس) ١٩٨٢ .

الفصل الثانى

السيادة الوطنية المصرية

كان الاتجاه نحو تحقيق السيادة الوطنية المصرية فى هذه الفترة (١٨٨٢ - ١٩١٩) يأخذ مكانه فى الفكر السياسى المصرى جنباً الى جنب مع الاتجاه نحو الجامعة الاسلامية . وكان تحقيق هذه السيادة الوطنية مرهوناً بزوال الاجتلال البريطانى الذى قبض على زمام السلطة الفعلية فى البلاد بعد أن خلا له الجو من المقاومة بهزيمة عرابى سنة ١٨٨٢ .

وكانت هزيمة عرابى بما تلاها من الاحتلال ، صدمة نفسية أصابت الشعب باليأس والاستخذاء والقهر . فانهزمت الروح الوطنية ، وتضاءل الشعور القومى وفشأ الجبن والنفاق والذل والرياء ، وعمت النفعية والأنانية ، وتضاءل الخير وقل البر والعطف والاحسان ، وغاض الوفاء والاخلاص ، وانعدمت الكرامة والمروءة ولا غرابة فى هذه النتائج . فالنفوس اذا فقدت الوطنية . فقدت معها الأخلاق الكريمة . لأن الوطنية الى جانب الدين منبع الأخلاق والفضائل (١) .

وفى غمرة هذا اليأس الذى ألم بالنفوس فأذهب ما بها من معانى العزة الوطنية مضى الاحتلال البريطانى يلقى أوتاده فى كل ناحية من نواحي الحياة المصرية متجهاً بها الى صوب الخضوع والاستسلام والضعف . فسرح الجيش الوطنى الذى حارب مع عرابى وكان يضم رجالاً أشداء ، وجنوداً بواصيل . ثم أعاد تكوينه ضئيلاً هزئلاً أعزل لا يتجاوز عدده ستة آلاف ، فى قبضة « سردار » انجليزى يعاونه طائفة من كبار الضباط الانجليز . وأغلق جميع مصانع الأسلحة بعد أن بيعت أدواتها بأبخس الأثمان ، وبيعت السفن الحربية أو حطمت وبيعت أجزاؤها ، وصارت مهمات الجيش وأداته تشتري من انجلترا ، ولا يحملها الجنود المصريون الا وقت التمرين (٢) .

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، ص ١٦٨ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

كذلك تسلط الاحتلال البريطاني على البوليس فوضع رجلا انجليزيا على رأسه وعين وكيلا انجليزيا متغطرسا لوزارة الداخلية (١) .

كما تسلط على الحياة الاقتصادية للبلاد فألقى المراقبة الثنائية وعين مستشارا انجليزيا للمالية ، وأغرق مصر وأرهقها بتعويضات الأجانب عما نالهم من خسائر وهمية ، وبتكاليف جيش الاحتلال والموظفين الانجليز ، وبتكاليف حرب المهدي في السودان (٢) .

وتوالت الوزارة المستسلمة للانجليز وأخذت أنفاس الصحافة لأدنى شبهة يتوهم فيها التعريض بالاحتلال أو الخديو (٣) .

وكان لهذا التغفل الانجليزى فى الحياة المصرية أثره فى اضعاف الروح الوطنية والعزة القومية مما جعل الناس يألفون الاحتلال ، ويركنون الى الاستكانة والخضوع ويتنكرون لمعانى الشهامة والبطولة والاستمسك بالحق والواجب (٤) ، وكان ضعف الروح الوطنية هو أخطر آثار الاحتلال لأن ضعف الروح الوطنية يفقد الأمة أعظم أسلحة النضال ضد الاحتلال .

ومن هنا كان بث الروح الوطنية فى نفوس الشعب هو البداية الصحيحة للنضال فى سبيل الاستقلال والسيادة الوطنية ، وهو المهمة الصعبة التى شمر لها زعماء الفكر السياسى الاسلامى فى مصر عن سواعدهم . ايماننا منهم بأن الروح الوطنية والشهامة الاسلامية من أهم عوامل النصر فى معارك النضال ضد الاحتلال .

ومن أجل ذلك . ارتفع صوت « جمال الدين الأفغانى » يؤذن للجهاد ويندد بالاحتلال ، ويستنهض هم الشعب لناواة الانجليز ، ويستثير حميته الدينية ، ونخوته الوطنية انطلاقا من قاعدة الجهاد الاسلامية التى تفرض على المسلمين العمل فى سبيل حفظ الوطن وحمايته ، وتطهير أرضه من المعتدين وفى هذا يقول « جمال الدين » : « ان جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعى فى معاكسة سير الانجليز ، واقامة الموانع فى طريقهم بقدر الطاقة والامكان قياما بما يوجبه الدين والوطن ، ولا يحتاجون فى الانبعاث لهذا العمل الشريف الى أمر سلطانى فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية فى كل ملة وكل قطر

(١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ٩ ، ص ٦٤ .

(٣) د. محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه ، والدود عن حوزته ،
وتبيح الموت دونه ، بل توجبسه في مدافعة الباغين عليه ، وتدعو كل
ذى عقل لأخذ الحذر من حيل المحتالين الذين يهتكون حرم البلاد ،
ويخفضون شئون العباد ، ويمطون الحق ، ويفسدون الأخلاق ، ويدلون
النفوس (١) .

وعلى هذا الأساس الدينى أقام « الأفغانى » دعوته الى الجهاد ،
والتصدى للاستعمار فاستثار الحمية الدينية واستهاض الروح الوطنية
بالتنديد بسياسة الانجليز واثارة حفاظ المصريين ضدهم وبالتحريض
على مقاومتهم ومعاكسة سيرهم حتى لا يطمئن بهم المقام على أرض اسلامية .

فيقول منددا بسوء تصرف الانجليز ومثيرا حفاظ المصريين ضدهم :

« بلغت غشمة (٢) الانجليز الى حد لا يحتمل فليس من الغريب
ان تضيق بها الصدور وتفيض بالغيط منها القلوب ، وتبلى منها دروع
الصبر ، وتلوب سابقات الجلد .

فيا ايها المصريون هذه دياركم وأموالهم وأعراضكم وعقائد دينكم
وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا .
زحف العدو اليكم تحت راية المحبة . ثم قلب لكم ظهر المجن ، وتناول
بيده الظالمه شئونكم العامة من عسكرية ومالية وادارة وقضاء ، ولم يبق
لكم شيئا الا الحرمان من خدمة اوطانكم وانتم احق بها وطالما دافعتم عنها . .
ماذا ترجون من مطاولته ؟ وماذا تؤملون في ارخاء العنان له ؟ وماذا تهابون
معارضته ، والاخذ على يده ؟ اما رجاء الخير منه فوهم فاسد ، وخيال
باطل . فقد رايتم انه افسد شئونكم واقلق راحتكم وحرّم رجالكم من
الخدم ، وافقر آلافا مؤلفة من العائلات ووهب من بلادكم لأعدائكم واضر
بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة فأغلق ابواب الكسب في
وجوهكم . وقصد الى التدخل فيها يختص بامور دينكم وعمق الى خرق
سياجكم وازالة قوتكم بطرد جنودكم . وهذه اول اعماله فكيف تكون
نهايتها ؟ فماذا تخشون منه ؟ . . . انتم واقعون بسكوتكم فيما تخافون
منه . انتقصت الاموال والتمزات ، وفاضت العبرات وزادت الحسرات .
وان زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خسارا ، واوسعكم خرابا ودمارا
ان رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غنى الا افتقر ، ولا عظيم

(١) العروة الوثقى : فى ١٦/١٠/١٨٨٤ ، وانظر : تاريخ الامام ، ج ١ ،
ص ٣٦٥ .

(٢) الغشمة : ركوب الرأس والقام ، والامبالاة ، وعلم التبصر .

الا احتقر ، وان شتم فانظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم واقراءوا حالكم
في تواريخ من سبقكم (١) .

ويقول في موضع آخر مبينا أثر الاحتلال في مصر وكاشفا عن بعض
سيئاته :

« عم اليسر واحاط الضنك وتقوضت آلاف من البيوت التجارية ،
واتربت أيدي ملايين من عمال الصناعة وأعدم المزارعون قاطبة الا نزر
يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهبا وسلبا ، باع
الفلاح أساس بيته ، بل وما أبقاه « التيفوس » من عاملة أرضه بعد ما ذهبت
الحاجة بحل حرمه وبناته ليؤدي ما عليه لحكومته ، ولم ينل من غضاره
ما يقوم بحفظ حياته ، وعاد الى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح
مسارح الحيوانات الا قليلا منهم الله يعلمهم ، وزاد الويل بمحق الحرية
الشخصية والأخذ بالشبه وان ضعفت ، واتباع بواطل التهم وان بعدت
أو استحالحت حتى أخذ الفرع من القلوب ماخذه ، وبلغ منها مبلغه فلا ترى
مارا بطريق الا وهو يتلفت وراء لينظر هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده الى
السجن أو يقتضيه منه قدا . وكان معروف الاسم من المصريين ينتظر كل
خطوة عشرة ، وفي كل نهضة سقطة ، وله من كل شخص دهشه ، ومن
كل طارق لبابه غشية . أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا ؟
هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصري (٢) .

واذ نجح « الأفغاني » في اثار حفاظ المصريين ضد الانجليز . أخذ
يعرضهم على الجهاد ضد أعداء الله وأعداء الشعوب ، ويذكرهم بوعد الله
للمجاهدين من المؤمنين ويخوفهم عاقبة القعود والاستكانة « والمساهلة في
شئون الأوطان » (٣) .

فيقول :

« الا ايها النائمون تيقظوا . الا ايها الغافلون تنبهوا . يا اهل
الشرف والناموس ، ويا ارباب المروءة والنخوة ، ويا أولى الغيرة الدينية
والحمية الاسلامية ، ارفعوا رءوسكم تروا بلاء منصبا على اوطانكم ، وما انتم

(١) العروة الوثقى : في ١٦/١٠/١٨٨٤ وانظر : تاريخ الامام ، ج ١ ،
ص ٣٦٧ .

(٢) د. محمد عبادة : الأعمال الكاملة : جمال الدين الأفغاني ، ص ٤٧٠ ، وانظر :
تاريخ الامام ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٣) العروة الوثقى : في ١١/٩/١٨٨٤ .

ببعيدين منه ، ولا معزولين عنه ، ان لم يكن أصابكم اليوم فسيصيبكم غدا تساهلتم في اللود عن حقوقكم المقدسة ولهوتم عما أضمرت هذه الحكومة (الانجليزية) الماكرة من الاهانة والتدليل وسوم الخسف وتعللتهم بالأوهام ، فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتمكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، أصبحتم على شفا جرف المذلة ويخشى أن يقلف بكم بعد قليل في جحيم العبودية الا ان وقت التدارك ما فات ، فالأرواح في الأجساد ، والعقول في الرؤوس ، والهمم في النفوس وأقدام العدو في زلل ، وشئونه في خلل ، فاثبتوا ، ولا تهنوا ، ولا تحزنوا وأنتم ثباتا قليلا واقلاما خفيفا في هذا الوقت يفعل ما لا يفعله الجيش الاعلان ان كنتم مؤمنين . لا ترضوا بالدنية خوفا من المنية ، واعلموا ان العرمرم . . فالثبات الثبات وحذار حذار من التواني والتقاعد ، هذا وقت يتقرب فيه المؤمنون الى ربهم بأفضل عمل شرعى ، هذا وقت تنال فيه سعادة الدارين . . هذا وقت تظهر فيه ثقة المؤمن بوعد ربه . الا أن الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوا أعداءكم ، ولا تكونوا كالذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة . ان الله تعالى قد جعل من علامات الايمان حب الموت اختيارا لرضاه ، واعلاء لكلمته ، كونوا مع الله في نصره ينصركم ويثبت أقدامكم ، ثقوا بوعد الله فلن يخلف الله وعده ان اخلصتم له في العمل ، سلوا قلوبكم ، وامتحنوا ايمانكم ، ولا ترتابوا في وعود ربكم فلن يرتاب فيها الا القوم الكافرون « (١) »

ويقول في موضع آخر :

« تعلمون انه ما عز قوم بالخضوع ، ولا اهين شعب بالاباء . لماذا تملون أنفسكم في الدرجة الدنيا عن سواكم ؟ ألسنتم تتشابهون في الخلقة مع أعدائكم ؟ ألسنتم تمتازون عنهم بالايمان الصادق ، والعقائد الصحيحة ؟ ألسنتم تنتسبون الى أولئك الأبطال الذين دخلوا البلاد وسادوا العباد ؟

ألسنتم تدعون انكم اشرف عنصرا ؟ وأكرم جوهر ؟ فان قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم اكثر مما يصيب أعداءكم ؟ ان كان الموت فهم يخشونه . ان كان الخسار فهم يرهّبونه . انهم يألون كما تألون وترجون من الله ما لا يرجون » . . لا تزال فيكم النجدة والشمم والرفعة ، لا يزال دينكم يتربق منكم حمية عليه وغيره لدفع الفائلة عنه .

(١) العروة الوثقى : في ١١/٩/١٨٨٤ م .

ان صاحب الدين صلى الله عليه وسلم ينتظر فيما يعرض عليه من اعمالكم نهضة لاعلان كلمة الحق ، وانقاذه من مخالف أعدائه ، وأن الله في عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين . (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله . ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين) (١) .

بهذه الأفكار الواعية والمعاني الثائرة ، والعاطفة الملتهبة ، والحمية الدينية والوطنية أذن « الأفغانى » للجهاد على منبر « العروة الوثقى » التى كانت أول صحيفة رفعت لواء المعارضة فى وجه الطغيان الانجليزى وحملت على الاحتلال بلا هوادة ، وبشت روح الأمل والجهاد فى نفوس المصريين .

وليس من شك فى أن هذه الأفكار التى بثها « الأفغانى » فى قلوب المصريين قد أثارت حميتهم ، واستنفرت عزائمهم ، وجرأتهم على مناهضة الاحتلال وحبيت اليهم الجهاد فى سبيل انقاذ الوطن من أيدي أعدائه وأعداء دينه . وكانت دستوراً لجهة العداء ضد الانجليز التى قادها من بعده زعماء الحركة الوطنية . . من أمثال « عبد الله النديم » و « مصطفى كامل » و « محمد فريد » أولئك الذين حملوا على الاحتلال أعنف الحملات عبر الصحف الوطنية ، ومن خلال اللقاءات الشعبية ، وفى المحافل الدولية حتى فضحوا أساليب الاستعمار وكشفوا عن سيئاته ونددوا بسياسته .

ومن ذلك ما كتبه « النديم » فى مجلة « الأستاذ » سنة ١٨٩٣ عن سياسة أوروبا الاقتصادية فى بلاد الشرق (٢) وعن أثر الانجليز فى افساد أخلاق المصريين وتقاليدهم (٣) .

وكان لما كتبه « النديم » فى « الأستاذ » أثره فى توعية الشعب بحقيقة ما يراد به مما أثار حنق الانجليز على « النديم » ومجلته ، فأغلقت بعد تسعة أشهر من صدورهما وفرض على صاحبها مغادرة مصر منفياً (٤) .

ثم ان هذه المقالات التى كتبها « النديم » مندداً بأساليب الانجليز كاشفاً عن خداعهم كانت الى جانب مقالات « الأفغانى » الثائرة من أهم

(١) العروة الوثقى : فى ١٦/١٠/١٨٨٤م ، وانظر تاريخ الامام ، ج ١ ، ص ٣٦٩ .

(٢) راجع الأستاذ فى ١٧/١/١٨٩٣ . مقال (لو كنتم مثلنا للعلمت فعلنا) .

(٣) راجع : الأستاذ العدد السابق ، ونفس المقال .

(٤) أنور الجندى : الصحافة السياسية فى مصر ، ص ٥١ .

مكونات الفكر السياسي « مصطفى كامل » الذي تلقف الراية من يد « النديم » مبتدئاً جهاده الوطني الباكر من سنة ١٨٩٥ مستهدفا خدمة الوطن والدين مؤمناً بأن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه صادقاً ، ويفديه بروحه ، وما تملك يده (١) وأن التعلق بدولة الخلافة الاسلامية أقدم واجب تفرضه على المصريين الوطنية الحق (٢) .

ومن هذا المنطلق ابتداء « مصطفى كامل » جهاده الوطني ، فأخذ يناهض الاحتلال ، ويبث روح الوطنية ، ويستنهض الشعب لازالة عار الاحتلال بمثل قوله : « كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه ، والعار واجب أن يزال . . فيا ذوى النفوس الأبية ويا ذوى الضمائر الحية ، اطلبوا الشرف ولومع الفقر ، اخدموا وطنكم ولو أسقطت على رعوسكم الصواعق (٣) » .

كما أخذ يدعو الى دستور وطني ويقوم على ارادة الأمة ليكون أداة الحكم الصالح في مصر . مؤكداً أن بقاء السلطة المطلقة في يد رجل واحد من شأنه أن يضر بالبلاد ويجر عليها الوبال (٤) .

★★★

وكان « مصطفى كامل » - مع دعوته الى الجلاء والى الدستور - يدعو الى الوحدة الوطنية والى الاخاء بين المسلمين والأقباط منذ سنة ١٨٩٦م . ابطالا لكيد الانجليز ، ومؤامراتهم للدسيسة بين أبناء الوطن الواحد . فيقول :

« ان لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون في الدين : اهاجة الأمة ، والقاء بذور الشقاق بين الأوروبيين والمصريين ، ولكن من حسن حظ مصر ان الأمة محافظة على السكينة ، عارفة بقيمة الاعتدال الديني وحسن معاملة الأوروبيين » (٥) .

(١) عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ص ١٢ .

(٢) المؤيد : ٩ يونيه ١٨٩٧ .

(٣) المؤيد : العدد السابق .

(٤) راجع : عبد الرحمن الرافعي ، المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٥) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

ويقول من خطبة له في الاسكندرية سنة ١٨٩٧ :

« ... ان المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما الى الأبد » (١) .

ويقول في خطبة ثالثة سنة ١٨٩٧ :

« ... مهما دبر الدخلاء من الدساس فان المصريين عامة أرشد من أن ينخسعوا ، وعقلاء الأقباط أصدق وطنية وأشرف احساسا من أن يكونوا آلات في أيدي هؤلاء الأعداء الممقوتين ، وانى أسأل الأقباط الصادقين قبل المسلمين أن يقاوموا هؤلاء الدخلاء ، وأن يحققوا أمام العالم كله أن الأمة المصرية على قلب واحد ، وانها متحدة ضد أعدائها فمصلحة الوطن قاضية بذلك » (٢) .

ثم كرر هذه الدعوة سنة ١٩٠٠ فقال في خطبة له بالاسكندرية :
« ... كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء ، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ؟ فالأقباط اخوة لنا في الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق » (٣) .

★★★

وكانت الوحدة الوطنية في مصر قد تعرضت في بداية هذا القرن لخطر التصدع والانحيار بسبب دسائس الاستعمار من ناحية ، ثم بسبب الجهل وسوء الظن وفقدان الثقة بين المسلمين والمسيحيين من ناحية أخرى . حيث كان المسلمون يسيئون الظن بالأقباط ويتهمونهم بموالة الانجليز المستعمرين لما بينهما من رابطة المسيحية ، وكان المسيحيون يسيئون الظن بالمسلمين ويتوهمون أنهم يتحينون الفرص للانتقام منهم ، ولا يحول بينهم وبين ذلك الا الانجليز ، وقد لعب الجهل الذي يقود الى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين دورا خطيرا في هذه الانشقاق (٤) ثم تزايدت حدة الخلاف وتفاقم خطر الانقسام بين الجانبين حتى بلغ مبلغه بمقتل « بطرس غالى » سنة ١٩١٠ . فاندلعت نيران الفتنة ، واشتد لهب الخلاف ، وأرثت الصحف القبطية نار التعصب المذهوم . ولولا ان قيض الله لهذه الفتنة من أطفائها من عقلاء الجانبين لانهار صرح الوحدة الوطنية ولضاعت - بذلك - آمال الأمة في الحرية والاستقلال .

(١) د . أحمد الحوفى : الوطنية في شعر شوقي ، ص ٣٤٢ .

(٢) المؤيد : ٩ يونيو ١٨٩٧ .

(٣) د . أحمد الحوفى : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

وكان الزعيم « مصطفى كامل » على وعى بخطر الانقسام بين -نصرى
الأمة ، وبدور السياسة الانجليزية فى التفريق بأن العنصرين ، فجهر
بالدعوة الى الاخاء والوحدة منذ وقت مبكر . ثم تبعه فى دعوته خليفته
« محمد فريد » فقال فى خطبة له بالاسكندرية سنة ١٩٠٨ :

« انبذوا الشقاق والاختلاف الدينى ، وكونوا جميعا اخوانا ، أبناء
وطن واحد . أى كونوا مصريين قبل كل شئ » (١) .

واذن . . فقد كانت قضية الوحدة الوطنية من القضايا الهامة
المطروحة على الساحة السياسية المصرية فى هذه الحقبة .

ومن خلال ما تقدم يمكن القول بان أهم القضايا الوطنية ذوات
المساس بالدين والتى شغلت الفكر السياسى المصرى فى هذه الحقبة
كانت تتمثل فيما يلى :

أولا : الدعوة الى الجهاد ، وبث روح الوطنية فى الشعب ، واستنهاض
هممه لمقاومة الاحتلال واثارة حفاظه ضد الانجليز بتصوير فظائعهم
والتنديد بسياساتهم .

ثانيا : المطالبة بالدستور ، وتمجيد الشورى ، ورفض الاستبداد
وحكم الفرد .

ثالثا : الدعوة الى الوحدة الوطنية ، والسلام الاجتماعى ، ونيل
الفرقة والتعصب بين عنصرى الأمة .

تلك كانت أهم القضايا السياسية على الساحة الوطنية المصرية فى
هذه الحقبة فماذا كان موقف الشعر المحافظ فى مصر من هذه القضايا ؟

والجواب - فى اجمال - هو : أن الشعر المحافظ قد عالج هذه
القضايا بروح وطنية موصولة بالاسلام . أو بمعنى آخر ، كان موقف
الشعر من هذه القضايا الوطنية لا يبعد عن موقف الاسلام منها .

بيد أن هذا الجواب - المجل - يحتاج الى شئ من الايضاح لموقف
الاسلام من هذه القضايا - أولا - ثم لموقف الشعر - من خلال نماذجه
حول هذه القضايا - ثانيا - فما موقف الاسلام فى ايجاز - من هذه
القضايا ؟

(١) د . أحمد الحوفى : وطنية شوقى ، ص ٣٤٢ ، نقلا عن : عبد الرحمن الرافعى ،

محمد فريد ، ص ٤٤٩ .

أما قضية التحريض على الجهاد ، واستنهاض همم الشعب لمقاومة الاحتلال ورد عدوانه ، ومطالبته بالجلاء . فإن الاسلام - انطلاقا من قاعدة الجهاد - يحرض المؤمنين على القتال ، ويدعوهم الى مناوأة البغي ومخاصمة الضلال ، لان الاسلام دين يقوم على الحق ، ومن طبيعة الحق انه يرفض الظلم ، ويكره العدوان مثلما يكره الذل والهوان .

فاذا كان الاحتلال قد غرس مخالفه في مقاتل المصريين ، وقبض على زمام السلطة الفعلية في البلاد ، وقضى على الحرية ، وأوقد نار الفتنة بين عنصرى الأمة ، وسام الشعب كله سوء العذاب . فإن الاسلام - انطلاقا من قاعدة الجهاد لرد العدوان - يفرض على المسلمين قتال المعتدين . قال الله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١) .

ومن واجب الدعاة الى الحق في كل عصر أن يبصروا الأمة بحقوقها ، وأن يردوا اليها وعيها ، وأن يثبتوا في أبنائها روح الجهاد ضد العدوان .

فاذا فعل الشعراء ذلك . فأيقظوا وعى الأمة ، واستنهضوا هممها لمقاومة العدوان عليها ، وحرضوا الشعب على قتال ظالميه ومستبهيحي حرماته ، اذا فعلوا ذلك . . فقد أدوا رسالتهم الوطنية الدينية الانسانية . وهذا ما فعله الشعراء حين تصدوا لهذه القضايا .



وأما قضية الدستور : فمن المعروف أن مهمة الدستور في الدولة تتلخص في حماية الحقوق ، وضمان الحريات ، وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم . فاذا نظرنا الى الاسلام وجدنا أنه قد كفل هذه الجوانب ، وأحاطها بكل الضمانات التي تجعل منها حقيقة قائمة لا قوانين مفرغة
ويكفى أن أشير الى بعض المبادئ الاسلامية فيما يتصل بهذا الجانب :

أولا - قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وهي قاعدة اسلامية عامة تتمثل فيها الحرية بأوسع صورها ، وأنبل غاياتها ، لأنها تضع « أسس التمرد على المظالم ، والثورة على الفسوق . وتجريء العامة فردا فردا على أن يصدعوا بالحق ، وأن يصدعوا به رأس كل جبار عنيد (٢) .

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٤ .

(٢) محمد الغزالي : الاسلام والاستبداد السياسي ، ص ١٥٧ .

ثانيا - مبدأ الشورى فى الحكم فى قوله : « وشاورهم فى الأمر » (١) :
وفى قوله : « وأمرهم شورى بينهم » : (٢)

مبدأ اسلامى عام . يتقرر فى ظله حق الجماعة وينتفى نظام الفرد
وينعدم الاستبداد والتسلط . وسوف أعود الى بيان ذلك عند الحديث
عن سياسة الحكم فى الاسلام .

ثالثا - قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » :

قاعدة اسلامية عامة . تحفظ توازن المجتمع ، وتحمى بعضه من
بعض . . ذلك الى جانب ما قرره الاسلام من حق العدل والمساواة وحماية
الدماء والأموال والأعراض .

وأما قضية العلاقة بين المسلمين والمسيحيين : فان الاسلام بداية
لا يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، بل يقرر قاعدة عامة هى « لا اكراه
فى الدين » (٣) .

وفى ضوء هذه القاعدة . يدعو الاسلام الناس الى الحق بالحكمة
والموعظة الحسنة وينهى المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب الا بالتى هى
أحسن ، وينتدب المسلمين الى أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف
رحمة وبر وعدل وقسط فيقول جل شأنه : « لا ينهاكم الله عن الذين لم
يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم
ان الله يحب المقسطين » (٤) .

ومن القواعد الاسلامية المقررة فى دولة الاسلام قاعدة : « لهم ما
لنا وعليهم ما علينا » فهذه القاعدة « لا تكتفى بأن تكفل لغير المسلمين فى بلاد
الاسلام حرية عقائدهم أو عوائدهم ، وحماية أشخاصهم وأموالهم
وأعراضهم ، بل تمنحهم من الحرية والحماية ومن العدل والرحمة قدر ما
تمنحه للمسلمين من الحقوق العامة » لهم ما لنا وعليهم ما علينا » (٥) .

ان الاسلام لا يكف لحظة واحدة عن مد يده لمصافحة أتباع كل ملة
ونحلة فى سبيل التعاون على اقامة العدل ، ونشر الأمن ، وصيانة الدماء
أن تسفك وحماية الحرمات أن تنتهك » (٣) .

(١) سورة : آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

(٢) سورة : الشورى ، الآية : ٣٨ .

(٣) سورة : البقرة ، الآية : ٢٥٦ .

(٤) سورة : المتحنة : الآية : ٨ .

(٥) محمد الغزالي : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ، ص ٨١ - ٨٢ .

(٦) محمد الغزالي : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ، ص ٨٢ .

والدين الذى يسمح باختلاف الدين فى بيت صغير تتلاقى فيه
الوجوه ، وتتقارب الأبدان وتشترك المشاعر - لا يضيق - البتة - باختلاف
الدين فى وطن كبير تتسع فيه المصالح وتتعدد الحاجات والكفايات ،
ويستحب فيه التعاون على بلوغ الغايات « (١) » .

★★★

واذن فان كل دعوة الى الاخاء الوطنى ، والسلام الاجتماعى ، والتعايش
السلمى بين المسلمين والمسيحيين هى دعوة اسلامية تنبع من سماحة
الاسلام .

ذلك موقف الإسلام - فى ايجاز - من القضايا الوطنية التى شغلت
الرأى العام فى مصر . أعود بعده لبيان موقف الشعر المحافظ فى هذه
القضايا ، من خلال ما قدمه الشعراء فى قصائدهم السياسية .

★★★

والحق أن شعراءنا المحافظين قد انفعلوا بقضايا وطنهم وفى مقدمتها
هذه القضايا ، فراحوا يبثون روح الوطنية . ويستنهضون همم الشعب ،
ويحفزونهم الى النضال والتضحية والجهاد ، وينددون بسياسة الانجليز ،
ويطالبون بالدستور ويؤلفون بين عنصرى الأمة فى وحدة وطنية جامعة .

فلنستمع الى شعرائنا وهم يبثون روح الوطنية . ويستنهضون همم
الشعب للجهاد والتضحية .

يقول « أحمد محرم » يهيب بالأمة أن تهب للجهاد ، وأن تستيقظ
للدفاع عن ديارها ضد أعدائها المتربصين بها :

يا أمة خاط الكرى أجفانها هبى فقد أودت بك الأحلام
هبى فما يحمى المحارم راقد والمرء يظلم غافلا ويضام
هبى فما يغنى رقادك والعدى حول الحمى مستيقظون قيام
غنموا نفائسه وثم بقيه ستيهلها أيديهم الأيام

(١) محمد النزالى : المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

ثم يقول ناصحا ومحذرا :

شيئان يذهب بالشعوب كلاهما نوم عن الأوطان واستسلام (١)

★★★

وفى سبيل الحق المقدس لا يبالي « أحمد محرم » بلوم اللائمين بل يعلن أنه من حزب الله وأنه قد بايع على نصره الحق فيقول : (٢)

نحن حزب الله صونا حقه وحفظنا عهده في الناكثين
نحن بايعناه منذ كنا على نصره الحق وكنا فاعلين
ان غضبنا أو رضينا فله لا نبالي نزهات المرجفين

ثم يستنفر قومه للجهاد في سبيل الحق ، والحفاظ على المحارم ، وحماية الوطن ، لأن مصر حصن الاسلام ، وملاذ المسلمين فيقول :

يا لقومي . جاهدوا ، لا تهنأوا وسيأتي الله بالنصر المبين
أنجلوا مصر اذا ما فرغت وأهابت بالكمالة الباسلين
احفظوها ان مصر ان تضع ضاع في الدنيا تراث المسلمين

★★★

ويقول « أحمد نسيم » يحث الأمة على الجهاد والذود عن حقوقها في الحرية والاستقلال :

هلم ندافع جهدا عن بلادنا دفاع كرامة أو ضراغم غاب
كذلكم الرئبال تعرفوه سورة اذا احتل يوما خيسه بذئاب
ومن فقد استقلاله عاش هينا يسام صفوفنا من أذى وعذاب
هلم نخض غمر الصعاب الى العلا ونفرق من الاقدام كل عباب (٣)

وقال يحث الأمة على الثبات وطلب الجلاء : (٤)

يا أمة ثبتت على كيد العدا لا تجزعى . ان الثبات فخر
سيرى الى طلب الجلاء ولا تنى نمنح من العلياء ما نختار

(١) ديوان أحمد محرم : ج ١ ص ٨٥ .

(٢) ديوان أحمد محرم : ج ٢ ص ١٨٠ .

(٣) ديوان أحمد نسيم : ج ١ ص ٤ .

(٤) ديوان أحمد نسيم : ج ٢ ص ٦ .

وقال يستنفر للجهاد والسعى الى طلب الجلاء : (١)

قومي لقد حان التيقظ فانشدوا مجدا لكم ضيعتموه ونمتموا
من بات ينشد حقه متوخيا فيه الثبات فانه لا يهضم
سيرا على قدم الثبات ولا تنوا واسعوا الى طلب الجلاء وأقدموا
لم يبلغ النصر المؤثل معشر وطلوا نفوسهم على أن يهزموا

وقال يحرض الأمة على طلب المجد ، ويستنهض همتها لتحقيق المطلب
المنشود :

يا أمة التاريخ هلا همة شماء تدنى المطلب المنشود
ألا يكن مجد فبئت عيشة تكون فيها السؤدد المنشود (٢)

★★★

ويقول « المصرى » يدعو فتية النيل الى الاقدام ويغريهم بالعلاء وطلب
المجد : (٣)

يا فتية النيل جدوا السير تفتموا تلك العلا فهي تدعو لكل مفتنم
المجد بالباب والمزلاج يمنع فحطموه اذا استعصى فينحطم
ويدخل المجد خطارا بموكبه يصافح الناس فى أثواب مبتسم

★★★

ويبث « الغاياتى » روح الوطنية فى الشعب ، ويستحث الأمة على
الجهاد لاستخلاص حقها المغتصب مهددا بالانتقام من ظالمها فيقول : (٤)
طال يوم الظلم فى مصر ولم ندر بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتل أنا أمة مد عرفنا السلم لا ندرى الخصاما

(١) ديوان احمد نسيم : ج ٢ ، ص ١٢ .

(٢) ديوان احمد نسيم : ج ٢ ، ص ١٧ .

(٣) ديوان المصرى : ج ١ ، ص ١١٩ .

(٤) ديوان « وطنيتى » للغاياتى : ص ٤٥ .

أو يرى الظالم فينا أننا نحمل الخسف ولا نبغى انتقاما
زعموا زورا فما من أمة سامها العسف ظلوم ثم داما
كتب النصر لشعب ناهض في سبيل المجد لا يخشى الحماما
ويقول مخاطبا فتى النيل مستنفرا حميته الوطنية للدفاع عن
شرفه :

يا فتى النيل أدرك النيل انى ألح الجبن فى قلوب الحماة
ليس فيهم فتى يجيب دعة يوم يلوى بمصر صوت الدعاة
جاهد اليوم ما استطعت ولا تنس غدا فهو مطمح النظرات (١)
ويلفت « شوقى » أنظار المسلمين الى ما يدعو اليه الاسلام من الأخذ
بأسباب القوة ، وابتغاء العزة والسيادة فيقول :

حب السيادة من شمائل دينكم والجند روح منه والاقدام (٢)
ويقول من قصيدة له فى « ذكرى المولد » يحث على الاقدام والجسارة
اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم :

وعلمنا بناء المجد حتى أخذنا امرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قول منال اذا الاقدام كان لهم ركابا (٣)

★★★

والحرب ما دامت لحماية الدين والوطن فهى جهاد مشروع يحفظ
نظام الأمم ، ويحمى حياة الشعوب . ولذلك دعا النبى الى الجهاد دفعا
للعُدوان وحماية للحق .

يقول « شوقى » مادحا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان مزايا
دعوته ومنها الجهاد فى سبيل الحق :

علمتهم كل شىء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذم

(١) ديوان وطنيتى للفاياتى ، ص ٩٠ .

(٢) الشوقيات : ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٣) الشوقيات : ج ١ ، ص ٦٢ .

دعوتهم لجهاد فيه سنؤددهم والحرب أس نظام الكون والامم
لواه لم للولات في زمن ما طال من عمد أو قر من دعم (١)

ويقول في « الهمزية النبوية » :

والحرب من شرف الشعوب فان بغوا فالجد مما يدعون براء (٢)

وشوقى اذ يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ، ويلوح بجهاده فى سبيل
الحق ودفع الضيم انما يستثير حمية المسلمين للجهاد اقتداء برسول الله
صلى الله عليه وسلم .

على هذا النحو مضى شعراؤنا المحافظون ييشون فى الشعب روح
الوطنية ويبعثونه للجهاد والمقاومة ، ويحفزون له لطلب الجلاء والاستقلال .

وبذلك شارك الشعر المحافظ فى صياغة الوجدان الوطنى للشعب ،
وفى تنبيه وعى الأمة الى أساليب الاحتلال ومؤامراته .

ولعل لا أكون مبالغا اذا قلت : ان الشعر - بما له من خاصية
الايقاع والنغم قد كان ألصق بوجدان الشعب وأبقى فى أذن الجمهور من
خطب الساسة والزعماء ولذلك عاشت القصائد - أو على الأقل بعض
أبياتها تردها الجماهير وتتغنى بها فى اعجاب لم تحظ به خطب الزعماء
مع صدق معانيها وقوة أفكارها . وهذا يعنى أن الشعر فى حياة الشعوب
ليس ترفا ، ولا تزجية فراغ وانما هو تعبير صادق عن النفس الانسانية
فى أنبل عواطفها .



ومهما يكن من أمر . فقد مضى الشعراء المحافظون فى طريق النضال
الوطنى ينددون بسياسة الانجليز ويصورون فظائعهم ، يريدون أن يثيروا
حنائى المصريين ضدهم بكشف سيئاتهم وفضح مؤامراتهم . وفى هذا
يقول « أحمد محرم » منددا بسياسة الانجليز ، ناعيا على الاحتلال بغيه
 وعدوانه . ونقضه للعهود والمواثيق :

(١) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٢٩ . توثيق : د . أحمد الحوفى .

(٢) الشوقيات : ج ١ . ص ٢١ .

فى كل يوم شرعة ونظام
عشرون علما والديار مريضة
كيف الشفاء لمصر من أدوائها
ما هكذا الأحكام والحكام
تنتابها الأدوية والأسقام
أم كيف يرجى عزها ويرام ؟

الى أن يقول مخاطبا بريطانيا :

يا دولة رفعت على أوطاننا
أين المواثيق التى أبرمتها
لم تحفلى بعهودنا فنقضتها
عشرون عاما ما كفتك وهكذا
طال المقام وأنت أنت ولم يكن
علما تنكس تحتها الأعلام
ان كان منك لوثق أبرام ؟
يا هذه ، نقض العهد حرام
تأتى وتذهب بعدها الأعوام
ليطول لولا الجهل منك مقام (١)

ويقول من قصيدة له سنة ١٩١٨ يندد بفظائع الانجليز فى مصر
ابان الحرب العالمية الأولى : (٢)

ما ذكرنا لكم من الخير شيئا
نذكر الحكم ظالما ما رأينا
نذكر العهد سيئا ما عرفنا
نذكر الشر والبلاء جميعا
طال عهد احتلالكم فحسبنا
ما رضىنا لكم على الدهر حالا
فيه عدلا ولا وجدنا اعتدالا
فيه حرية ولا استقلالا
فاذكروا عهدكم وشدوا الرحالا
أن يوم الحساب يدعى احتلالا

الى أن يقول منذرا الانجليز بسوء العاقبة :

هل من الله مهرب أو نجاة
ياخذ البر والبحار عليكم
تلك عقبى الأذى فلا تنكروها
حين يزجى جنوده والرعالا (٣)
ويريكم نزاله والدحالا (٤)
جاءكم يومكم فذوقوا الوبالا

(١) ديوان أحمد معزم : ج ١ ، ص ٨٥ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ، ص ٢٠٠ .

(٣) الرعال : جماعة الخيل .

(٤) الدحال : الامتناع .

وكانت فاجعة « دنشواى » صدمة أصابت الشعور الوطنى وأثارت
حفائظ المصريين ضد الانجليز ، وقد استغلها الشعراء المحافظون فى
التنديد بسياسة الانجليز ووحشيتهم ، وفى إثارة الرأى العام والضمير
العالمى ضدهم .

فقال « حافظ ابراهيم » مندداً بوحشية الانجليز فى سخرية
واستنكار :

لا تقيّدوا من أمة بقتيل صادت الشمس نفسه حين صاد
جاء جهالنا بآمر وجئتهم ضعف ضعفيه قسوة واشتداد
أحسنوا القتل ان ضنتم بعفو أقصاها أردتم أم كيدا ؟
أحسنوا القتل ان ضنتم بعفو أنفوسا أصبتم أم جمادا ؟
ليت شعرى ألك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟
كيف يحلو من القوى التشفى من ضعيف ألقى اليه القيادا ؟
انها مشلة تشف عن الفيظ ولسنا لفيظكم أندادا (١)

ويقول من قصيدة له فى استقبال « اللورد كرومر » عند عودته من
إجازته بعد حادثة دنشواى يصف فيها فظائع الاحتلال فى هذه الحادثة :

حسبوا النفوس من الحمام بديلة فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا
خليتهم والقاسطون بمرصد وسياطهم وحبالهم تتأهب
جللوا ولو منيتهم لتعلقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا بلظى سياط الجالدين ورجبوا
يتحاسدون على الممات وكاسه بين الشفاء وطعمه لا يعذب
موتان : هذا عاجل متمر يرنو وهذا أجل يترقب
والمستشار مكاثر برجاله ومعاجز ، ومناجز ، ومغرب (٢)
يختال فى أنحائها متبسما واللمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير ما يرجو العميد ويطلب (٣)

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٢) المستشار : هو الكايتن (ممثل) مستشار وزارة الداخلية ، وكان يشرف على
تنفيذ الحكم . راجع عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ، ص ١٠٤ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٢٤ .

ويقول « شوقى » من قصيدة له فى « ذكرى دنشواى » يصف هذه
المأساة البشعة التى تركت آثارها فى كل ناحية وكل محلة جزعا وكآبة :

يا دنشواى على رباك سلام شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا مرت عليهم فى اللحد أهلة كيف الأرامل فيك بعد رجالها عشرون بيتا أقفرت وانتابها يا ليت شعرى فى البروج حمائم (نيرون) لو أدركت عهد (كرومر) نوحى حمائم دنشواى وروعى ان نامت الأحياء حالت بينه متوجع يتمثل اليوم الذى السطو يعمل والمشائق أربع والمستشار الى الفظائع ناظر فى كل ناحية وكل محلة وعلى وجوه الثاكليين كآبة	ذهبت بانس ربوعك الأيام هيهات للشمل الشتيت نظام ومضى عليهم فى القيود العام وبأى حال أصبح الأيتام بعد البشاشة وحشة وظلام أم فى البروج منية وحمام ؟ لعرفت كيف تنفذ الأحكام ! شعبا بوادى النيل ليس ينال سحرا وبين فراشه الأحلام ضجت لثمة هوله الأقدام متواحدات والجنود قيام تلمى جلود حوله وعظام جزعا من الملاء الأسيف زحام وعلى وجوه الثاكليات رغام(١)
---	--

ولا شك أن حادثة دنشواى كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة
الوطنية المصرية . فقد جرأت الشعب على التصدى للاحتلال ومناوآته
بسوء سياسته . والى ذلك يشير « حافظ ابراهيم » بقوله :

قتيل الشمس أورثنا حياة فليت (كرومر) قد دام فينا ويتحف « مصر » أنا بعد آن لنزع هذه الأكفان عنا	وأيقظ هاجع القوم الرقود يطوق بالسلاسل كل جيد بمجلود ومقتول شهيد ونبعث فى العوالم من جديد (٢)
--	---

★ ★ ★

لقد كانت حادثة دنشواى ايذانا بانطلاق الروح الوطنية الكامنة فى
صدور المصريين ، فانطلقوا ينددون بسياسة الاحتلال ، ويدقون أبواب
العدالة الانسانية ، ويهتفون بالضمير العالمى للوقوف الى جانب الحق
المستباح .

(١) الشوقيات : ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص

فيقول « نسيم » من قصيدة له يحمل فيها على الاحتلال ، ويفضح
نكته بعهوده ، ويستنهض الهمم للجهاد : (١)

يا ناشرين لواء العدل في الآم	الله في أمة أنت من الألم
ملوا إلينا يدا بيضاء نشكرها	عند التحدث شكر الروض للديم
انا منينا بأقوام جبابرة	ما بين مغتصب منهم ومحتكم
جاءوا إلينا وفي أيمانهم شرف	يموهون به في العهد والقسم
قالوا لنا : انا جئنا بلادكم	نبني لكم ركن مجد غير منهدم
حتى تغدرت الأعصاب وانسدلت	على العقول سجوف البطل والوهم
فلا فهود لهم ترعى ولا ذمم	كما استباحوا لدينا النكت في الذمم
هم أخرجونا بهذا الضيم من زمن	فان هممنا بدفع الضيم لم نلم
يا قائمين بأمر النيل حسبكم	ما أخرج الأقوم من ظلم ومن غشم (٢)

ويقول من قصيدة أخرى يعدد آثار الاحتلال ويفضح نياته :

هموا حكموا بأعنائ كانا	حرام أن تكون من الشعوب
فمن أرث هم اغتصبوه منا	ومن حق بلا حق سليب
وهم وأدوا الصحافة في صباها	وقيدها العميند بلا ذنوب
وكم نشروا علينا من صنوف	تجسر الى الدمار ومن ضروب
يجبون الثناء على تكير	ويبغون المديح على معيب (٣)

ويشكو « الغاياتي » من مساويء الاحتلال ، ويشن من ظلم الانجليز
واعنائتهم للشعب فيقول :

طال ليل البلاد والشعب سار	لا يرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظالم أودت	بضياء الحياة بعد الحياة
يشتكى الشعب والقضاة خصوم	فلمن يشتكى خصام القضاة

(١) عبد الرحمن الرافعي : شعراء الوطنية ، ص ٢٢٣ .

(٢) ديوان نسيم : ج ٢ ، ص ٧ .

(٣) ديوان نسيم : ج ٢ ، ص ٤٣ .

ثم يهدد بالانتقام من الطغاة فيقول :

أوشك القلب أن يطير انتقاما بيد أن الصلور ذات أناة
ليس للصبر موطن في فرّاد أضرمته لواعج الزفرات (١)

ويقول منددا بمساوىء الاحتلال ونقضه للعهود :

دأبت الأيام واحتل الحمى ظالم عن ظلمة لم ينم
لفظته أرضه من بعد ما أطعمته نفسه في الأمم
ناكت الايمان في أيمنانه حاث لم يحتفظ بالذمم
باعث الجهل مهيت للحجا خاذل الحق نصير الجرم
لا رعاه الله من مقتصب أشام اليوم نذير النقم (٢)

و « لعبد المطلب » قصيدة تنم عن شعور متقد وصراحة تامة في كشف عورات الانجليز وسوءاتهم ، وسوء سيرتهم بمصر ، وما لاقت على أيديهم من الذلة والمهانة والجهل (٣) وقد نظمها قبيل الحرب العالمية يصف فيها ما عانته مصر في ظل الاحتلال على مدى ثلاثين عاما :

ثلاثين عاما لا ترى مصر منهم سوى صلف المستكبر المتعزق (٣)
ثلاثين عاما لم تشم برق رائحة ولا طيب مخضر من العيش غيلق
ثلاثين عاما بين يأس وحسرة وهول زمان بالحوادث متاق (٤)
إذا ودعت عاما من الجور أبغعا تفيء الى عام من البؤس أبلق

ثم يقول عن أخلاق المحتل :

يرى نفسه فوق القوانين بينما متى ما تذكره القوانين يحنق
يبيح غدا ما حرم اليوم بالهوى لغير الهوى في حكمه لم يوفق
الآهة جبارة وامرة خاظم وتدير أعشى في الحكومة أحرق
يقرب خوانا ويرفع جاهلا ويسعد أشقاها ويشقى بى التقى

(١) ديوان : وطنيتى للغاياتى ، ص ٩١ .

(٢) ديوان وطنيتى ، ص ٩٠ .

(٣) راجع : عمر الدسوقي فى الأدب الحديث ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٤) المتعزق : العصر الخلق .

(٥) متاق : أى ملوئ .

ويقول عن أثر الاحتلال في تعطيل الحركة العلمية في مصر :
ثلاثين عاما يسكب النيل حصرة على العلم دمع الواله المتشوق
ولولاه كانت مصر بالعلم روضة تلالاً بالأنوار للمتألق (١)

★★★

ويصم شوقي الاستعمار بالعدوان على الحق الطبيعي للأمة أن تنتفع
بخيراتها ، وهو حق لا تنكره الا شريعة الدنس والقذارة فيقول :

احرام على بلبله اللوح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل الا في خبيث من المذاهب رجس (٢)

★★★

وأيا ما كانت سطوة الاستعمار وضراوته فلقد كان هذا التنديد
- المستمر - بسياسته نوعاً من المقاومة الوطنية التي أفقدت المحتل ثقته
في امكان بقاءه آمناً من غضبة الشعب الذي بدأ يتحفز للانتقام من
مستعمره ، وكان لذلك أثره المباشر في الجلاء عن أرض الوطن فيما بعد .

وكانت المطالبة بالدستور في مواجهة الاستبداد وفساد الحكم موقفاً
وطنياً شارك فيه الشعراء المحافظون تأكيداً لحق الأمة في الحرية والعدالة ،
و ضماناً لحماية مصالحها من الفساد والقوضى ، وتلك مهمة الدستور في
حياة الشعوب على نحو ما يقول « أحمد محرم » من قصيدة له يخاطب فيها
« القانون العادل » : (٣)

انت في الأرض امام الحاكمين	بك يمضى حكمهم في العالمين
انت للمظلوم حرز مانع	ونكال واقع بالظالمين
انت موت للغواة الجاهلين	وحياة للهداة العارفين
انت ان شئت فخوف الآمنين	وان شئت فآمن الخائفين
تنصر الحق بعزم قاهر	حين لا يرجو غيث الناصرين
تحفظ القوم وتحمل حوضهم	يوم يعنى القوم فقد الحافظين

★★★

(١) عبد الرحمن الرافعي : شعراء الوطنية ، ص ٢٥٤ .

(٢) الشوقيات : ج ١ ، ص ٥٤ .

(٣) ديوان أحمد محرم : ج ١ ، ص ٩٧ .

من أجل ذلك نشطت الدعوة الى الدستور ، والى الحياة النيابية وكان
لصدور الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ أثره فى تنشيط هذه الدعوة فى
مصر وفى بعث الأمل فى الظفر بمثل ما ظفرت به تركيا .

وقد عبر « شوقى » عن أمل مصر فى ذلك ، فقال من قصيدة له
يحيى فيها شعب عثمان ويهنئه بالدستور .

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب حياك من يبعث الموتى ويحييها
ما بين آمالك اللاتى ظفرت بها وبين مصر معان أنت تدريها (١)

★★★

ويهنئ « اسماعيل صبرى » الخديو عباس بعيد الأضحى سنة
١٩٠٨ ، فلا يفوته أن يطالبه بالدستور ويستنجزه وعده به ، لأن الممالك
كلها تنعم بالدستور بينما مصر محرومة منه مع أن الدستور يحمى الحاكم
ويجعله راعيا لشعب قوى ، بينما الاستبداد يجعل منه راعيا لشعب ضعيف
متخاذل لا يؤمن عليه من العدوان .. فيقول : (٢)

كل الممالك نالت ما ترتجسى	من انعم الشورى وملكك مطلق
مر بالذى صرحت قبل به وقل	واصدق فمثلك من يقول ويصدق
سند سهام الراى بالشورى يحط	بك منه فى ظلم الحوادث فيلق
واسبق به ، واضرب به ، وافتح به	ما شئت من باب أمامك يغلق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه	فالعلم أجمل والمكارم أليق
كن راعيا يرعى الأسود فمن رعى	غنا يبيت يخشى الدئاب ويفرق

★★★

والدستور ليس منحة ولا هبة من أحد بل هو حق طبعى للشعوب
وأمانة فى أعناق حكامها تستردها الشعوب متى شاءت .

ومن ثم يرفع « المصرى » (صوت الشعب) (٣) الى الخديو عباس
سنة ١٩٠٨ ، يطالبه بالدستور ، ويحذره من معاداة الشعب ، وتجاهل
مطالبه ، ويذكره بوعده بإصدار الدستور فيقول على لسان الأمة
المصرية :

(١) الشوقيات : ج ١ ، ص ٣٦٢ .
(٢) ديوان اسماعيل صبرى : ص ١٧١ .
(٣) ديوان المصرى : ج ١ ، ص ٨٥ .

رد الوديعة لا مالا ولا شائنا
لولا ولاؤك لم نبسط اليك يدا
الناس تخلق أحرارا فيكيف بنا
هلا أدركت الوعود السالفات، وهل
لم نرج في جانب الدستور احسانا
بين الرجاء ، ولم نسالك غفرانا
نرضى المقام بوادى النيل عبدانا
نسيت بالأمس ما أسمعته الطنانا (١)

ويؤيد « حافظ ابراهيم » حركة المطالبة بالدستور ويستحث الشعب على التمسك بهذا الحق فيقول من قصيدة له في تحية العام الهجرى سنة ١٩٠٩ : (٢)

ويا طالبى الدستور لا تسكتوا ولا
أعدوا له صدر المكان فأننى
فما ضاع حق لم ينسم أهله
لقد ظفر الأتراك عدلا بسؤلهم
هم لهم العام القديم مقدر
ونحن على الآثار لا شك نظفر
ونحن لنا العام الجديد مقدر
تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
أراه على أبوابكم يتخطر
ولا ناله فى العالمين مقصر



والدستور عند « حافظ ابراهيم » هو عماد الحياة السياسية وبغيره
لن تقوم للنظام فى مصر قائمة . يقول « حافظ » : (٣)

وان لم يدرك الدستور (مصر) فما لحياتها أبدا قوام

ويستحث « نسيم » الأمة على طلب الدستور وعلى الثبات والصبر
فى سبيله حتى لا تضيع منهم فرصة الدستور فيعيشوا أذلاء مقهورين .
فيقول :

(١) يشير الى الحديث الذى أدلى به عباس الى صحيفة (الطان) ووعده فيه باصدار الدستور .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٣٧ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٥٧ .

فلا تفكوا عرى القربى ولو رجعت
ولا تضيعوا من الدستور فرصته
ان تيأسوا فانتهاه اليأس مسكنة
خير لنا الموت من عيش نكايه
عنكم شغار الظبا مخضوبة بدم
فتقرعوا السن من ذل ومن ندم
او تساموا فاحتمال اللم في السام
مع الهوان اذا كنتم ذوى شمم (١)

ويقول من قصيدة له يخوف الحكام من عاقبة الاستبداد والظلم :

ما كان ضر الظالمين لو انهم صدقوا الاله موافعا وعهودا
ان الملوك اذا استبدوا ، أصبحت أيامهم رهن الحوادث سودا
ورأوا قلوب العالمين حقيبة ملئت ضغائن نحوهم وحقودا
حتى اذا شهر المضيئ حسامه كانت له مهج الجناة غمودا (٢)

وفى نفس المعنى يقول عبد المطلب : (٤)

اذا الملك لم يعط الرعية حثها فغير عجيب أن يهان ويخلعا

★★★

ويمدح « شوقي » رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيشيد
بحكومته التي أقام نظامها على العدل والمساواة والشورى فكانت مثلاً
محتذى لخير المجتمعات في كل عصر فيقول : (٢)

داء الجماعة من ارسطاليس لم يوصف له حتى أتيت دواء
فرسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفء

★★★

-
- (١) ديوان احمد نسيم ، ج ٢ ، ص ٩ .
(٢) ديوان احمد نسيم : ج ٢ ، ص ١٤ .
(٣) ديوان عبد المطلب : ص ١٤٢ .
(٤) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٣٨ .

وفى « العمرية » ، « لحافظ » تمجيد للشورى ، وإيحاء بالحاجة إليها لما تعود به من خير على المجتمع ورفض للاستبداد وحكم الفرد ، لما يجره على الجماعة من شقاء وبلاء . . يقول حافظ :

يا دافعا راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيرا عن محبيها

ثم يقول مشيدا بسياسة سيدنا عمر رضى الله عنه :

وما استبد براى فى حكومته ان الحكومة تفرى مستبديها

راى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف وراى الفرد يشقىها (١)

بهذا الحماس الوطنى للدستور والدعوة الى تقرير العدالة وحق الشعب فى حياة نيابية سليمة تقوم على الشورى لا على الاستبداد وحكم الفرد . شارك الشعر المحافظ فى دعم السيادة الوطنية مشاركة فعالة مستوحيا روح الاسلام فى الدعوة الى الشورى ، والأمر بالعدل ، والنهى عن الظلم والتسلط والاستبداد .

وكانت الوحدة الوطنية والالتحام بين عنصرى الأمة ضرورة يفرضها اعداد الشعب لمواجهة عدو مشترك يسعى لايقاد نار الفتنة بين جناحي الأمة : المسلمون والمسيحيون - ابتغاء السيادة عليهما دون تمييز فى العدوان عليهما بين مسلم ومسيحي .

ولقد طالما حاول المستعمر أن ييث بذور الشقاق والعداوة فى باطن الأمة ويستعنى أقباطها على مسلميها ولكن التربة الأصلية لهذه الأمة تلفظ دائما هذه البذور الخبيثة ، حتى كانت حادثة مقتل « بطرس غالى » سنة ١٩١٠ فاستغلها الاستعمار ، وراح ينفخ روح العداء والكراهية بين الأقباط والمسلمين ، مستعينا فى ذلك بجلاء الفريقين الذين كادوا بجهلهم الأعمى وتعصبهم المذموم يمزقون جسد الأمة ، ويلقون بأنفسهم تحت أقدام الاحتلال ، مما أفزع الوطنيين المخلصين والدعاة الراشدين فهبوا يستدركون بوعيتهم خطأ الجاهلين . وأخذوا يهدثون التأثيرين من الفريقين . وكان للشعراء المحافظين فى هذه القضية صوت مسموع ، فقد ارتفعت أصواتهم بالدعوة الى الوحدة والى التآخى ، والى السلام والوثام والحب والتسامح انطلاقا من دعوة الاسلام الى هذه المعانى ، واستنادا الى التاريخ المشترك الذى عاش فى ظله المسلمون والمسيحيون على كلمة سواء .

(١) ديوان حافظ : ج ١ ص ٩١ .

وقد برز الاتجاه الاسلامى فى هذه الدعوة متمثلا فى الأفكار
الاسلامية التى أقام عليها الشعراء المحافظون دعوتهم الى الوحدة الوطنية .

١ - أن الأديان كلها تدعو الى الاخاء والتسامح والمحبة ، وكل دعوة
لا تقوم على البر والرحمة وحسن العلاقة بين المتدينين فليست من
الدين فى شىء . . . يقول شوقى :

الكتب والرسل والأديان قاطبة خزائن الحكمة الكبرى لواعيتها
محبة الله أصل فى مراشدها وخشية الله أس فى مبانيها
وكل خير يلقى فى أوامرها وكل شىء يوقى فى نواهيها
تسامح النفس معنى من مروءتها بل المروءة فى أسى معانيها (١)

ويقول « اسماعيل صبرى » مذكرا بدعوة الاسلام والمسيحية كليهما
الى الاخاء (٢)

دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمراننا بالأخاء
ثم يطلب الى المسيحيين ألا يطيعوا دعاة الفرقة والفتنة فيقول :

لا تطيعوا منا ومنكم أناسا بلدوا بيتنا بنور الجفاء
أن دين المسيح يأمر بالعز ف وينهى عن خلة الجهلاء
لا يكن بعضنا لبعض عدوا لعن الله مستبجى الدماء

★★★

٢ - أن الأديان انما نزلت لهداية البشر ، ومن فساد الرأى أن نجعلها
بابا للشر أو سببا للعداء فان ذلك ظلم للدين ، وسوء فهم لحقيقته .

يقول « شوقى » من قصيدة له فى رثاء (جورجى زيدان) سنة
١٩١٤ : (٣)

(١) الشوقيات : ج ١ ص ٣٦١

(٢) ديوان اسماعيل صبرى : ص ١٨٠ .

(٣) الشوقيات : ج ٣ ، ص ١٢٥ .

لا تجعلوا الدين باب الشر بينكم . ولا محل مباحة . وادلال
ويقول « محرم » ناعيا على مؤجبي نار الفتنة من الجانبين ، ومبرئا
ساحة الدين من هذا الفساد :

شرعوا العداوة بينهم لم يوصهم دين المسيح بها ولا الاسلام (١)
ويقول في قصيدة أخرى :

لا تظلموا الدين ان الدين يامرنا بما علمتم من الأخلاق والشيم (٢)
ويذم « حافظ » الخلاف بين المسلمين والمسيحيين ويصف مثريه
بعدم الفهم لحقيقة الأديان التي لا تقر هذا السلوك فيقول :

فهموا من الأديان ما لا يرتضى دين ولا يرضى به من يفهم (٣)
ويقول « الكاشف » :

شر الورى من يبغي القرآن لك انجيل والانجيل للقرآن (٤)



٣ - ان الدين كله لله بدءا وانتهاء . فالله تعالى هو الذى يؤتى كل نفس
هداها . يقول الله تعالى : (٥) « ولو شئنا لآتينا كل نفس
هداها » ويقول جل شأنه : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض
كلهم جميعا » (٦) ويقول تعالى : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .
ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا
فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٧) : واذن : الهدى هدى الله ،
ولو شاء الله لهدى الناس جميعا . ولا يزالون مختلفين وهم مع
اختلاف عقائدهم يتجهون بعبادتهم الى الله الذى اليه يرجعون وما دام
الأمر كذلك : من الله الهداية واليه المرجع والمآب - فلا معنى للاختلاف

(١) د - بدوى طبانة : أحمد محرم . فى « خمسة من شعراء الوطنية » ص ٣٧ .

(٢) ديوان أحمد محرم : ج ٢ ، ص ١١٤ .

(٣) ديوان حافظ إبراهيم : ج ١ ، ص ٢٩١ .

(٤) ديوان الكاشف : ج ٢ ، ص ٤٠ .

(٥) سورة السجدة : الآية (١٣) .

(٦) سورة يونس : الآية (٩٩) .

(٧) سورة المائدة : الآية (٤٨) .

حول الدين . أو لا ينبغي أن يكون اختلاف الدين سببا في العداء
وفى هذا يقول شوقي : (١)

الدين لله من شاء الإله هدى لكل نفس هوى فى الدين داعيها
ما كان مختلف الأديان داعية الى اختلاف البرايا أو تعاديها
ويقول من قصيدة أخرى : (٢)

الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما
ويقول : (٣)

والى الله من مشى بصليب فى يديه ومن مشى بهلال
ويقول « محرم » : (٤)

الدين لله العلى وانما دين الحياة تودد ووئام

٤ - والمسلمون يؤمنون بالانجيل كما يؤمنون بالقرآن ، ويؤمنون
« بعيسى » كما يؤمنون « بمحمد » عليهما الصلاة والسلام ، لأن
أصل الدين واحد ، وهو اسلام الوجه لله تعالى . ومن ثم فلا ينبغي
أن تفرقنا الأديان ، ولا أن يكون اختلافها سببا للعداء بين أتباعها .
وفى هذا يقول « محرم » : (٥)

يا أمة الانجيل آمننا به ما بالنبي ولا يسوع جحود
الدين فى أمر ونهى واحد والله جل جلاله المعبود

٥ - وعلى هدى من نور الانجيل والقرآن وعلى أساس من آداب « عيسى »
و « محمد » عليهما الصلاة والسلام . قامت حضارة هذه الأمة
متميزة بخصائصها الروحية المستمدة من تعاليم السماء كما جاء
بها الانجيل والقرآن :

-
- (١) الشوقيات : ج ١ ، ص ٣٦١ .
 - (٢) الشوقيات : ج ٢ ، ص ١٥٥ .
 - (٣) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٣٥ .
 - (٤) ديوان محرم : ج ٢ ، ص ١١٩ .
 - (٥) ديوان محرم : ج ٢ ، ص ١٢٠ .

يقول عبد المطلب : (١)

بنينا على آداب عيسى واحمد منازل عز دونها يقع النسر
فنحن على الانجيل والذكر أمة يؤيدها الانجيل بالحق والذكر

٦ - أن بين المسلمين والمسيحيين عهدا ومواثيق ، ربطت بين قلوبهم على
امتداد التاريخ ، ويجب أن تصان .

يقول « أحمد محرم » : (٢)

يا أمة القبط والأجيال شاهدة بما لنا ولكم من صادق النعم
لا تظلموا الدين . ان الدين يأمرنا بما علمتم من الأخلاق والقيم
صونوا العهد وكونوا أمة عرفت معنى الحياة فلم تصف ولم تهم

ويقول من قصيدة له يذكر الأمة بما كان بين المسلمين والمسيحيين
على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - من وشائج القربى وعلائق الود ،
وينوه بهدية « المقوقس » الى النبي - صلى الله عليه وسلم :

كذب الوشاة وأخطأ اللوام أنتم أولو عهد ونحن كرام
حب تجد الحادثات عهدوه وتزيد في حرمانه الأيام
وصل المقوقس بالنبي حباله فاذا الجبال كأنها أرحام
وجرى عليه خليفة فخليفة وإمام عدل بعده فإمام (٣)

★★★

وأيا ما كان الأمر . فتلك أهم الأفكار الإسلامية التي ارتكز عليها
الشعراء في دعوتهم الى الوحدة الوطنية ، وإلى الأخاء الاجتماعي بين
المسلمين والمسيحيين .

(١) ديوان عبد المطلب ، ص ١٠٦ .

(٢) ديوان محرم : ج ٢ ، ص ١١٤ .

(٣) ديوان أحمد محرم : ج ٢ ، ص ١١٦ .

وقد أدى الشعر المحافظ دوره في هذه المحنة الوطنية فهدأ النفوس وطيب الخواطر ، وآخى بين المسلمين والأقباط ، وحبب اليهم الاتحاد والتسامح وكره اليهم الاختلاف والتعصب ، وذكرهم بأواصر القربى ، وروابط التاريخ .

وبعد :

فثمة ملاحظات عامة حول موقف الشعراء المحافظين من قضية السيادة الوطنية المصرية ينبغي أن أشير إليها في نهاية هذا الفصل :

أولها : أن اتجاه الشعراء المحافظين نحو العمل على تحقيق السيادة الوطنية بالمشاركة في قضايا الحرية والوحدة ، ومقاومة الاستعمار . هو اتجاه اسلامي عام :

بمعنى أن الاسلام - بصفة عامة - يكفل هذه الأهداف النبيلة للشعب ويسعى الى تحقيقها .

ثانيها : ان ما ورد في شعر المحافظين من أفكار تتصل بالاسلام في معالجتهم للقضايا الوطنية هي أفكار صحيحة من الوجهة الاسلامية .

ثالثها : أن الشعراء المحافظين لم يكن لهم خط اسلامي متميز يصدر عنهم في تناولهم - للقضايا الوطنية - أو غيرها - وانما كانت لهم أفكار اسلامية عامة ، ربما كانت أقرب الى الثقافة منها الى العقيدة ومن ثم كانت هذه الأفكار الاسلامية تظهر أحيانا ، وتختفى أحيانا أخرى ، وقد تظهر أفكار لا صلة لها بالاسلام ، وفي شعرهم أمثلة لكل ذلك .

رابعها : أن الشعر المحافظ في مصر قد أدى دوره في معركة النضال الوطني من أجل الحرية والاستقلال . وكان للأداء الفني الذي تميز به الشعر المحافظ أثره في نفوس الجماهير التي استمعت اليه وانفعلت به ورددته في مناسباتها الوطنية لأنه يعبر عنها ويحكي آمالها وأمانيتها .

البَابُ الثَّانِي

الانْتِجَاءُ الْاجْتِمَاعِي



● ويشتمل على فصلين

الفصل الأول :

الحياة الاجتماعية في مصر

تصوير عام

الفصل الثاني :

الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية في مصر : تصوير عام

عن عصر الثورة الفرنسية يقول « شارلز ديكنز » :

« انه كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان ، وكان عهد اليقين
والايمان ، وكان عهد الحيرة والشكوك • كان أوان النور ، وكان أوان
الظلام » (١) •

وهذا الوصف لعصر الثورة الفرنسية يكاد يكون منطبقا على هذه
الفترة التاريخية التي مرت بها مصر فيما بين نهاية القرن التاسع عشر
وبداية القرن العشرين حين كان المجتمع المصري يجتاز برزخا من المتناقضات
والمفارقات بين ما هو قديم وما هو جديد ، بين ما وفتت به المدنية الغربية
من أفكار وتقاليده وما احتفظ به الشرق العثماني من عادات ومعتقدات •

وفي مشرق الطرق وقف المجتمع المصري بين الوافد والموروث
يستجيب تارة لهذا وتارة لذاك ، وقد يستجيب لهما معا : « فترى الرجل
يلبس اللباس الشرقي من عمامة وقباء ، أو طربوش وجلباب ، ويتحدث
في التليفون المصنوع في انجلترا ، ويحمل ساعة مصنوعة في سويسرا ،
وفي البيت سجادة عجمية وحصير بلدي ، وراديو أمريكي ، وفي المجلس
الواحد حديث عن قوة السحر والتعاويذ ، وحديث عن نظرية « دارون » .

(١) عبد الحى دياب : عباس العقاد ناقدا ، ص ٧١ •

فى النشوء والارتقاء ، ونظرية « أينشتاين » فى النسبية وفى الناس من
يمجد كل جديد ويكره كل قديم ، وهكذا وهكذا . والعنصران يعملان فى
كل أمة شرقية وإن اختلف مقدار كل عنصر فى طبقاتها المختلفة . . . (١) .

★★★

هكذا كانت الحياة المصرية فى هذه الفترة تضطرب بين تيارين
أساسيين : جديد طارىء ، وقديم موروث . . .

أما الجديد الطارىء فقد عرفته منذ قوى اتصالها بالغرب عن طريق
البعثات العلمية وغيرها من وسائل الاتصال التى كان الاحتلال البريطانى
أوسع قنواتها ففى ظل هذا الاحتلال كثر اختلاط المصريين بالأجانب فانتقل
الى الشعب كثير من أخلاق الاحتلال وعاداتهم وتقاليدهم ما يحمد منها
وما لا يحمد ، وعملت الحالة النفسية عملها ، فانقاد المغلوب للغالب ،
وتبع الضعيف صاحب السلطة ، واندفع المجتمع فى طريق التقليد لكل
ما هو أجنبى ، مأخوذا بحضارة الغرب ، منبهرا بأضوائها ومادياتها ،
وكان الأتراك هو أول من سلكوا مسلك الأوروبيين وحاكوهم ، ثم تبعهم
المصريون فأخذوا عنهم حياة الترف ، فجلس الأغنياء الى الموائد ،
واستعملوا الشوكة والسكين واستخدموا الأطباق والأكواب ، وأقداح
القهوة (والفناجين) ، واتخذوا الأسرة المزينة ، ووضعوا عليها الكلات ،
لتقيهم شر البعوض ، ولبسوا الجوارب والقفافيز ، وغير ذلك من أنواع
الملابس والأنسجة وأدوات المنزل المختلفة (٢) .

وأخذ المترفون من الأغنياء يتهافتون على ما تخرج المصانع الأوروبية
من وسائل الترف حتى غدت توافه الكماليات من ألزم الضروريات ، وأصبح
قصارى ما يبلغه أحدهم من التملن ، أن يتقن تقليد الأوروبيين فى استعمال
أدوات المائدة الأوروبية ، وأن يحسن حفظ أساليبهم فى استعمال الملابس
والتمييز بين ما ينبغى أن يستعمل منها فى مختلف المناسبات ، وأن يحسن
استقبال النساء والتودد اليهن ، والتلطف فى معاملتهن ، وأن يعود من
سفرته السنوية الى أوروبا حيث يقضى شهور الصيف ليتبجح فى ندوات
الفارغين بمغامراته ويدير لسانه بألوان من الرطانات ثم يرسل أبناءه
وبناته الى المعاهد الأجنبية مباهاة بقدرته على الانفاق ، واثما لما يريد
أن يسبغ على نفسه وعلى بيته من جو أوروبى خالص يظن أنه المقياس الحق
للمدنية الصحيحة وللتقدم والرقى (٣) .

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ص ٣٤٤ .

(٢) راجع : المنار ، ج ٢ ، ص ٥٥٥ .

(٣) د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، ج ٢ ص ١٨٧ .

وبذلك أصبح « المثل الأعلى للمصري في حياته المادية انما هو المثل الأعلى للأوروبي في حياته المادية ، نتخذ من مرافق الحياة وأدواتها ما يتخذون وتتخذ من زينة الحياة ومظاهرها ما يتخذون . نفعل ذلك عن علم به وتعمد له ، أو نفعل ذلك عن غير علم وعلى غير عمد ، ولكننا ماضون فيه على كل حال وليس في الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذي يستمتع به الأوروبيون . . . مدت أوروبا الطرق الحديدية وأسلاك (التلغراف والتليفون) فمددناها ، وجلست أوروبا الى الموائد ، واتخذت ما اتخذت من آنية الطعام وأدواته وألوانه فصنعنا صنيعها ، ثم تجاوزنا ذلك الى ما اصطنع الأوروبيون لأنفسهم من لباس ثم تجاوزنا ذلك الى جميع الأنحاء التي يحيا عليها الأوروبيون فاصطنعناها لأنفسنا غير متخيرين ولا محتاطين ، ولا مميزين ما يحسن منها وما لا يحسن وما يلائم منها وما لا يلائم . . . » (١)

★★★

الى هذا الحد اندفع المجتمع في طريق التقليد للأجنبي ، واختلقت حدة الاندفاع - بطبيعة الحال - من طبقة الى أخرى تبعاً للظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لهذه الطبقة أو تلك . المهم أن المجتمع قد سار في طريق التقليد للحضارة المادية الأوروبية . ولمس آثارها النافعة وأفاد منها في كثير من مناحي حياته وشئون معاشه ولذلك تقبلها في سهولة ويسر . . . ولكن الأهم من ذلك أن هذه الحضارة المادية النافعة لم تكن خيراً خالصاً ، وانما كانت مزيجاً من الخير والشر . فقد حملت هذه الحضارة المادية في ركابها كثيراً من المبازل والمفاسد وألوان الانحراف ، وأصاب الناس من ضررها وخطر نتائجها أكثر مما أصابهم من خيرها ونفعها حتى لقد أثار ذلك اشفاق المصلحين فأخذوا ينبهون الأمة الى أثر هذه المفاسد في قتل العواطف وأمانة الاحساس واستمرار الخطأ ، وانتشار الانحراف وضياع الأخلاق .

فيقول « عبد الله النديم » عن أثر الأوروبيين في افساد أخلاق المصريين وتقاليدهم مما أدى الى انحلال الشخصية وموت الكرامة :

« قالت أوروبا : ان وقوفكم على عاداتكم وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش ، فلا بد من مجاراتنا في حركاتنا المدنية لتساوونا في الرتبة ، وفتحت لنا البير ، والخمارات والمقامر ، وأباحت

(١) ده طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ، ص ٣٢/٣٠ .

الزنا والقمار ، ووسعت دائرة اللهو والخسران ، فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك ، والمجد والشرف وانكب الأغنياء والمغفلون على الخمور فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم ، وفسدت عقائدهم وتحولوا إلى المومسات ، فارتكبوا الأثم بارتكاب المحرم ، والعار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش ، وجعلها عرضة للأجنبي بعدم غيبتهم عليها فهم في رتبة القواد (جمع قواد) بل هم هم ومال فريق إلى القمار ، فباع الغيط والدار ، واضطر لبيع حلي زوجته برضاها أو بسرقة منها ، والكل عطف على المرابين يقترض ويصرف في الملاهى ومتلفات العقل والجسم والملك » (١) .

ويقول « محمد طلعت حرب » (٢) عن أثر الاختلاط بالأجانب في إشاعة الفجور وضياع الآداب :

« لما حصل الاختلاط بيننا وبين الأجانب بتدخلهم في بلادنا بالتجارة والتغلب وبأسفارنا في بلادهم . فسدت أخلاق الرجال والنساء بما دخل من مسمى المدنية الغربية حيث دخل الشرق الكثير من نسائهم البغايا وفتحت المحلات جهارا وتعرضن للشبان والكهول في الطرقات وتزين بأحسن ما يمكنهن وخرجن يعرضن أنفسهن على المارة في الطرقات فاستلبق عقول الشباب ثم جذبن ضعفاء العقول ، وما زال الفساد يترقى من صورة إلى أفضح منها حتى فسدت أخلاق كثير من النساء الشرقيات ، فأخذن نساء الشرق يتجرأن على الخروج من البيوت سرا ، ثم تظاهرن فخرجن جهرا ، ثم تمادين حتى صارت المرأة تترك زوجها ، وتفتح لها محلا في بلده أو خارجه ، وانتهى الأمر بشرب النساء الخمر فزاد التهلك ، وضاعت أعراض كثيرة ، وافتضحت مخدرات ، وذهب مجد بيوت عالية بخروج بعض نسائها لهذا الأمر الشنيع ، ثم ترقى الفجور إلى أن صار النساء يحضرن مجالس اللهو ، ويذهبن إلى التياترات ويشربن الخمور وهن بحضرة رجالهن ، وصار الرجل لا يأمن أخاه على زوجته ، والجار لا يخاف إلا من جاره ، ووقعت الشبهة على كل مار في الطريق ، وأصبح أصحاب الأعراض النقية في حروب شديدة بما يقاسونه من السعى خلف الصيانة والحفظ والخوف من الانحدار في هذا التيار القبيح ، الذي جرف البيوت المقفلة على من فيها فهدم أسوار صيانتها ، وزلزل أركان عفتها ، وترك من كان فيها كاللر في الصلف متبدلا بين الناس معرضا للفساد .. » (٣) .

★ ★ ★

(١) عبد الله النديم : مجلة الاستاذ ، عدد ١٧ يناير ١٨٩٣ .

(٢) محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب ، ص ٩٥/٩٦ .

(٣) محمد طلعت حرب : المرجع السابق ، ص ٩٦ .

وقد عمل الاستعمار على اشاعة ألوان الفجور بين المصريين قصدا
لحل عروة الدين ، وازاحة القيم الاسلامية عن مكان الصدارة في نفوس
الشعب وابتغاء قتل العواطف الزاكية ، وامانة الأحاسيس النبيلة ، حتى
تستمرى النفوس المهانة فيمضى الدخلاء الى أهدافهم آمنين غيرة القيم وحمية
الدين لأن الفحشاء تقتل العواطف وشيوعها يميمت الاحساس . ومن ثم
كانت « آلة الدخلاء التي يستعينون بها على نيل مقاصدهم من الأمة هي
اعدام العواطف ، ونزع الحاسيات من القلوب ، وهذه الآلة من أقوى
العوامل على حط الأمة من علوة مكانتها وغارب مجدها ، اذ بواسطتها يسرى
فى القلوب والأرواح سم تسامح الحكومة فى انشاء معاهد الفساد ومدافن
العواطف وقبور المستقبل كقهاوى الرقص والغناء وغيرها من الأماكن
العمومية التي يحكم الطبع السليم بشناعة ما يمر فيها من الحوادث » (١) .

وقد أظهرت التجارب للمستعمر أن أكثر الوسائط تأثيرا وفعلا هو
ما كانت نتيجته الانحدار مع تيار الأخلاق الفاسدة والوقوع فى مهواة
الجهل والخمول كالتهاون فى انشاء الأماكن العمومية التي تمثل فيها أدوار
الفجور والفسق برقص العاهرات ، وحركاتهم الفاحشة التي تجفل من
الاقبال على مشاهدتها الجبلات الطاهرة والنفوس الزكية » (٢) .

وكان جيل الشباب أكثر استجابة لمغريات الحضارة الأوروبية ،
فاندفع فى تيارها مأخوذا ببريقها مفتونا بما تيسره له من ارضاء النزوات
وارواء الغرائز وراح يحذو حذو الأجانب فى مجونهم واستهتارهم وترفهم
وتأنقهم فى الملبس والزينة وتخنثهم وتأنثهم . وفى هذا يقول « محمد
كرد على » (٣) يصف تخنث الشباب بدعوى التمدن : « شبابنا يتأنقون
فى الزينة فيصففون شعورهم ويخففون خدودهم ، ويفتلون سبلاتهم ،
وينغمون بأصواتهم ، وربما مزجوا كلامهم ببعض الألفاظ الأفرنجية ،
ويختارون من الألبسة آخر زى : من صدره ملونة محزمة صنعت من
القطيفة المزركشة ، ومسترة مشقوقة ، وسراويل ضيقة وخاتم ماس فى
اليد ، وعصا عقافتها من الذهب ، وحذاء ملون ملمع ، وطربوش مقرون
مكوى ، وبالجملية كل ما فيه ظاهر مموه . . وناهيك بأن من شبابنا من
يصرفون ساعتين كل يوم فى التبرج كأنهن بعض النساء يتزين لبعولتهن ،
وهذا مما يسجل علينا ضعف النظر فيما اقتبسناه من عادات الغربيين » .



- (١) د . حلمى مرزوق : تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر ، ص ٢٧ ،
نقلا عن : محمد مسعود : لباب الآداب ، ص ١٢٦ .
- (٢) المرجع السابق : ص ١٢٤ .
- (٣) محمد كرد على : « القديم والحديث » مقال : « التمدن الاثنوى » ص ٢٨٣ .

ومضى الشباب - الا قليلا منهم - يتبع الآثار السيئة للحضارة الغرب الوافدة يدفعه الى ذلك جهله بدينه ، وحبسه للتقليد ، ومعاصرته للأجانب المنبئين في أرجاء البلاد . فشرب الخمر حتى سكر ، ولعب القمار حتى افتقر فخربت بيوت كثيرين وأمسى غيرهم على شفا الافلاس وامتدت العدوى الى كل طبقات الناس (١) .

يقول صاحب كتاب « حاضر المصريين أو سر تأخرهم » : (٢)

« ومن الآفات العظيمة أيضا انصراف الأمة الى المسكر واندفاعها في الشرب وتعاطي الخمر حتى أصبح السكر زينة الفتيان ، والحانات أعز مقاعد الشبان ، والمصري يميل الى الافراط في كل شيء سبق غيره في ميدان الخمر فلم يبق مالا ولا ترك صحة ، وجهله لدينه وتقليده للأجنبي فيما يضر ولا ينفع أسباب مكنت فيه حب الميل الى الخمر . . ومعاصرة الافرنج المبعوثين في أطراف البلاد شرقا وغربا ساعد على انتشار الخمر بما لهم من طرق الخداع والحيل حتى اعتاد أغلب الفئة الوسطى من الأمة على شرب « المستكى » ظهرا ، و « البيرة » عصرا ، و « الكنيك » مساء فتراهم جماعات في الحانات عاكفين على شربها لتمسكهم بأهداب مخازي التمدن والحضارة الغربية » .

تلك بعض الآثار السيئة للحضارة الوافدة وللأجانب الذين أخذوا في ظل حماية الاحتلال يتصدرون المجتمع ويزاحمون طبقاته العليا حتى أصبحت لهم مكانتهم في قمة التنظيم الاجتماعي ، وأخذوا منها يبتئون قيمهم فيمن حولهم من المصريين (٣) .



وكان من أخطر آثار المدنية الوافدة أنها زعزعت ثقة الكثيرين من المصريين في أنفسهم وفي قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم . حتى لقد وقر في النفوس أن كل ما يفعله الأوروبي حسن ، وأن كل ما ورثناه من عادات هو من بقايا الهمجية ومن مخلقات عصور البلادة والخمول ، وكان من مظاهر هذا الوهم الذي استبد بالناس وبلغ حد المرض أن أصبح جهل

(١) محمد سيد كيلاني : قوام القاهرة ، ص ٢٩ .

(٢) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، ص ١٩٣/١٩٢ .

(٣) د. حلمي مرزوق : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

الواحد منهم بما تواضع عليه الأوروبيون من آداب الاجتماع التي يسمونها (الاتيكييت) يعتبر ضربا من سوء الأدب والانحطاط الذي يخرج صاحبه ويخجله بين الناس وأصبح الذين يجاهرون بالافتطار في رمضان ، والذين يشربون الخمر على قارعة الطريق ، والذين لا يستحون من جهلهم بقواعد دينهم وقواعد لغتهم وتاريخ وطنهم ، يتصيب وجه أحدهم عرقا لأنه أساء استعمال أدوات المائدة الأوروبية أو لأنه أخطأ في اختيار الثوب الذي يوافق المناسبة حسب ما تواضع عليه الغربيون ، (١) .

ويبدو أن المجتمع المصري في هذه الفترة كان مهينا من الناحية النفسية لتقبل ما يملى عليه من أفكار وعادات دون نظر أو روية . ذلك لأن ما توالى عليه من عهود الاستبداد وألوان التسلط قد أورثه قبول الذل وطبع حياته بطابع الخضوع فألف الواقع ، وأخلد الى الراحة والاستسلام والتواكل ، وشاعت بين طبقات الشعب تعبيرات تعارفوا عليها لتسويغ كسلهم وتواكلهم ، وفشلهم فيما يقومون به من أعمال من مثل قولهم : « ماذا أصنع ؟ » ، « ما باليد حيلة » ، « لعل .. لو (٢) كذلك افتقد المصريون كثيرا من شجاعتهم الأدبية ، وقيمهم الخلقية ، فشاع بينهم الجبن والصغار ، والرياء والنفاق حتى غلبا النجاح لدى الكثيرين مرهونا « باجادتهم للملق والدهان ، والرياء والنفاق ، والضعف .. والمكر والتطفل ، وارتقاب الفرص الوضيعة ، واتخاذ كل وسيلة مهما كانت دنيئة لاكتساب ثقة الناس وإظهار الحاجة اليهم ، والتذلل لهم ، والتهافت عليهم وإخفاء مقابحهم مهما عظمت ، أو إظهارها في مظاهر المحامد والفضائل ، (٣) وفي ظل هذا الصغار والضعف تنمرا لأجنبي وتناول واستعلى بما ملك يده من مظاهر الحضارة والمدنية مطمئنا الى سلطة الاحتلال ، وامتيازات الأجانب من ناحية والى بلادة الرأي العام واستخذائه من ناحية أخرى .

★★★

ومهما يكن من أمر . فقد شكلت هذه المفاصد الخلقية مع غيرها من مخازى المدنية وآثارها السيئة جزءا كبيرا من سلوك المجتمع المصري في هذه الفترة .

وقد صور الشعر المحافظ في مصر جانبا من هذه المفاصد الخلقية والآفات الاجتماعية التي زحفت إلينا في ركاب الغرب أو بوحى منه وتحت

(١) د. محمد محمد حسين : المرجع السابق ، ج ، ص ١٩١ .

(٢) عباس العقاد : خلاصة اليومية .. ص ٦٤ .

(٣) عبد الحى دياب : عباس العقاد ناقدا ص ٦٩ . نقلا عن : اعترافات شكري

تأثيره وانتقلها في سخرية لازعة ومن هذه الآفات الاجتماعية التي صورها الشعر المحافظ : آفة التخنث التي اجتاحت الشباب في مصر فأفسدت أخلاقهم وشوهت طبيعتهم . وقد أثارت هذه الآفة غضب « الرافعي » فأنهى باللائمة على التمدن الأنثوي ونعى على الشباب تدللهم ، ومجونهم ، وانغماسهم في اللهو والزينة وإخلادهم إلى الراحة والكسل ، وانصرافهم عن ماجد الأعمال ، وسوء فهمهم لحقيقة التمدن ، وانخداعهم ببريق الحضارة الزائف ، واصطناعهم لمظاهر النبيل الكاذب . فقال :

أرى فئة كالفانيات تدللا	تميل مع الأهواء كل ميل
تخال الفتى منهم على ظلمة النهى	لألوان ثوبية سما أصيل
ملول كما شاء الهوى واقتداؤه	بمن حوله من خلة وخليل
وما مجد الأعمال يوما وانما	ليستحسنوا فيه دلال ملول
وظن الفتى أن التمدن أنثوى	فتابع فيه كل ذات خليل
تماجن في أشكالها من مصبغ	إلى كل مجلو وكل صقيل
إلى اللفظ حتى ما تكاد شفاهه	تبين بلفظ منه غير نحيل
إلى اللحظ حتى ما تكاد جفونه	تطارح لحظا منه غير عليل
دلال جميل بالجمال مهنا	فأه عليه من دلال جميل
أولئك هم شبابنا لو عرفتهم	وهم كل من في مصر غير قليل
مظاهر نبيل نافقوا في اصطناعها	الأقبح من صنعة لنيل (١)

ويقول من قصيدة له تحت عنوان (شبان اليوم) يصف الشباب بالتطري والخلاعة والتشبه بالنساء :

فيا لله أي فتى أراه	كما انعطفت بشاربها الخمر
كأن قوامه أغصان بان	تفتح فوق عروته الزهور
كأن ثيابه شلت عليه	كما لبست من الريش الطيور
فتحسب قدمه فيهن خصر	وتحسن في المشادات الخصور
كأن الحل يبرق في يديه	لتكمد في تلالئه النحور
ألا ابقوا الحجاب على الفواني	قد اشتبه الحمام والصقور (٢)

(١) المؤيد سنة ١٩٠٨ . وراجع : محمد كرد علي : القديم والحديث ص ٢٨٣ .

مقال « التمدن الأنثوي » .

(٢) ديوان الرافعي : ج ٢ ، ص ٣٩ .

ويقول فى أخرى يتعجب من تشبه الرجال بالنساء فى هذا
العصر : (١)

تساووا فهذا بينهم مثل هذه وسيان معنى يافع وكعاب
وما عجبى أن النساء ترجلت ولكن تأنيث الرجال عجاب
رجال غير أن لهم وجوها أحق بها لعمرهم النقاب

ويكى « النشار » فساد الزمان وانصراف الناس الى حياة اللهو
تحت شعار التمدن فيقول :

فسد الزمان وأهلــه يا رب نسألك السلامــه
هذا تمدين معشر جعلوا الفجور له علامــه
من كل مياس القــوا م له على الخدين شامــه
يهتز أعجابا كمــا هزت معاطفها الحماــه
يأتى الصباح ولم يدع فى غير زينته اهتماــه
ويطل فى المرأة هل فى الحسن قد وفى نظامه
ويظل ينظر خلفه حيناً وآونة أمامه (٢)

ومن المفاصد الخلقية التى صورها الشعر فى هذه الفترة : تبرج
النساء ، وابداء زينتهن بما لا يتفق وخلق الوقار ، وأدب الشريعة . على
نحو ما يقول « عبد المطلب » يصف تبذل المرأة واستهتارها وتبرجها :

ما لابنة الخدر المصــــــــــــــــو ن ورببة المجد الاثيل
أودى شفيف نقــــــــــــــــابها بكرامة الام البتــــــــــــــــول
وانجاب جيب قميصها عن وصمة الشيخ البجيل
وعلا رنين حجولها أسفا على الذيل الطويل

(١) ديوان الرافعى : ج ٢ ص ٤٦ .

(٢) ديوان النشار : ج ٣ ، ص ٣٤ .

(*) البيتان الاولان من بحر الطويل ، والثالث من بحر الوافر .

فاذا مشيت هناك النقا
وجلا المقور تحته
تهتز عجباً يا للقوا
في خيلع خلع الوقا
ولقد ينم عبرها
يسرى فتعترك الصبا
ترتاد خائنة العيسو

ب محاسن الوجه الجميل
رخصاً من الصدر الصقيل
م اللين والخصر النحيل
ر فيان عن زند فتيل (١)
فتحسه من نحو ميل
سبقا اليه مع الشمول (٢)
ن بلحظ فائنة قتول (٣)

★★★

ويصف الشيخ « حسن الغاياتي » تبرج النساء وقد خرجن الى الأسواق والأماكن العامة سافرات متبرجات يبدن زينتهن للعيون فيقول من قصيدة له :

فداؤك يا (احسان) كل دمية
وينهد منها كلما هبت الصبا
وتهدى جميع الناس نظرة وامق
لها حاجب لم يبدع الحسن نونه
ووجهه هو المرأة غطى بياضه
ثنى قبجها عنها العيون فنبهت
جفا اللين عطفها فحاكت تكسرا
شرت حسنها زورا وراحت غيبنة

تروح بغد بالطلاء دهسين
رزين من الأكفال غير رزين
أكل بنى حواء شخص مكين
فجادت عليه الصابغات بنون
على أسود خلف البياض كنين
بوسواس حلى فوقها ورنين
تلوى مجلود الجنوب مهين
ولا يتثنى بالزور غير غبين

ثم يتجه بالنصيحة الى أبناء مصر فيحذره من مغبة هذا السلوك المهين فيقول :

بنى مصر أوليكم نصيحة مخلص
حذار حذار أن تصاد ظباؤكم
أما ساءكم أن تبصروا خصر عاتق
غدت لا غدت والعرض كالماء طاهر

أمين من النصائح غير خؤون
فيرتد ذاك الحسن غير مصون
نسيبه قوم في ذراع هجين
ثمين وراحت وهو غير ثمين

(١) الخيلع : قميص لا كمي له .
(٢) الشمول : ريح الشمال .
(٣) ديوان عبد المطلب : ص ١٨٤ .

الى أن يقول :

جدير بكم أن تتبعوا الدين انه قمين بمسح الماء أى قمين (١)

★★★

كذلك صور الشعر المحافظ آفة القمار التي انتشرت بين المصريين
فخربت بيوتهم وأورثتهم حياة البؤس والمهانة وفي ذلك يقول شوقي :

ضربت بالمضارين الطبول	حيث كل بأمره مشغول
كل يوم يمضى غنى وجهه	وعلى أثره سرى جليل
ويبيع الأثاث من ليس بالث	رى ولكن حدا به التطفيل
كان من ثروة قليل	بعد عام يزول ذاك القليل
ذهب النقد والعقار جميعا	يا سراة البلاد أين العقول ؟
ليس بين الغنى والفقر الا	قوله الشؤم من وسيط يقول (٢)

★★★

ويلتفت « حافظ ابراهيم » الى هذه العادة السيئة وقد استشرت بين
الكثيرين من أفراد المجتمع فيهب بالشعب أن يبتعد عنها لأنها وبال على
أصحابها الذين يلهيهم المكسب كما يتصورون ، ولكنهم لا يقبضون
الا الوهم (٣) فيقول :

مضاربات هى المنايا	ورسلها أحرف البروق
صباح أصحابها الرزايا	ومالهم دونها غبوق
قد آتلفت أنفس البرايا	بأسهم الفلد والعقوق

(١) ديوان حسن الغياثى : ج ١ ، ص ٥ .

(٢) محمد سيد كيلانى : ترام القاهرة ، ص ٢٩ .

(٣) د. محمد عويس محمد : الواقع الاجتماعى فى شعر حافظ وشوقي : مقال

بمجلة فصول المجلد الثالث ص ٢٥٤ سنة ١٩٨٢ .

كم بالة سبيت وبالا واشبهت لامع السرابا
وبذرة أنبتت خبالا وأثمرت عاجل الخراب
وكم غنى أضاع مالا وشباب من موقف الحساب

★★★

فليتغظ منكم البعيد وليتق الله ذو الثراء
فذلك التاجر الشهيد قد عاف من أجلها البقاء (١)

★★★

ويقول « المصرى » يصف لعب القمار والميسر ، وما يجره على صاحبه
من حزن وندامة وما يؤدي اليه من فقر قد تهون تحت وطأته الأعراض : (٢)

ميلان أحزان وجند ندامة وحياد خسران تغيب وتحضر
ما زال يبتذل اللهى (٣) وب نفسه لو أنها ردت اليه فيقتر
حتى اذا صفرت يداه وجيبه رهنه حلاه وداره والمزور
ورأوه لم يملك من الدنيا سوى عرض اذا هو باعه لم يشتروا
والعرض تجعله البطون تجارة تشرى فتربح أو تباع فتخسر

ثم يصف حال صبيته وقد بكوا من شدة الجوع ، وألحوا فى طلب
الطعام ، وأنحوا باللائمة على أبيهم الذى جنى عليهم بما فعل فيقول :

وجرت حوالية ملامع صبية لا الصبر يشبعها ولا هى تصبر
الجوع يخفت صوتها ان أوشكت تدعو : أبى . أمى . ألا من يعذر ؟
قوما أطرقا باب التسول واجلدا سبحان جبار يعز ويقهر
(هذا جناه أبى على) وقلمما يجنى الكبير على الصغير ويكبر

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) ديوان المصرى : ج ٢ ، ص ١١ .

(٣) اللحية : الحفنة من المال أو الألف من الدنانير أو الدراهم .

ثم يتوجه باللوم الى المقامر فيقول :

أغرقت في استغفار ربك فاذكر عصيان ربك أيها المستغفر
وأضعت دين الله اصغارا له فأضاعك الدين الذي لا يصغر
فأنزل بقبر الفقر غير مودع فالفقر مقبرة بناها الميسر (١)

★★★

ويحكى « النشار » قصة « قتيل الميسر » (٢) الذي انتهت حياته
بالانتحار بعد أن يئس من العيش ، وضاعت به أسباب الحياة التي
ضيعها بين الكأس والميسر ، فنفد ماله ، وانفض عنه أهله وذووه . فلما
أدركه الندم ، رأى نفسه جديرا بالعدم . فيقول بعد أبيات يصف فيها
رفاق السوء وقد زينوا له الفساد حتى أوغل فيه :

خسر الآلاف من بعد المئات وأبادت ماله أيدي الشتات
فصحوا المخمور من طول السبات مدبرا في اثر حظ مدبر

★★★

كل يوم في خسارة وتباب عيشه المر عذاب في عذاب
قامر المسكين حتى بالثياب وبدا نضوا زرى المنظر

★★★

صد عنه الأهل واستغنى الرفاق انما الدنيا نفاق في نفاق
والفتى ان عاش عيشا لا يطاق فهو فيه ميت لم يقبر

★★★

قال لا ان رأى الأمر احتدم وتولاه ما يغنى الندم
أنا والله جدير بالعدم وعثرته جنحة المنتحر

★★★

رن صوت الطلق في سمع النيام وانتقى عنهم به صفو المنام
وتنادوا تحت أذيال الظلام انظروا : هذا قتيل الميسر

★★★

(١) ديوان المصرى : ج ٢ ، ص ١١ .

(٢) ديوان النشار : ج ٣ ، ص ١٦ .

وكانت الخمر والمسكرات بعض ما شاع فى هذا العصر من المفاسد
التي رأى فيها بعض ضعاف العقول والدين مظهرا من مظاهر المدنية .
فحكفوا عليها حتى امتلأت بهم الحانات وفاضت بهم أماكن السكر
والتسكع .

وقد وقف الشعر المحافظ من هذه الآفة موقف الذم والانكار .
فقبحها وعدد مساوئها . يريد صرف الناس عنها لما لها من آثار سيئة
ون نتائج خطيرة ومن ذلك ما يقوله « الرافعى » يذم الخمر ، ويبين سوء
أثرها على العقل والارادة والصحة والمال :

بين الكؤوس وبين الأعين النجل	سوق لبيع الهوى والموت والعلل
نقودها قبل، ان شئت من ذهب الكا	سات فى الفم أو من فضة الغزل
اما ترون فلا عقل ولا جلد	صوت الجفون رنين الكاسات والقبل
اليوم تنعق فى الاطلال مندرة	بالشؤم . والخمر فيهم بومة الأجل
والخمر من حيل الفقر المذل فهل	أذل ممن يريد الفقر بالحيل (١)

★★★

ويعدد « النشار » مساوىء الخمر فى قصيدة له بعنوان « أريقى
الكأس » (٢) فيقول مخاطبا امرأة تغريه بكأس من الخمر :

أريقى الكاس لا تدنيه منى	فلست أظنه الا حماما
أرضى جنسة . فأبيع عقلى	لأشترى الطلا جاما فجاما ؟
وابدل درهمى ونفيس مالى	لأكتسب المذلة والاماما
وأمشى فى الطريق ومن ورائى	أرى الصبيان تزدهم ازدهاما
فيضحك حين يبصرنى علوى	ويلدف ذو الوفا ، دما سجاما

★★★

ولم تكن هذه الآفات الاجتماعية هى كل ما شاع فى المجتمع المصرى
بتأثير الأجانب وتحت رعاية الاحتلال . بل كانت هناك آفات اجتماعية
أخرى ، كان الاحتلال عاملا فيها ، ومن هذه الآفات : آفة التواكل والكسل ،
واختلاف الآراء وتشعب الأهواء والأنانية ، وتقديم المنافع الشخصية
والمصالح النوية على مصالح الآخرين .

(١) ديوان الرافعى : ج ٣ ، ص ٢٣ .

(٢) ديوان النشار : ج ٣ ، ص ٧٥ .

ذلك الى جانب الكذب والادعاء والنفاق وغير ذلك من أخلاق الاحتلال
وآثار الاستبداد والتسلط التي أورثت المجتمع كثيرا من ألوان الصغار
والضعة ، والتي حاول المصلحون جاهدين ازالة آثارها . وكان للشعر
المحافظ دوره الايجابي في استئصال كثير من هذه الآفات الخلقية عن طريق
النقد الاجتماعي ومواجهة الفساد في علانية تكشف زيفه وتشل فاعليته
وانتشاره .

استمع الى « الرافعي » يحذر من آفة الكسل والتواكل ، ويسخر
من جهل الكسالى والمتواكلين :

هلم الشعوب صوامع الكسل عمرت وما برحوا من النساك
متواكلين وكل أمرهم ان الأ مر بين الله والأمالك (١)

ثم استمع الى « حافظ ابراهيم » ينعى على الشعب تواكله حتى
زاحمه الأجانب في رزقه لأنهم وجدوا في رحاب كسله وتواكله مكانا للعمل
وللرزق فضاقت الحياة بالشعب :

أرى شعبا بملرجة العوادي تمنخ عظمه داء عقام
اذا ما مر بالبأساء عمام اطل عليه بالبأساء عمام
سرى داء التواكل فيه حتى تخطف رزقه ذاك الزحام (٢)

أما عن تمزق المجتمع وتشعب أهوائه فتلك صورته كما يرسمها
« حافظ » اذ يقول :

وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب في ورده الأعرب
وهذا يصيح من الصائحين على غير قصد ولا مأرب (٣)

(١) ديوان الرافعي : ج ٣ ، ص ٢٠ .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٥٧ .

وتلك صورة أخرى يرسمها « أحمد محرم » للمجتمع المصرى فى ذلك العهد وقد تمكنت منه الأناية وشاع بين أفراد حب الذات ، وكثرت فيه المساوىء .

فيقول :

أكل امرئ فى مصر يسعى لنفسه	ويطلب أسباب الحياة لذاته
طروب الأمانى ما يبالى بشعبه	وان ملا الدنيا ضجيج نغاته
يرى نفسه فوق الملائك عفة	وقد ضجت الجنان من فتكاته
اذا نال ما يرجوه لم يعنه امرؤ	سواه ولم يحفل بطول شكاته
يظل كأن الحق يتبع خطوه	اذا سار يبغي الغنم فوق رفاته
سواء عليه منزل السخط والرضا	اذا نال ما يرضيه من شهواته
يرى الدين والدنيا ثراء يصيبه	وقصرا تذل العين عن شرفاته
يفوق الصلاب الصم ان سيم نائلا	ويعتد لج البحر من حسناته
ويجهل ما يلدى الصبى ، ويسعى	من العلم ما ينسيك ذكر ثقافته
ويأتيك بالأخبار يزعم أنها	بقية وحى . وهى من نزعاته
ويحلف ما داجى ولا خان صاحباً	وقد عب سيل الغدر فى لحظاته
لعمرى لقد مارست دهرى واهله	فأربت مساويهم على تكباته (١)

ويعرض « حافظ إبراهيم » لبعض مظاهر الفساد الاجتماعى التى شاعت فى مصر فى هذه الفترة فيقول :

كم عالم مد العلوم حباثلا	لوقيعة وقطيعة وفراق
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه	لكيدة أو مستحل طلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة	كالبرج لكن فوق تل نفاق
وطبيب قوم قد احل لطفه	ما لا تحل شريعة الخلاق
قتل الاجنة فى البطون وتارة	جمع اللوانق من دم مهراق
أغلى وأثمن من تجارب علمه	يوم الفخار تجارب الحلاق

(١) ديوان محرم : ج ٢ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

ومهندس للنيل بات بكفه	مفتاح رزق العامل المطراق
تندى وتيس للخلائق كفه	بالاء طوع الأصفر البراق
لا شيء يلوى من هواه فحده	فى السلب حد الخائن السراق
وأديب قوم تستحق يمينه	قطع الأنامل أو لظى الاحراق
يلهو ويلعب بالعقول بيانه	فكأنه فى السحر رقية راق
فى كفه قلم يمج لعابه	سما وينفشه على الأوراق
يرد الحقائق وهى بيض نصع	قدسية علوية الاشراق
فيردها سودا على جنباتها	من ظلمة التمويه ألف نطاق
عريت عن الحق المطهر نفسه	فحياته ثقل على الأعناق (١)

★★★

الى هذا الحد ساءت أخلاق كثير من المصريين وفسدت طباعهم وشاعت
بينهم الرذائل والبلايا ، فانصرفوا الى اللهو واللعب والى طلب الألقاب أو
الرتب غير مبالين بما يقع على الوطن من بلاء . على نحو ما يقول « حافظ
ابراهيم » :

أمة قذفت فى ساعدها	بغضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العلا	وتفدى بالنفوس الرثبا
وهى والأحداث تستهدفها	تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بها	أم بها صرف الليالى لعبا (٢)

واذن : فلم تكن الحضارة الغربية خيرا خالصا وانما كانت مزيجاً
من الخير والشر . . ثم ان الجهل ، والاحتلال ، والشعور بالنقص من

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ص ١ ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٧ .

جانب المصريين . . كل ذلك قد عمل عمله في تنمية عناصر الشر والفساد في هذه الحضارة . وكان لذلك أثره في تشكيل السلوك الاجتماعي للمصريين في هذه الفترة .

وبينما كانت الحياة المصرية تموج بتيار الحضارة الأوروبية وتتأثر المفاصد أو المزايا بما في هذه الحضارة من ماديات ومعنويات ، كانت بقايا الجهل والجمود والتخلف الفكري لا تزال تخيم على عقول كثير من المصريين ، وترسم جزءا من ملامح الصورة العامة للمجتمع المصري في هذه الفترة . فقد شاعت البدع وانتشرت الخرافات وظهر السجالون يحملون في أعناقهم التماثم والتعاويد ، والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويزينون لهم التمسح بالأضرحة والمزارات والتوسل بأصحابها ، والاعتقاد في قدرتهم على قضاء الحاجات ، ويخدعون السذج بالأحجية وأنواعها ، والاحراز لدفع العين على اختلاف أشكالها ، والتعاويد لشفاء الأمراض ، وجلب الأزواج ، وبث العداء واسترضاء النافر ، وتحنين القلوب ، ويضللونهم بالسحر والطوالع والتنجيم (١) وغير ذلك من صور الجهل كالاعتقاد في مشايخ الطرق والسجادة والخوف من السد والاستشفاء بالزوار ، والاعتقاد في ساعات النحس وساعات الوفق ، والاحتجاج بالقدر ، واتخاذة مشبطا للعزائم . .

كانت هذه الأباطيل تأخذ مكانها في السلوك الاجتماعي . وتشكل جانبا من تقاليد المجتمع المصري ومعتقداته الشائعة في هذه الفترة .

وكانت ازاحة هذه الأباطيل جزءا من رسالة الإصلاح الاجتماعي التي اضطلع بها زعماء النهضة الإسلامية في العصر الحديث .

وقد تناول الشعراء المحافظون بعض هذه الأباطيل بأسلوب ساخر ، ونقد لاذع واستنكار صريح . مشاركين بذلك في تنقية الاسلام مما ليس منه ، ومؤكدين رسالة الشعر في الدعوة الى الإصلاح الديني والاجتماعي .

فيقول « حافظ ابراهيم » في قصيدة له « الى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده » (٢) مشيرا الى انغماس الناس في ضلالات الخرافات . داعيا « الإمام » الى محاربتها :

امام الهدى انى ارى القوم ابدعوا لهم بدعا عنها الشريعة تعزف

(١) راجع أحمد أمين : فيض الخاطر ، ج ٣ ، ص ٧١ ، مقال (التخريف) .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٢ .

راوا فى قبور الميتين حياتهم فقاموا الى تلك القبور وطوفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم « على صنم للجاهلية عكف »
فأشرق على تلك النفوس لعلها ترق اذا أشرقت فيها وتلطف

★★★

وفى سخرية لاذعة يغبط حافظ الأموات النائمين فى الحفر الذين
يجرى حولهم بحر النور بينما الأحياء لا يجدون ما ينفقون ، ولا يرزقون
كما يرزق الأموات فيقول :

أحيائنا لا يرزقون بدهم وبألف ألف ترزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الانام لها ، ويجرى حولها بحر النور ، وتقرأ الآيات
ويقال : هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى بها الحاجات (١)

ويشرح « حافظ » هذا المعنى السابق فيقول :

« .. وأسعد من هذا الحى ميت يسخر له الله من يبنى على قبره
قبة عالية ثم يدعو الناس الى التبرك بتلك العظام البالية فتجى سعادته
فى مماته على قدر شقائه فى حياته ، وتطير بذكر كراماته الأنبياء ، وتحسده
على تلك النعمة الأحياء » (٢) .

★★★

ويندد « الغاياتى » بأولئك الذين يتخذون من أضرحة الأوليات
مزارات لهم يحجون اليها ، ويتبركون بها ، ويتذللون فى طلب قضاء
حوائجهم من ساكنيها اعتقادا منهم فى سلطان الأوليات وقدرتهم على قضاء
الحاجات ، وغير ذلك مما ليس من الاسلام فى شىء فيقول :

يا قوم ان أولئك العلماء قد جعلوا الشريعة سلما للمطمع (٣)

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٣١٨ .

(٢) حافظ ابراهيم : ليال سطيع ، ص ٤٢ .

(٣) ديوان وطنيتى : للغاياتى ، ص ١٣٩ .

ويصور « الكاشف » استغلال مشايخ الطرق لجهل الناس الذين
يظنون بهم القدرة على كل شيء فيقول : (١) .

ومريد لشيخه ناذر عجب —	لا سمينا به اليه تقرب
كلما قدم الطعام له كب —	ر مستبشرا به وتادب
وسطا اللص في الدجى فتلقا —	ه ابنه فأنثنى وما نال مأرب
ودرى الوالد الجهول بما كا —	ن فأنثنى على الولي وأظنب
قائلا : انى رأيت مغيثى —	فى منامى على جواد أشهب
حارسا منزلى يرد مغيرا —	بالحسام المنصور فى كل مضرب
فأهان ابنه بنسبته الفض —	ل الى شيخه البعيد وأغضب
فناى عنه تاركا بل مبيحا —	داره بعده لمن يتوثب
واتى اللص ثانيا ومضى با —	عجل لا يتقى خفيرا ويرهب
ثم هب المريد لا يجد العج —	ل وعاد ابنه اليه وأنب
قدعا أهله وقال لهم ما —	أخذ العجل غير شيخى المحب
فلقد خاف أن يفاجئنا الا —	س فلم يرض أن نهان ونسلب
وارانيه وهو يأكل فى مر —	عاه فى صادق المنام ويشرب

★★★

ويقول فى تصوير نفاق الذين يدعون الولاية من المشعوذين : (٢)

هاجه الوجد فما لا	يذكر الله تعالى
مرغيا كالجهل المص —	عب اذ حل عقالا
قلت هل تبغى بهذا الا —	رقص بالله اتصالا
قال هذا خيرا ما ارتا —	ض به الراجى كمالا
تترك النفس به لا —	جسم اغلالا ثقالا
فهوى ديناره من —	ه وقد تاه اختيالا
ورآه أحد القو —	م فأخفاه احتيالا

(١) ديوان الكاشف : ج ١ ، ص ٨٠ .

(٢) ديوان الكاشف : ج ١ ، ص ٨١ .

وأحس الشيخ بالحيا دث فاعتل اعتلالا
ودعا بالفوئ حتى آتعب القلب ابتهاالا
قلت يا هذا أيبكى زاهد مثاك مالا ؟
فتجرد من دعاو مكنت منك الخبالا
انما نفسك من جد مك لا ترضى انتقالا

★★★

وليس من شك فى أن رفض الشعراء المحافظين لهذه البدع والخرافات وإعلان الثورة عليها ، وتبرئة ساحة الدين منها • ورمى أصحابها بالجهل والنفاق واستغلال العامة ••• انما كان صدى للقفزة الفكرية التى أحدثتها دعوات الإصلاح فى العالم الإسلامى • كدعوة الامام محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩١) فى شبه الجزيرة العربية فيما بين عامى ١٧٤٠ - ١٧٩١ • تلك الدعوة التى كانت حربا على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد • فلا توسل ولا استشفاع ولا احتفاء بزيارة قبور ، ولا تقديس للأولياء ، ولا اجتماع لقراءة مولد ولا شيء مما يدعيه أهل البدع والخرافات مما ليس من الإسلام (١) • وقد سرت هذه الدعوة الى مصر فنبهت الأذهان الى خطأ هذه المعتقدات •

وكذلك كانت دعوة السيدى : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده - بعد ذلك - تجديدا للدعوة الوهابية فى ضرورة العودة بالإسلام الى نقاوته الأولى ، ومحاربة البدع والخرافات وما دخل على العقيدة الإسلامية من فساد باشرأك الأولياء والقبور والأضرحة مع الله تعالى (٢) •

وقد كان لهذه الدعوات أثرها فى تنبيه الوعى الإسلامى وإيقاظ العقلية الإسلامية التى بدأت تأخذ طريقها بحثا عن أصول الإسلام الأولى وكان استنكار هذه البدع ثمرة لهذه اليقظة الإسلامية •

وكان السحر والزار والأسیاد وتحضير الأرواح من بين ما شاع فى المجتمع من بدع وخرافات حكمت عصور الجهل ، وعكست صور التخلف الفكرى الذى خيم على المجتمع فى هذه الفترة • وكان للشعر المحافظ فى

(١) راجع : أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ،

(٢) راجع أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ٢٣ •

نقد هذه البدع صوت مسموع ارتفع بالنكير والاستهجان لهذا السلوك
الاجتماعي الفاسد . فيقول « الرافعي » مصورا تمكن الجهل من المرأة
المصرية وما جره عليها من وخيم العواقب ونكد العيش :

أقام في رأسك الجهل الذي سلفت به الليالي وفي اضلاعك الحسد
وما يطلن بيتا كان في رغد الا وهاجر منه ذلك الرغد
فالسحر والزار والأسباد) جعلتها لأهلها نكد ما مثله نكد(١)

وقال يذم مغربيا يستحضر الأرواح :

يستحضر الأرواح تأمر بالفسا د وانما هي روحه تستحضر
روح كأخبت ما يكون تصاعدت من قلبه ولقتها تتبخر
اياك لا يغردك نور جبينه وصلاحه وانظر الى ما يضم
فالهر ذو خبت ولكننا نرى عينيه في وقت الظلام تنور(٢)

ويصور « النشار » احتيال « عجوز الزار » (٣) على الساذجات من
النساء والفتيات ، وجذبهن الى حلقة الزار ، واستلاب أموالهن وحليهن
وايهامهن بالشفاء على يد شيخ الزار وما هو : الا الخرافة التي توارثتها
الأجيال فيقول :

عجوز الزار يا أم البلايا كفاك كفاك هممة وقلا
جزاك الله عن ابليس شرا فقد أشبهته الا قليلا
وما أدري أكنت امام سوء لديه أم الخليفة والوكيلا
قفي بالغادة الحسا وردى عليها ذلك المال الجزيلا
غصبت حليها في الزار لما تخنت الكبش يلبسه بديلا

(١) ديوان الرافعي : ج ٢ ، ص ٤٤ .

(٢) ديوان الرافعي : ج ٣ ، ص ١٤٣ .

(٣) ديوان النشار : ج ٣ ، ص ٦١ .

أكنت الفقر خلف الناس يسعى فيترك العزيز به ذليلا
أبا لخلخال تلتمسين طبا ليبرا جسمها المضي النحلا
(حديث خرافة يا أم عمرو) توارثه الملا جيلا فجيلا
فشيخك ليس يؤتيها شفاء وسحرك ليس يغنيها فتيلا
وكيف تؤمل الحسباء خيرا اذا كان الغراب لها دليلا

★★★

وعن بدعة الزار وانتشارها في هذا العصر وعمومها وخطرها يقول صاحب كتاب « حاضر المصريين أو سر تأخرهم » :

« بدعة الزار الذي هو عبارة عن جمعية نسائية تشترك الجارية والسيلة فيها ثم يأخذن يدقن الطبول دقات مزعجة ويتبادلن فيه الرقص ، والتمايل والبكاء الهائل والركوع والسجود وضرب الخسود ، وحل الشعور ، وقرع الصدور في وسط تتلى فيه الأكاذيب على الله ورجاله الصالحين . فكم من ولي بعد حياته وصلاحه اتهم بالكفر والشيطنة ، ونسبت إليه كرامات لا يرضاها ومعجزات يابها من قوم يدعون بأن الشياطين يركبونهم متخذين هيئة ملك أو سلطان ، أو جوارى وعلمان ، مجرد حيل وترهات دونها حيل إبليس لقضاء شهوات رديئة لا يمكنهم نوالها إلا بهلا الكذب والافتراء . حتى أن الزار أودى بالعائلات إلى حضيض المسكنة والهوان . والزار مع أنه عام بين المصريين كافة إلا أنه يكاد يكون خاصا بالمسلمين ، وأسبابه الحقيقية علم التربية وتهذيب الأخلاق بفهم الدين » (١) .

ويقول « حافظ إبراهيم » في « ليالي سطوح » :

« السعيلة من النساء من سهلت لها الأقدار فأصبحت تدعى شيخمة الزار . فهي تملأ يديها ذهباً وبيتها نشبا ، وترفل في الحرائر من هبات الحرائر ، ورأس مالها في تلك التجارة رقيقة بأسماء بعض العفاريت الطيارة تدخل على المقصورات في القصور ، والمخدرات في الخصور ، فتفتق بطلها آذانهم ، وتهز بأسماء الجن نواعم أبدانهم ، وتعمى بدخان البخور نجل أعينهم حتى إذا ما امتلكت منهم الوجدان ، وصار لها عليهن أي سلطان حكمت فيهن حكم المنوم البارح على النائم الخاضع » (٢) .

(١) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، ص ٢٧٥ .

(٢) حافظ إبراهيم : ليالي سطوح ، ص ٤٢ .

هكذا كان المجتمع المصرى يموج بالبدع والخرافات والمعتقدات الخاطئة نتيجة للجهل والتخلف ، وسوء الحياة الاقتصادية والثقافية ، ذلك الى جانب ما انحدر اليه من أخلاق المدنية الأوروبية وعاداتها المستكرهة مما ينافى الدين والأخلاق .

ولقد كان ذلك كله : ما انحدر اليه من مفاسد الغرب وما ترسب فى أعماق مجتمعنا من آفات الجهل ومظاهر التخلف - من بواعث الإصلاح ودواعيه فى هذه الفترة وكان من دواعى الإصلاح - أيضا - ما طرأ على المجتمع من مشكلات تعددت فيها وجهات النظر ، واختلفت حولها الآراء ، وظهرت الحاجة الى فكر المصلحين الذين انقسموا بنورهم الى مجلدين ومحافظين ، أو مجلدين على الطريقة الأوروبية ومجلدين على الطريقة الاسلامية .

وكانت مشكلة المرأة من بين المشكلات الاجتماعية التى تجسد فيها الصراع بين القديم والجديد ، بين ما نشأت عليه المرأة المصرية من حياة وتصون ينأيان بها عن مخالطة الرجال ، ومزاحمتهم فى الأعمال ، وبين ما تمتعت به المرأة الأوروبية من تحرر وانطلاق وتربية وتعليم .

وفى ظل هذا الصراع بين الوافد المتحرر ، والموروث المحافظ برزت مشكلة المرأة تدعو الى الإصلاح . فظهر « قاسم أمين » يدعو الى حرية المرأة وتربيتها وتهذيبها واعدادها لتحمل مسئولية المشاركة الاجتماعية على قدم المساواة مع الرجل وكان كتاباه : « تحرير المرأة » ثم « المرأة الجديدة » بيانا لهذه الدعوة التى شغلت رأى العام فى مصر خلال هذه الفترة . ثم كان رد فعل لهذه الدعوة الجريئة تعميقا للحوار حول قضية المرأة .



كذلك كانت المشكلة الاقتصادية فى حاجة الى الإصلاح بعد أن ساءت أحوال البلاد بسبب سياسة الاستعمار الاقتصادية . فعم البؤس وانتشر الفقر ، وضائق أبواب الرزق ، وعجز السواد الأعظم عن تحصيل ضروريات المعيشة ، واتسعت الفوارق بين الطبقات وانقطعت علائق الود بين الأغنياء والفقراء ، وتعرضت الطبقات الفقيرة لضنك الحياة وشظفها . « وقد كانت الحال تجرى هادئة مطمئنة يوم كان الفلاح الفقير والعامل البسيط يستسلم للقدر ، ويوم كان يلطف من الفقر احسان المحسنين ويوم كانت مطالب الحياة قليلة ، وأسعار السلع رخيصة ولكن تعقلت الحياة وكثرت مطالبها ، وعد كثير من الأشياء ضروريا بعد أن كان يعد كماليا ، وانتقلت أخبار

الصناع والعمال في أوربة وما يعمل لرفاهيتهم الى الشرق . فذهب في فلاحه وصانعه الوعي بأنه يجب أن يعيش عيشة معقولة مقبولة ، فتألم وزاد في وعيه ما يواجهه من غلاء الأسعار الذي لا يتفق ودخله فنشأ عن هذا كله ضرب من القلق والتذمر ، (١) .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى زادت الضائقة وعمت الفاقة وضاقَت أبواب الرزق وبنات الألوف تؤم الحواضر والمدن ابتغاء وسائل المعيشة حتى اكتظت المدن بساكنيها وارتفعت أجور المساكن ، وزادت تكاليف المعيشة زيادة أعجزت الناس عن احتمالها « فنشأت عن هذه الحالة العامة ، البلوى الشادة للخنق ، المستحكمة عرى الضيق مظاهر فساد الأخلاق كشرب الخمر ، وانتشار الفجور ، وارتكاب الاجرام والجنايات وقامت دلائل عديدة على نشوء القلق الاجتماعي ، والاضطرابات الثورية والهيّاج الفكري (٢) .

وزاد من هذا القلق الاجتماعي أن الطبقة الفقيرة نفسها بدأت تشعر بأن لها في الحياة الكريمة حقاً لا سبيل الى تجاهله . ولا سيما بعد أن بدأ الحديث عن الاشتراكية يدور على الألسنة عقب الثورة الروسية التي قامت على أكتاف طبقة العمال وكانت تذيع في ذلك الوقت أن هدفها إلغاء الفوارق الطبقيّة والاطاحة بالرأسمالية والاقطاعية (٣) .

ومن ثم كان على دعاة الإصلاح أن يواجهوا المشكلة الاقتصادية قبل أن ينفجر بركان الغضب في نفوس المكثودين من عامة الشعب .

★★★

واذا كان الشباب هم سواعد الأمة في بناء المستقبل ، وأملها في تحقيق طموحها الحضاري فان رعاية هذا الشباب وحمايته ضد عوامل الانحراف ، وموجات الانحلال ومذاهب الاتحاد تصبح ضرورة اجتماعية تتطلب جهود المصلحين .

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص ٣٤٧ .

(٢) لوثرروب سودارد : حاضر العالم الاسلامي . ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٣) د . ماهر حسن فهمي : حكمة البعث في الشعر العربي الحديث ، ص ١٢٩ .

ومن هنا كانت قضية الشباب في مصر واحدة من قضايا الإصلاح الاجتماعي الذي توجهت اليه جهود المصلحين .

وفي ضوء ما تقدم يتضح لنا : أن المجتمع المصري - في هذه الفترة - قد كان في حاجة الى الإصلاح والنهضة ، بعد أن صدعته الأحداث ، وتوالت عليه المحن فغدا هزيل البنيان في وقت مثلت فيه المجتمعات الأوروبية أكفا أشكال التجمع السياسي والاجتماعي ، وكان ذلك مما يزيد النفوس ايلاما ، والشباب نفورا والأمل في الإصلاح بعدا .

بيد أن عزائم المصلحين لا تعرف اليأس . ولذلك مضوا في طريق الإصلاح جاهدين في سبيل النهضة مخلصين في أداء رسالتهم الوطنية وكان الشعراء المحافظون شركاء في شرف النضال الحضاري الذي قاده دعاة الإصلاح في مصر حين تصدوا لقضايا المجتمع ومشكلاته ، وفي الفصل التالي سوف يكون لنا عود الى هذا الحديث .

الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى

اقتنع المفكرون من دعاة النهضة فى مصر بضرورة الاصلاح الاجتماعى ، بعد أن بدا كل شىء فى حاجة الى الاصلاح ومسايرة العصر ، واللىحاق بركب المدنية الغربية التى غزت المجتمع المصرى فبهرتة بأضوائها وشغلته بأساليبها ومستحدثاتها وأظهرت عجزه وتخلفه ، وبعد ما بينه وبين المدنية الغربية فى ميدان الحياة الاجتماعية - وفى شتى الميادين من مسافات .

وكان هذا الاحساس دافعا قويا للسير فى طريق النهضة والبحث عن أقوم السبل للخروج بالمجتمع الى دنيا الحضارة والمدنية ، والى آفاق الحرية والكرامة الانسانية بيد أن المصلحين رغم اتفاقهم على ضرورة الاصلاح والنهضة قد اختلفوا حول الوسائل التى يمكن من خلالها الوصول بالمجتمع الى مستوى الحضارة والمدنية . فدعا فريق من المصلحين الى اتباع أساليب الحضارة الغربية ، ودعا آخرون الى اتباع النهج الاسلامى فى بناء النهضة المرتجاء .

وكان طبيعيا أن يحتدم الصراع بين أولئك وهؤلاء من دعاة الاصلاح احتداما له أثره فى تجلية الحق وكشف الزيف وانتفاع المجتمع بآراء المصلحين بعد انصهارها فى بوتقة الحوار الفكرى وتخليصها من شوائب الأغراض الشخصية والأهواء الذاتية .

على أنى لا أريد فى هذا الفصل أن أعرض لحركة الصراع بين دعاة الحضارة الاسلامية أو النهضة على أساس الدين ، ودعاة التغريب أو النهضة على أساس الحضارة الغربية فان لذلك مكانة فى «الباب الثالث» : «الاتجاه الحضارى» .

ولكنى أريد هنا : أن أعرض لأهم القضايا الاجتماعية التي واجهت المصلحين مبينا موقف الشعر الاسلامى المحافظ من هذه القضايا .

وقد كانت قضية المرأة من أهم القضايا الاجتماعية التي شغلت رأى العام وشارك فيها الكتاب والشعراء : وظهرت فيها اتجاهات المصلحين على اختلاف نزعاتهم فى الإصلاح .

وكان موضوع « الحجاب والسفور » هو أبرز موضوعات المرأة ، وأحفلها بالجدل بين المحافظين ممن يدعون الى الإصلاح والنهضة على مبادئ الاسلام والمجلدين ممن يبتغون النهضة على أساس المدنية الأوروبية .

وزاد من حدة الجدل حول هذا الموضوع أن مشكلة « الحجاب والسفور » مشكلة ذات مساس بالدين . وللدين - يومئذ - فى نفوس السواد الأعظم من الشعب سلطانه الذى لا يقاوم . ولا عجب . فقد كانت النزعة الدينية غالبة على النفوس فى هذا العصر . وكان لعلماء الدين - باسم الدين - مكانة فى المجتمع كما كان للأزهر - حصن الدين واللغة ومعقل المقاومة ضد أساليب الغزو الفكرى - مكانته الجليلة فى قلوب الجماهير المسلمة فى مصر وفى غير مصر !

ومن هنا ، اتسع نطاق الحوار فى هذه القضية ، فكتبت المقالات وألفت الكتب وأنشئت القصائد ، وكثر الحديث حول المرأة ، وترددت آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى - صلى الله عليه وسلم - وأقوال الفقهاء فى هذا المجال .

وكان كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين سنة ١٨٩٩ م هو فاتحة الحوار الفكرى حول هذه القضية التى لم يحسمها النقاش بقدر ما حسنتها المرأة حين أسلمت نفسها لتيار التحرر ومضت معه الى آخر الشوط بحيث لو عاد محرر المرأة بدعوته من جديد ، وفى اطار ما كان يدعو اليه لأنكرته المرأة ولحسبته مقيدا لحريتها ! وتلك سنة التطور التى كان يخشاها المحافظون حين تصدوا لدعوة « قاسم أمين » .

على أن الانصاف يقتضينا أن نشير فى ايجاز الى أهم ما جاء فى كتاب « تحرير المرأة » من حيث انه كان الشرارة الأولى التى فجرت قضية المرأة فى هذه الفترة .

وعلى الرغم من أن « قاسم أمين » لم يكن أول داعية الى تحرير المرأة بل سبقه الى ذلك « رفاعه الطهطاوى » ، و « على مبارك » و « محمد عبده » فدعوا الى تعليم المرأة وحققها فى الحياة الكريمة . كان لدعوة « قاسم أمين » من الآثار الأدبية والاجتماعية ما لا يزال حديث الناس الى يومنا هذا .

وأيا ما كان الأمر . فقد جاء كتاب « تحرير المرأة » - بعد التمهيد - مشتملا على جملة من المسائل هي : تربية المرأة ، وحجاب النساء ، والمرأة والأمة ، والمرأة والعائلة . وفي التمهيد : حاول المؤلف أن يتتبع الجذور التاريخية للحالة السيئة التي آلت اليها المرأة المسلمة دون أن يكون للاسلام دخل في ذلك .

وفي موضوع التربية : طالب المؤلف بتعليم المرأة كل ما يتعلقه الرجل من التعليم الابتدائي على الأقل حتى يكون لها الملم بمبادئ العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها . فإذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على أصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد ، وأجالت النظر في تاريخ الأمم ، ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية ، وكانت حياة ذلك كله في نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية . استعد عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات والأباطيل التي تفتك الآن بنقول النساء . وعلى من يتولى تربية المرأة أن يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل التي تكمل بها النفس الانسانية في ذاتها ، والفضائل التي لها أثر في معاملة أهل وحفظ نظام القرابة والفضائل التي يظهر أثرها في نظام الأمة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة في نفسها . هذه هي التربية التي أتمنى أن تحصل عليها المرأة المصرية (١) .

ثم انتقل المؤلف الى موضوع « الحجاب » فعده أصلا من أصول الأدب التي يلزم التمسك بها « ولكنه طالب بأن » يكون منطبقا على ما جاء في الشريعة الاسلامية وهو على ما في تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا - لما عرض عليهم من حب المغالاة في الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملا بالأحكام حتى تجاوزوا حدود الشريعة ، وأضرروا بمنافع الأمة ، (٢) .

ويذهب المؤلف الى :

« أن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب وانما هي - في زعمه - عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخبلوا بها ، والبسوها لباس الدين ، والدين منها براء » (٣) .

(١) قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ١٨ - ١٩

(٢) قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ٥٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ٥٦ .

ثم يقول بعد أن يورد قوله تعالى :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ، أو نسائهن . أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الأربطة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » (١) .

يقول المؤلف بعد أن يسوق هذه الآية :

« أباحت الشريعة في هذه الآية للمرأة أن تظهر بعض أعضاء من جسمها أمام الأجنبي عنها . غير أنها لم تسم تلك المواضع . وقد قال العلماء : إنها وكلت فهمها وتعيينها إلى ما كان معروفا في العادة وقت الخطاب . واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية . ووقع الخلاف بينهم في أعضاء أخرى كالذراعين والقدمين (٢) .

ثم مضى المؤلف ينقل نصوصا كثيرة للفقهاء تؤكد هذا الرأي . حتى إذا خلاص منه راح يسوق من الحجج المستخلصة من واقع حياتنا ما يثبت به ضرورة الاقتصار على الحجاب الشرعى الذى يسمح بظهور الوجه والكفين عند بعض الفقهاء .

هذا بالنسبة لحجاب الوجه والكفين . أما الحجاب بمعنى قصر المرأة فى بيتها وحظر مخالطتها للرجال : فقط ذهب إلى أن الحجاب بهذا المعنى هو تشريع خاص بنساء النبى صلى الله عليه وسلم . ويستشهد على ذلك بقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما » وقوله تعالى : « يا نساء

(١) سورة النور : الآية : (٣٠) ، (٣١) .

(٢) قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ٥٧ .

النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي
في قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج
الجاهلية الأولى . . ، .

ثم يقول معقبا على هاتين الآيتين . . ولا يوجد اختلاف في جميع كتب
الفقه في أي مذهب كانت . . ولا في كتب التفسير . . في ان هذه النصوص
الشريفة هي خاصة بنساء النبي صلى الله عليه وسلم . أمرهن الله سبحانه
وتعالى بالتحجب وبين لنا سبب هذا الحكم وهو أنهن لسن كأحد من
النساء ، ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم ،
وكانت أحد أسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن ، فهذا الحجاب
ليس بفرض ولا بواجب على أحد من نساء المسلمين (١) . أما نساء المسلمين
عامة فهن منهيات - فقط - عن الخلوة بالأجنبي ، ويستشهد على ذلك بقوله
صلى الله عليه وسلم : « لا يخلون رجل بامرأة الا مع ذي محرم » (٢) .

★★★

أما عن وضع المرأة في الأمة أو اشتغالها بالشئون العامة : فان
المؤلف يسوق أمثلة من التاريخ تؤكد أنه « قد وجد في مبدأ الاسلام عدد
غير قليل من النساء كان لهن أثر في مصالح المسلمين العامة » (٣) .

كما يشير الى تدخل عائشة رضي الله عنها في مسألة الخلافة العظمى
والى غزو أم عطية رضي الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع
غزوات كانت تخلف المحاربين في رحالهم وتصنع لهم الطعام وتداوى
الجرحى ، وتقوم على المرضى .

ثم يخلص من ذلك الى القول بأن الاسلام : قد خول للمرأة حقوقا
عظيمة في كل الأعمال المدنية ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل (٤) .
ثم ينتقل الى الحديث عن « المرأة والعائلة » فيتناول : الزواج ، وتعدد
الزوجات والطلاق . مؤكدا ان الاسلام قد أنصف المرأة في كل ذلك
مستشهدا بآيات من القرآن الكريم فيما ذهب اليه من آراء .

★★★

-
- (١) قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ٦٥ .
 - (٢) المرجع السابق : ص ٦٦ .
 - (٣) المرجع السابق : ص ١١١ .
 - (٤) قاسم أمين : المرجع السابق ، ص ١١٢ .

ذلك بغض ما جاء في كتاب « تحرير المرأة » الذي فتح باب الحوار على مصراعيه حول قضية المرأة بعامة ، والحجاب والسفور بخاصة ، وآثار معركة فكرية بين أصحاب الأقلام ورجال الفكر الذين انقسموا ازاء هذه القضية : قضية « تحرير المرأة » أو سفورها الى مؤيدين ومعارضين . الى مؤيدين لا يرون في تحرير المرأة خروجاً على ما قرره الاسلام للمرأة من حقوق ، ولا اهدارا لقيمة من القيم الدينية التي صان بها الاسلام عفافها فضلا عما في هذه الدعوة من خير محقق يعود نفعه على المجتمع . . . والى معارضين يرون في هذه الدعوة خطرا على المرأة وفسادا للأخلاق ، وتعطيلا لأحكام الدين ، وتقليدا لأعداء الاسلام .

وربما جر الناس الى هذا الانقسام في الرأي حول دعوة « قاسم أمين » اختلاف المفسرين والفقهاء حول حله السفور الجائز شرعا ومتى يجوز في ضوء فهمهم لقوله تعالى : « ولا يبدن زينتهن الا ما ظهر منها » على ما بينته كتب الفقه والتفسير من آراء يكاد يخلص منها الباحث بأكثر من جواز الكشف عن الوجه والكفين عند أمن الفتنة أو عند الضرورة .

وكان هذا الاختلاف حول تفسير آية الحجاب في قوله تعالى : « ولا يبدن زينتهن الا ما ظهر منها » هو الذي فتح الباب - فيما يبدو لي - أمام الاجتهادات الشخصية حتى ظن كل فريق أن الحق معه . ومن هنا كان « قاسم أمين » يظن أنه ينصف الحق حين يبحث مسألة الحجاب . وفي هذا يقول : « لو أن في الشريعة الاسلامية نصوصا تقضى بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتناب البحث فيه ، ولما كتبت حرفا يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرّة في ظاهر الأمر لأن الأوامر الالهية يجب الاذعان لها بدون بحث ولا مناقشة لكننا لا نجد نصا في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة . . . ولذلك لا نرى مانعا من البحث فيها بل نرى من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة في شأنها وحاجة الناس الى تغييرها » (١) . . .

وهكذا كان يظن كل فريق أن الحق معه . وهذه ملاحظة عامة لا ينبغي اغفالها عند البحث في هذه القضية لما لها من أثر في تخفيف حدة التعصب ونبذ الاتهام والتجريح بين الجانبين .

وأيا كان الأمر . فقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة وأحدث ردود فعل كثيرة برزت آثارها في صحف ذلك العهد ، التي راحت تنشر على القراء

(١) قاسم أمين : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

آراء الفريقين وكانت « المنار » - التي كان يصدرها الشيخ « محمد رشيد رضا » تلميذ الامام « محمد عبده » - أول صحيفة بادرت الى تأييد « قاسم أمين » (١) . وكان الامام « محمد عبده » من مؤيدي « قاسم أمين » . بل أن ما جاء في كتاب تحرير المرأة خاصة بحجاب المرأة والطلاق هو من كلام الامام محمد عبده (٢) .

وكانت صحيفتا « المؤيد » و « اللواء » تعارضان دعوة « قاسم أمين » وتنشران ردود المعارضين (٣) .

كذلك ظهرت - في هذه الآونة - بعض الكتب التي تولت الرد على دعوة « قاسم أمين » ومن أهمها كتاب « تربية المرأة والحجاب » ل « محمد طلعت حرب » سنة ١٨٩٩ الذي فند أدلة « قاسم أمين » وكشف عن رأي الاسلام في قضية « الحجاب والسفور » يقول المؤلف :

« ان في الشريعة نصوصا تقضى بالحجاب الشرعى . ونعنى به ستر البدن بأكمله وملازمة المرأة خدرها الا لضرورة » ثم يقول معلقا على الآية الكريمة : « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم .. » الى قوله تعالى : « ليعلم ما يخفين من زينتهن » . يقول : « هذه آية جمعت فأوعت اذ امرت الرجل والمرأة معا بغض النظر وحفظ العرض وأمرت النساء زيادة على ذلك بأن لا يبدين زينتهن الا ما ظهر من الزينة وليس كما قال صاحب « تحرير المرأة » : « ان الشريعة اباحت في هذه الآية للمرأة ان تظهر بعض أعضاء من جسمها امام الأجنبى .. » .

والمعنى ظاهر لا يحتاج لهذا التعسف .. وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن الزينة الظاهرة فقالت : « هي الكحل والخضاب » (٤) ولم يختلف أحد من الصحابة في أن المراد من قوله تعالى : « الا ما ظهر منها » ليس هو الا الزينة - لا المرأة - بدليل أنهم لم يسألوا عائشة الا عن الزينة الظاهرة (٥) .

ثم يورد المؤلف - في سياق الاستدلال على ما ذهب اليه - نص ما قاله الشيخ « الالوسى » - رحمه الله - في تفسير قول الله تعالى :

(١) راجع : المنار - عدد ١٨٩٩/٧/١٥ و ١٨٩٩/٨/٢٦ .

(٢) راجع : د . محمد عمارة : الأعمال الكاملة للامام محمد عبده ، ج ٢ ، من ص

١٠٧ الى ١٣٢ .

(٣) راجع : المؤيد في ١٨٩٩/٩/٣٠ و ١٩٠١/٢/١٩ - واللواء - في ١٩٠١/٢/٣١

و - ٢/٢٤ و - ٢/٢٧ و - ٤/١٦ من السنة نفسها .

(٤) محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب ، ص ٦٧/٦٨ .

(٥) المرجع السابق : ص ٧٠ .

« ولا يبدین زینتھن الا ما ظهر منها » اذ یقول : « ای الا ما جرت العادة والجبلۃ علی ظهوره والأصل فیہ الظهور كالخاتم والفتخۃ (۱) والكحل والخضاب فلا مؤاخذه فی ابدائه للأجانب ، وانما المؤاخذه فی ابداء ما خفی كالسوار والتملیج والقلادة والخلخال والاکیل والوشاح والقرط ، وذكر الزینة دون مواقعها للمبالغة فی الأمر بالستر لأن هذه الزینة واقعة علی مواضع من الجسد لا یحل النظر الیها الا لمن استثنی فی الآیة بعد . . . » (۲) .

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث عن الحجاب بمعنى : قصر المرأة فی بیتها وحظر مخالطتها للرجال . فأورد آیة « یا نساء النبی لستن كأحد من النساء . . . الآیة » ثم قال : « انها وان كان المخاطب بها نساء النبی - صلی الله علیه وسلم - لكن المقصود منها بلا شك ان نساء المؤمنین کلھن بهذا الحكم تبع لهن لأنها انما تأمر بأداب والأدب مطلوب للجميع . ثم یتشهد بقول ابن کثیر فی تفسیر هذه الآیات : « هذه آداب أمر الله بها نساء النبی صلی الله علیه وسلم . ونساء الأمة تبع لهن فی ذلك » فهي من باب الخصوص الذی یقصد منه العموم » (۳) .

ثم یخلص المؤلف من ذلك كله الى القول بأن قول الله تعالى : « یا ایها النبی قل لأزواجک وبناتک ونساء المؤمنین یدنین علیھن من جلابیبهن ذلك أدنی أن یعرفن فلا یؤذین وكان الله غفورا رھیما » . قد أزال كل التباس ان كان هناك وجه للالتباس وجاء متمما للحکم بستر المرأة جمیع بدنھا وتعمیم هذا الحكم علی جمیع النساء فی جمیع الأوقات لیلا ونهارا ، (۴) .

★★★

وهكذا كانت قضية « الحجاب والسفور » مثار جدل وملتقى حوار بین دعاة النهضة علی أسلوب الحضارة الغربية ودعاتھا علی مبادئ الاسلام .

وكان الشعراء المحافظون علی مقربة من هذا الحوار بین الفريقین لانهم كانوا یقرأون ما ینشر حول هذا الموضوع وكانوا یتأثرون بما یقرأون وكان من نتیجة قراءتهم وتأثرهم انهم لم یتفقوا علی رأى واحد حول هذه

(۱) الفتخۃ : حلقة من فضة كالخاتم .

(۲) محمد طلعت حرب : المرجع السابق ، ص ۷۰ .

(۳) محمد طلعت حرب : المرجع السابق ، ص ۷۴ .

(۴) محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب ، ص ۷۷ .

القضية . بل مال بعضهم الى رأى « قاسم أمين » اعتقادا من هذا البعض أن الحق معه ، كما ذهب الى ذلك « شوقي » فى قصيدته التى رثا بها « قاسم أمين » فأشار الى رأيه فى الحجاب بأسلوب يوحى بتأييده « قاسما » فيما ذهب اليه اذ يقول شوقي : (١)

ماذا رأيت من الحجاب وعسره فدعوتنا لترفق ويسار ؟
رأى بدا لك لم تجده مخالفا ما فى الكتاب وسنة المختار

ثم يعلن رأيه فى الحجاب فيميل فيه الى التيسير والسماحة ، وينكر التشدد فيه والجنوح به عن حد الاعتدال والحكمة فيقول :

ان الحجاب سماحة ويسارة لولا وحوش فى الرجال ضواري
جهلوا حقيقته وحكمة حكمه فتجاوزوه الى اذى وضرار

فشوقي اذ يميل الى التسامح والتيسير فى أمر الحجاب انما يذهب مذهب « قاسم أمين » فى دعوته الى أن يكون الحجاب منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية ، وفى حدود أحكامها التى تجاوزها الناس حتى أضروا بمنافع الأمة (٢) .

ومن الشعراء المحافظين من عارض « قاسم أمين » فى دعوته واتهمه بالخروج على ما سنه الاسلام للمرأة من آداب ينبغى أن نتمسك بها . كما ذهب الى ذلك « أحمد محرم » فى قصيدته « الحجاب » التى انتقد فيها « قاسما » وأعلن أن كتاب الله قد حسم هذه القضية . وفى هذا يقول :

اغرك يا أسماء ما ظن قاسم أقيم وراء الخدر فالمرء واهم
سلام على الاسلام فى الشرق كله اذا ما استبيحت فى الخدور الكرائم

(١) الشوقيات : ج ٣ ص ٧٨ .

(٢) راجع : قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ٥٣ .

أقسام : لا تقلق بجيشك تبتغي
اسائل نفسي : اذ دلفت تريدها
ولولا اللواتي أنت تبكى مصابها
نبذت الينا بالكتاب كأنما
ففي كل سطر منه حنف مفاجي
لنا في كتاب الله مجد مؤثـل
بقومك والاسلام ما الله عالم
أنت من البائين أم أنت هادم ؟
لما قام للأخلاق في مصر قائم
صحائفه مما حملن ملاحم (١)
وفي كل حرف منه جيش مهاجم
وملك على الحدثان والدهر دائم

وفيهما يقول مبينا خطر السفور :

همنا بربات الحجال تريدها
وان امرءا يلقي بليل نعاجه
وكل حياة تتلم العرض سبة
اقاطيع ترعى العيش وهي سوائم
الى حيث تستن الذئاب لظالم
ولا كحياة جللتها المآثم

الى أن يقول :

عفا الله عن قوم تمادت ظنونهم
الا ان بالاسلام داء مخامرا
فلا النهج مأمون ولا الراى حازم
وان كتاب الله للواء حاسم

★★★

وكان « حافظ ابراهيم » من المعتدلين في موقفهم من قضية الحجاب
والسفور . فهو لا يميل الى سفور المرأة ، واختلاطها بالرجال ولا يميل
— في نفس الوقت — الى الاسراف في الحجاب والتضييق على المرأة ، ولكنه
يدعو الى الانصاف والتوسط فيقول (٢) :

انا لا اقول دعوا النساء سوافرا
يلرجن حيث اردن لا من وازع
يفعلن افعال الرجال لواهيـا
في دورهن شئونهن كثيرة
بين الرجال يجلن في الأسواق
يحذرن رقبتـه ولا من واقى
عن واجبات نواعس الاحداق
كشئون رب السيف والمزراق

(١) ديوان احمد محرم : ج ٢ ، ص ٦٣ .

(٢) يشير الى كتاب : « تحرير المرأة » .

كلا ولا ادعوكم ان تسرفوا في الحجب والتضييق والارهاق
ليست نساؤكم حلى وجواهرها خوف الضياع تصان في الاحداق
ليست نساؤكم آثا يفتنى في الدور بين مخادع وطباق
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا فالشر في التضييق والارهاق (١)

★★★

والقصد في كل الأمور خلق اسلامي عام ولكنه هنا نوع من التردد في الرأي والحيرة في الحكم على القضية التي كانت لا تزال موضع أخذ ورد . حتى لقد رأينا حافظا يقف منها في قصيدة أخرى موقف المنتظر لما سوف تحكم به الأيام فيقول في رثائه « لقاسم أمين » :

ان رأيت رأيا في الحجاب ولم تعصم فتلك مراتب الرسل
الحكم للأيام مرجعه فيما رأيت فثم ولا تسل
وكذا طهارة الرأي تتركه للدهر ينضجه على مهل
فاذا أصبت فأنت خير فتى وضع الدواء مواضع العلل
أو لا فحسبك ما شرفت به وتركت في دنياك من عمل (٢)

★★★

ويذهب الشيخ « محمد عبيد المطلب » مذهب المؤيدين للحجاب فيرى أنه خير ما يصون المرأة ويزينها وأنه لا يمنعها حقاً من حقوقها ولا يصددها عن موارد العلم والمعرفة . فيقول مزيينا الحجاب للنساء :

زعموا هن بالحجاب عن العلم ونور العرفان محتجبات
بنت مصر كالشمس يحجبها اليل ل وراء الآفاق والظلمات
وهي في أفقها ضياء ونور ساطع في بدورها النيرات
أو هي المسك ينفذ العرف عنه من وراء الأستار والحجرات (٣)

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٧٠ .

(٢) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ١٥٦ .

(٣) ديوان عبد المطلب : ص ٣٣ .

ويقول من قصيدة أخرى ينكر على المرأة المسلمة تبرجها وسفورها
ويدعوها الى الحجاب الذى فرضه الاسلام صونا للمرأة وحماية لها :

ما هذه الحبرات تهفو فى الخمائل والعقول
نكر العفاف ذيولها ومن الخنا قصر الذبول
اهى التى فرض الحجا ب لصونها شرع الرسول
جعل الحجاب معاذها من ذلك الداء الوييل
يا منزل القرآن نو را للبصائر والعقول
عميت بصائر أهل وا دى النيل عن وضح السبيل (١)

وفى هذه القصيدة نلمح تعريضا « بقاسم أمين » الذى فتح الباب
لسفور المرأة فكان ما كان من أمر النساء فى عصرنا الحاضر ، يقول :

يا هل درى (ذاك) الغيو ر بما جرى ؟ ويح الجهول

بيد أننا - انصافا للحق - نقرر : أن « قاسم أمين » لم يدع الى
شئ من هذا التبذل الذى صارت اليه المرأة المعاصرة . وانما كان يدعو
الى السفور الشرعى الذى لا يزيد عن اظهار الوجه واليدين والقدمين
ولا يتجاوز الى اظهار العورات والى اختلاط المرأة بالرجل بالشكل الحاصل
الآن (٢) .

ولم يدع قاسم أمين الى أن تتجاوز المرأة كشف النقاب الى الكشف
عن الأذرع والسوق والصدر والظهور ، ولم يدع قط الى اتخاذ الملابس
الضيقة التى لا تخفى عورات الجسم الا لتبرز مواضع الفتنة والاغراء
بها (٣) .

(١) المرجع السابق : ص ١٨٤ .

(٢) د . ماهر حسن فهمى : قاسم أمين ، ص ١٥٤ .

(٣) د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

وكان « الرافعي » يؤيد الحجاب ويرى أن كل أدلة أعداء الحجاب التي يحتجون بها باطل في باطل وضلال في ضلال (١) .

وكان يرى في مخالطة النساء للرجال صورة من صور الفساد التي ينبغي أن تعافها المرأة الشريفة فيقول :

دعى عنك قوما زاحمتهم نساؤهم فكانوا كما حف الشراب ذباب (٢)

★★★

كذلك كان الشيخ « حسن القاياتي » يرفض السفور والاختلاط ويميل الى الحجاب والتصون ويدعو الى التمسك بأداب الدين . فيقول من قصيدة له : (٣)

الا فاخزنوا الدر البدير يسركم فلم ار قط الدر غير خزين
ولا تكلوا تلك الغصون الى الهوى فيضرب لنا في الغصون بلين
جدير بكم ان تبتغوا الدين انه قمين يمسح الداء ، اي قمين
لكم دين نصح قد مدت به يدا قضيت بهذا النصح كل ديوني

★★★

ويبدو أن كفة المعارضين لسفور المرأة قد رجحت كفة المؤيدين فانقلب ميزان المعركة على رأس المرأة وتحول الصراع بين المؤيدين والمعارضين الى صراع بين المرأة والمرأة أو الى ملام عنيف بين الأمهات والبنات . فالأمهات يلقين الملام على البنات . ويتبرأن من سفورهن وتبرجهن ، والبنات يلقين الملام على الأمهات ويستبرثن من تبعة ما صرن اليه من تبرج وسفور وانحلال .

وكان « أحمد نسيم » ممن انتصر للبنات على الأمهات فقال :

أرى الأمهات يلمن العذارى الى أن جلبن عليهن عارا
وهذه البنات على ما لهن أحق من الأمهات انتصارا

(١) انظر : ديوان الرافعي ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٦ .

(٣) ديوان : حسن القاياتي : ج ١ ، ص ٥ .

فتربية الطفل من لعبة	تبين وتصدر عنه اضطرابا
هي الأم تحنو على بنتها	الى أن تعد الحنو افتخارا
هل البنت تعرف من نفسها	إذا أزينت أن تطيل الأزارا
وتحسن في وجهها صبغة	تزيد بها وجنتيها احمرارا
ومن علم البنت وقت الشراب	أن تخلع البنت فيه العذارا
تنادم هذا وتسكر ذاك	وتشرب نخباً على القوم دارا
وتعجب طورا فتظهر قرطا	وتفخر حيناً فتبدي سوارا
وتخطر لابسة حليها	فأنا لجينا وآنا نضارا
وتزهي بأصناف تلك الحلي	ولو قدرت جعلتها ثارا
ألم تكن الأم أصل البلاء	وبئس بلاء يكون اختيـارا
فيا أمهات كفاكن لوما	فغضب الامة أمضى شفارا
ويا آنسات كفاكن زهوا	وأصلحن حالا تجر البوارا



ولكن احلى الأمهات ردت على الشاعر تلقى الملام على البنات فقالت :

نسيم وأنت الذي لا يجارى	علام يشعرك تطوى العذارى
أراك انتصرت لهن ولو	علمت لكننا أحق انتصارا
تقول هي الأم أصل البلاء	وأى بلاء يكون اختيـارا
ولكن هي البنت لا ترعوى	الى اذا رمت منها الوقارا
وكم هلدتنى بقول صريح	بأمر يجبر الى الشفارا
إذا لم أتم لها مقصدا	غدت وهي تضر في النفس عارا
وما خوف أم على بنتها	سوى أن تعف عليها الأزارا
ومثلك يفهم مغزى كلامى	فأنت الأريب الذى لا يبارى
وكم لطمتنى بكف عيانا	وكم قلقتنى بهجر جهارا
تتوق الى الزهو امرى	نبتة الديار فتاق الديارا

هي البنت تعجب أنا بقرط وتغضب حيناً فتبكي سوارا
واية بنت عليها خمار فقالت لها الأم ألق الخمارا
واية أم أباحت لها من الكأس نخباً على القوم دارا
هي البنت ترنو الى غيرها فتأخذ عنها التحلى افتخارا
وتعرف من مثلها صبغة تزيد بها وجنتيها احمرارا
نسيم كفاك انتصارا لهن فلو كنت تدري لعفت العذارى

ومهما يكن من أمر فإن محاولة التبرؤ من اثم السفور انما تدل على
انكار الرأى الاسلامى العام فى مصر للسفور وتأيينه للحجاب .
أما على من تقع التبعة فى هذا الاثم فإن تبعته تقع على كل مسئول
عن وقوعه وعلى كل قادر على رفعه ، فهى مسئولية مشتركة يبوء باثمها
كل ضالع فيها .

هذا فيما يتعلق بموضوع الحجاب والسفور وموقف الشعر
المحافظ منه .

أما فيما يتعلق بثقافة المرأة وتربيتها واعدادها للمشاركة الفعالة فى
حياة الأمة - وذلك جزء لا يتجزأ من دعوة « قاسم أمين » لتحرير المرأة -
فإن الشعر المحافظ قد أيد هذا الجانب من دعوة « قاسم أمين » انطلاقا
من دعوة الاسلام الى طلب العلم واعتباره فريضة على كل مسلم ومسلمة .
فقال « حافظ ابراهيم » يحث على تربية النساء واعدادهن لما فى ذلك من
خير يعود على نفع الأمة معاء :

من لى بتربية النساء فانها فى الشرق علة ذلك الاخفاق
الأم مدرسة اذا أعددتها أعدت شعبا طيب الاعراق
الأم روض أن تعهده الحيا بالرى أورق أيما اوراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى شغلت مآثرهم مسلى الآفاق

الى أن يقول :

ربوا البنات على الفضيلة انها في الموقفين لهن خير وثاق
وعليكم أن تستبين نساؤكم نور الهدى وعلى الحياء الباقي (١)

★★★

ويهيئ محرم بالشعب أن يحرص على اعداد الأم اعدادا صالحا ،
لأنها الأساس الذي يقوم عليه الاصلاح ، فالأم النافعة رحمة وهدى لقومها ،
والأم الجاهلة نكبة قوية وما دامت الأم ذات خلق عال ورأى سديد فسينشأ
الشعب على قوة الأخلاق وصدق العزيمة (٢) . يقول محرم :

لا تيأسوا ، وأعدوا الأم صالحة	فهي السبيل الى اصلاح ما فسد
الأم للشعب اما رحمة وهدى	أو نكبة ما لها من دافع أبدا
لا يذهب الشعب في أخلاقه صيبا	والأم تذهب في أخلاقها سعدا
لن ينفع العلم والأخلاق فاسدة	والنفس جامعة لا تتبع الرشدا
وجاهل ظن أن العلم مفسدة	للبنت فانتقص التعليم وانتقلا
مهلا ، قرب فتاة أهلكت أسرا	بجهلها وعجو أفسدت بلدا
أعملت رأيي في معنى الحياة لمن	يبني الحياة فكان البيت والولدا
هذا يصاب بتدبير ومعرفة	وذا يعد لاصلاح البلاد غدا (٣)

ويقول من قصيدة له في « الأمهات » ، يتمنى تعليم البنات :

رايت الأمهات لكل شيء	يكون لدى الممالك محدثات
دعاة الشر والاصلاح منها	ورسل الموت فيها والحياة
فهن يكن اما بانيات	اذا نهضت ، وأما هاديات
لذلك كان من خير الأمانى	لدى القوم تعليم البنات (٤)

(١) ديوان : حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٨٣ .

(٢) محمد ابراهيم الجبوشى : شاعر العروبة والاسلام احمد محرم ، ص ١٧٦ .

(٣) ديوان احمد محرم : ج ٢ ، ص ١٥٠ .

(٤) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

ويقول فى أخرى يدعو الى تعليم البنات لأن الأم المتعلمة تدفع
أبنائها الى السؤدد والمجد :

أعرف شعبا لم تله عليمه مهذبة ، فاستن سنة سؤدد ؟
(١)

إذا نحن علمنا البنات سمت بنا الى سورة من المجد من يفتريها يمجده

ويؤكد « المصرى » على دور المرأة فى الحياة ويهيب بأعدادها وتعليمها
لبناء مجتمع قوى فيقول :

نصف الحياة على النساء وانما ضل الرجال وأخطأ الحكماء
والأمهات إذا تعلمت اهتلت أبناؤها وارتاحت الآباء
فابنن للشرق الرجال فانهم أسواره وحصونه السماء (٢)

وكان بعض دعاة « السفور » يرى فى « الحجاب » عائقا عن تحصيل
العلم وهذا زعم باطل يكذبه تاريخ المسلمات اللاتى علمن فى خدرهن بل
خضن « لجج العلوم الزاخرات » (٣) وقد أشار « عبد المطلب » الى هذا
الزعم الكاذب بقوله :

ظلموا النيل يوم عدوا بنات النيل جهلا فى زمرة الجاهلات
زعمو هن بالحجاب عن العلم سم ونور العرفان محتجبات (٤)

ويرد « المصرى » على من يظن أن الحجاب مانع من تحصيل العلم
بأن فى مقدور المرأة أن تتعلم فى خدرها ولا يمنعها ما للحجاب من تحصيل
العلم :

جعلوا الحجاب على الجهالة علرها أكذا الحجاب على الذكاء بلاء
ما ضرها لو علمت فى خدرها كم فى الخدور مواهب وذكاء (٥)

-
- (١) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ١٠٢ .
(٢) ديوان المصرى : ج ٣ ، ص ٢١ .
(٣) راجع : قصيدة « شوقى » (مصر تجدد مجدها) الشوقيات : ج ١ ، ص ١٠٢ .
(٤) ديوان : عبد المطلب ، ص ٣٣ .
(٥) ديوان المصرى : ج ٣ ، ص ٢١ .

ونخلص مما تقدم فى موضوع المرأة ما يلى :

١ - أن مسألة السفور والحجاب كانت حلقة من سلسلة الصراع بين القديم والجديد أو كانت ثمرة من ثمرات الاتصال بالحياة الأوروبية فى تقاليدها الاجتماعية .

٢ - أن الشعر المحافظ قد وقف من دعوة « قاسم أمين » الى « تحرير المرأة » من « الحجاب » على « الطريقة المعهود » - أى المعروفة فى مصر آنذاك - وهى الحجاب الكامل الذى يستر جميع أعضاء المرأة بما فى ذلك الوجه والكفين - بين مؤيد لهذه الدعوة يرى أنها - فى حدود ما دعا اليه « قاسم أمين » من ضرورة أن يكون الحجاب منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية - لا تتنافى مع الاسلام . ومعارض لها يرى فيها خروجا على الاسلام الذى وضع حدودا لآداب المرأة ينبغى ألا تخرج عنها ، فكلا الفريقين - اذن - كان يصدر فى موقفه من دعوة « قاسم أمين » عن شعور دينى .

والذى جر الشعراء الى هذا التناقض الظاهرى - فيما اعتقد - انما هو اختلاف الأئمة حول تفسير النصوص الدينية التى وردت فى هذه المسألة .

٣ - أن الشعر المحافظ قد أيد الدعوة الى تربية المرأة وتعليمها واعدادها اعدادا صالحا لتكون لبنة طيبة فى بناء مجتمع قوى . وهذا هو موقف الشعر المحافظ من الشطر الثانى من دعوة قاسم أمين الى تحرير المرأة .

واذن فقد كانت دعوة قاسم أمين الى تحرير المرأة ذات شقين :

أولهما : السفور . وفيه اختلف موقف الشعراء باختلاف فهمهم للنصوص الدينية الواردة فى موضوع الحجاب .

وثانيهما : تربية المرأة وتعليمها وفيه اتفق الشعراء على ضرورة ذلك انطلاقا من الايمان بأهمية دور الأم فى حياة المجتمع . واستنادا الى دعوة الاسلام لكل مسلم ومسلمة الى طلب العلم .

ذاك موقف الشعر المحافظ من قضية المرأة فماذا كان موقفه من « مشكلة الفقر » التى عانى منها المجتمع المصرى فى هذه الفترة ؟

وللاجابة على ذلك ينبغى أن نلقى بعض الضوء على أوضاع مصر الاقتصادية فى هذه الفترة .

ففى هذه الفترة كان الاحتلال البريطانى يقبض على زمام السلطة الفعلية فى البلاد ، ويرسم بنفسه سياستها الاقتصادية بالقدر الذى يحقق مطامعه الشخصية وفى سبيل ذلك أحكم الاستعمار الانجليزى سيطرته على الاقتصاد المصرى فألقى المراقبة الثنائية ، وعين مستشارا انجليزيا للمالية ، وأرهب الخزانة المصرية بتعويضات الأجانب عما نالهم من ضرر مزعوم وخسائر وهمية بلغت قيمتها نحو أربعة ملايين جنيه تحملتها الخزانة المصرية كما تحملت تكاليف جيش الاحتلال وأجور الموظفين الانجليز وتكاليف حرب المهدي فى السودان (١) .

وكان من نتيجة ذلك أن أربق الاقتصاد الوطنى فسأت أحوال البلاد . وانخفض مستوى معيشة السواد الأعظم من الشعب وبخاصة الفلاحون والعمال .

أما الفلاحون فكانوا : « يعيشون بالشئء التافه الذى يبقى الحى من الموت جوعا » (٢) يقضى أحدهم حياته مثقلا بالدين لا يزيد كسبه على الضرائب المفروضة عليه ، وأرباح الديون المطلوبة منه ، وهو لكى يسد حاجات زراعته فى مواعيدها مضطر دائما الى الاستدانة بالربا الفاحش . فلهذا العسر من جهة ، ولخلوه من المال من جهة أخرى ، ولكثرة من يعولهم من جهة ثالثة قد بقى غريقا فى بحار الضنك لا يعرف لنفسه منها مخلصا (٣) .

وقد أدت هذه الفاقة فى حياة الفلاح الى اهمال الزراعة ثم الى تركها يأسا من جدواها فى تحسين حالته المعيشية وبعثا عن حياة أفضل فى ظل حرفة أخرى ، فكان أن نزح كثير من الفلاحين الى المدن التى ما لبثت بدورها - أن ضاقت بحياة سكانها وقلة مواردهم .

وأما العمال فقد بدأ كثير منهم يعرف البطالة بعد أن حارب الاستعمار الصناعة الوطنية وعمل على تخزينها تارة بالاقلال من زراعة المواد الخام اللازمة لها وتارة بغرض رسم جمركى كبير على الفحم المستورد (٤) . وفى الوقت الذى قضى فيه الاستعمار على الصناعة الوطنية - أو كاد - جعل من مصر سوقا لبيع بضاعته وتصريف منتجاته فراجت تجارته

(١) راجع : عبد الرحمن امراعى : مصر والسودان فى اوائل عهد الاحتلال ، ص ٩ و ص ٦٤ .

(٢) قاسم أمين : اسباب ونتائج واخلاق ومواعظ ، ص ٤ .

(٣) تيودور تشتين : « تاريخ المسألة المصرية » ترجمة : العبادى وبدران ، ص ٢٩٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٠٨ .

وعظمت ثروته ودارت عجلة مصانعه ، وعمت البطالة فى بلاده وكان ذلك كله على حساب الشعب المصرى الذى كان يعانى سواده من البؤس ما يعانى حتى ضاقت الحياة بالناس .

ثم ان الاستعمار قد سعى - بنفوذه - فى خلق طبقة خاصة تبادل معها المنافع على نحو ما . وكان لهذه الطبقة الخاصة من الوجاهة واليسار وقوة النفوذ ما ليس لعامة الشعب . فظهر التناقض فى حياة المجتمع واتسعت الفوارق بين الطبقات « فبينما ترى قصورا وثرء ، وحبورا وسراء ، وخراج قرية أو قريتين يذهب فى لهو ليلة أو ليلتين . نجد أرملة صناعا ، وأيتاما جياعا ، وشيخا يعمل فى أرزل العمر ، يقعه العجز ، ويقيمه الفقر . أو عذراء تبيع عرضها للاحتياج ، أو مريضا عاجزا عن العلاج ، وبينما ترى وذاحا فى جيدها عقد كأنه فرود حضار ، وفى أخمصها نعل من نضار . ترى بائسة فى عنقها عقد من دموع ، وفى بيتها فقر وجوع ، حال تطرف العيون وتثير الشجون .. » (١) .

★★★

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى زادت الضائقة وعمت الفاقة . وضاقت أبواب الرزق ولا عجب ، فقد توقفت حركة الصادرات والواردات ، وهبطت إيرادات الحكومة من الجمارك هبوطا فاحشا ، وظهر العجز فى الميزانية ، فأوقفت الحكومة جميع مشروعاتها وأخذت تفصل الموظفين المؤقتين الذين كانوا يعملون بأجر يومى ، وحذت الشركات والمصارف والمحال التجارية حذو الحكومة فى فصل الموظفين والعمال وتوقفت أعمال البناء ، وتعطلت المصانع .. ووجد الألوف من العمال والموظفين أنفسهم وقد فقدوا مورد رزقهم فجأة وأصبحوا عرضة للموت جوعا .. وأخذ التجار يخبثون ما عندهم من البضائع فارتفعت أسعار المأكول والملبس ومواد الوقود كالقمح والبتروول والكحول كما ارتفعت أسعار التبغ والأحذية والشاى وكثر الغش فى كل شئ فى الكيل والوزن والصنف (٢) .

★★★

واذ عمّت الضائقة المالية ، وارتفعت أسعار السلع وتعذرت أسباب المعيشة على الطبقات الفقيرة . أخذ الناس يجأرون بالشكوى ، وتعالّت

(١) محمد توفيق البكرى : صهاويج اللؤلؤ ، ص ١٥٦ ز

(٢) محمد سيد كيلانى : « السلطان حسين كامل » فترة مظلمة فى تاريخ مصر ،

ص ١٨١ / ١٨٢ .

أصوات الشعب تستصرخ المصلحين أن يفعلوا شيئاً يفرجون به كرب
الناس وكان الشعر المحافظ هو صوت الأمة في هذه المحنة ، يصدع
قلوب أغنيائها بأنين فقرائها ، ويشكو الى المصلحين سوء أحوالها ، وضنك
عيشها .

فيقول « حافظ ابراهيم » :

أيها المصلحون ضاق بنا العيش	ش ولم تحسنوا عليه القياما
عزت السلعة الدليلة حتى	بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغدا القوت في يد الناس كاليا	قوت حتى نوى الفقير الصياما
يقطع اليوم طاويا ولديه	دون ريح القطار ريح الخزامي (١)
ويخال الرغبة في البعد بدرا	ويظن اللحوم صيدا حراما
أن أصاب الرغبة من بعد كد	صاح : من لي بأن أصيب الاداما
أيها المصلحون أصلحتم الأرض	ويتم عن النفوس نياما
أصلحوا أنفسا أضر بها الفقر	وأحيا بموتها الآثاما
أيها المصلحون رفقا بقوم	قيد العجز شيخهم والغلاما
واغثوا من الغلاء نفوسا	قد تمت مع الغلاء الحماما
أوشكت تاكل الهبيد من النقر	وكادت تذود عنه النعاما (٢)
ضاق في مصر قسمنا فاعذرونا	أن حسدنا على الجلاء الشاما
قد شقينا - ونحن كرمنا الله -	بعض يكرم الأنعاما (٣)

★★★

ويقول « عبد المطلب » يصف ما أصاب موظفي الحكومة من ضيق
وبؤس بسبب الغلاء وقلة الدخل :

(١) ريح القطار : ريح الشتاء ، الخزامي : نوع من الرياحين .

(٢) الهبيد : حب الحنظل .

(٣) ديوان : حافظ ابراهيم ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

فوارحمتا لابن الحكومة قوسه قلع وهل يرجى سداد قلع
ومن حوله غرثى عيال ونسوة طواها الردى فى ذلة وخضوع
تقلب فى جوع وعرى يؤودها وحسبك من عرى يؤدد وجوع
غلا كل شئ من مرافق عيشها على ربها من مسلم ومبيع

★★★

فاذا كان هذا هو حال الموظفين الذين يمثلون فى الهيئة الاجتماعية
الطبقة المتوسطة فكيف كانت - اذن - حياة الطبقة الفقيرة من الشعب ؟
يقول أحمد محرم :

رأيت الهول ينبعث ارتجالا فتنصدع القلوب له بديها
رأيت البؤس يركض فى جلود يجانبها النعيم ويحتسوها
رأيت بيوت ساغبة تلوى كأمثال الأراقم ملء فيها
تريد طعامها والبيت مقو فتوشك أن تميل على بنيتها
انيلونا الديات ولا تكونوا كمن يردى النفوس ولا يديها(١)

★★★

ويجأ « شوقى » الى الله بالدعاء أن يخف عن الفقراء ما يجدون من
ضنك الحياة وبؤس المعاش وأن يرقق لهم قلوب الأغنياء والتجار
فيقول : (٢)

عبادك رب قد جاعوا بمصر انيلا سقت فيهم ام سرايا
حنانك واهد للحسنى تجارا بها ملكوا المرافق والرقابا
ورقق للفقير بها قلوبا محجرة واكبادا صلابا
امن اكل اليتيم له عقاب ومن اكل الفقير فلا عقابا

(١) عمر الدسوقي : فى الادب الحديث ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) الشوقيات : ج ٢ ، ص ٥٤ .

أصيب من التجار بكل ضار أشد من الزمان عليه نابا
يكاد اذا غداه أو كساه ينأذه الحشاشة والاهابا

ويأسى الشيخ « حسن القاياتي » للعمال العاطلين فيقول من قصيدة
له بعنوان « وارضمتاه للعمال العاطلين » : (١)

كم تحت جنحك يا دجى من موجد قال الأسى لعيونه لا ترقدى
أسوان ينظر فى النجوم كأنها جمر تصعد من حشاة الموقد
واهاله من عاطل لو ساعفت أيامه أزرى بكل مقلد
لله عينا من أحس وليدة قد ريع كاسبها بخطب أنكد
باتت تنظر والدا هتفت به اذ راح يبغي عيشها ، لا تبعد
وارحمتاه بطفلة لا تقتنى حولا ولا عاذت بفضل تجلد

وازاء هذه الظروف الخائقة والحياة التعيسة التى كان الفقراء - وهم
سواد الشعب - يتقاسمون عذابها . نادى المصلحون بحق الفقراء على
الأغنياء ودعوا الى ما يأمر به الدين من حق الزكاة .

فكتب الامام « محمد عبده » عن الزكاة يستحث أغنياء المسلمين على
أدائها سدا لحاجة الفقراء . فيقول مبينا حكمة الاسلام فى الزكاة :
« فرض الاسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما يفيض به الآخرون
على الأولين سدا لحاجة المعدم ، وتفريجا لكربة الغارم ، وتحريرا لرقاب
المستعبدين وتسيرا لأبناء السبيل ، ولم يحث على شئ حثه على الانفاق
من الأموال فى سبيل الخير . وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ، ودليل
الاهتداء الى الصراط المستقيم ، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحصى
صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب
أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين
فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين . وأى دواء لأمراض
الاجتماع أنجع من هذا ؟ » (٢)

(١) نشرت بالأهالي : فى ٢٦/٣/١٩١٥ .

(٢) د . محمد عمارة : الأعمال الكاملة للامام محمد عبده ، ج ٣ ، ص ٤٥٦ . وانظر :

رسالة التوحيد ، ص ٩٧ .

ويستندى « محمد كرد علي » أكف الأغنياء من المسلمين لدفع غائلة الفقر عن الفقراء ويبين أثر الزكاة في سد حاجة المحتاجين فيقول : « لو عمل المسلم بشريعته فأخرج الزكاة مثلا لما رأيت اليوم فقيرا ولا جائعا ولا عريانا .. » ثم يقول : « البشر اليوم في ضائقة لم ينلهم بعضها من عهد حفظه التاريخ . أمن المروءة أن ينعم بعض أفرادهم ويسرفوا على حين تكفى فضلات طعامهم والزوائد من رفاهيتهم ومظاهرهم لأن تعول كثيرين من المحاييج » (١) .

وقد حملت الصحف الوطنية في هذه الفترة لواء الدعوة الى الاحسان والعمل على تخفيف أعباء الحياة عن الفقراء . فأخذت ترسم صور البؤس التي يعيشها الفقراء ، وتهز من خلالها ضمائر الأغنياء . ومن ذلك ما كتبتة صحيفة « وادى النيل » تحت عنوان « أحسنوا ولا تنهروا » تقول : « .. كثرت الآلام وتعددت المصائب ، وليس بيننا من يرحم أو يعمل في سبيل الرحمة . نرى الفقراء يتسكعون في الشوارع والأزقة ، ونسمع أنينهم وشكواهم ومع ذلك فنحن نسير في طريقنا كأننا لم نر ولم نسمع قلوب جمدت حتى تحجرت ، وعيون تفاضت حتى عميت وأيد غلت حتى شلت .. جردت قلوبنا من الرحمة وانتزع من ضمائرنا الميل الى الخير وسرنا في طريق لم يسر عليه آباؤنا ولا أجدادنا ولم تنص عليه شرائعنا ولا مدينتنا » (٢) .

ثم بدأت الأفكار الاشتراكية تشق طريقها الى الأذهان وسط دياجير الفاقة والبؤس . فالف « عبد الرحمن الرافعي » أول كتاب عن نقابات التعاون الزراعية سنة ١٩١٤ بحث فيه الحالة المالية للفلاح المصري ، والتسليف الزراعي التعاوني (٣) ، كما ألف « حسين المنصوري » أول كتاب عن الاشتراكية ونشره أوائل سنة ١٩١٥ بعنوان « تاريخ المذاهب الاشتراكية » وتحدث فيه عن الاشتراكية في مصر . وطالب فيه بتعميم المجالس المحلية ، وبناء المساكن الصحية التي تؤجر بأجور معتدلة ، وتعيين الحد الأدنى لأجور المزارعين وتوزيع موات الأرض على فقراء المزارعين . كما حض الأهالي على انشاء نقابات زراعية وصناعية وامدادهم بالمال من خزينة الحكومة (٤) .



-
- (١) محمد كرد علي : القديم والحديث ، ص ٢٨٠ .
(٢) نشرت في « وادى النيل » : في ١٩١٥/٣/٢٦ .
(٣) محمد سيد كيلاني : السلطان حسين كامل . ص ١٨٣ .
(٤) المرجع السابق : ص ١٨٥ .

وهكذا دفت الظروف الاقتصادية القاسية بالمصلحين الى البحث عن أفضل الحلول للخروج من هذه الأزمة الخائقة .

وكان الحل الاسلامى فى مقدمة هذه الحلول التى شارك فيها الشعر المحافظ بفكر موصول بالاسلام وبدعوته الى البر والاحسان .

وفى هذا المجال اتجه الشعراء المحافظون وجهات متعددة . فتارة نسمعهم يستعطفون الأغنياء ويناشدونهم البر بالفقراء الذين هدمهم الجوع وأذلهم الفقر . وحينما نجدهم يحثون على انشاء الجمعيات الخيرية لرعاية الفقراء والأيتام والأطفال المشردين وذوى العاهات . وآنا نراهم يذمون البخل ويمتدحون البر ويذكرون الأغنياء بحقوق الفقراء ، وقد يخوفونهم ثورة الفقراء عليهم . الى غير ذلك من مذاهب القول فى الدعوة الى الاحسان والتعاون على البر فيقول « أحمد محرم » يناشد الأغنياء أن يغيثوا البلاد مما تعاني وأن يمدوا أيديهم الى الفقراء الذين قهر الذل نفوسهم حتى باعوا بناتهم فى سوق المهانة بيع الرقيق : (١)

يبيع البنين ويشرى الرغيف فى للرجال ويا للعجب
جنود من الفقر تغزو النفوس وأنتم أسنتها والقضب
سراة البلاد ألا من يلود ؟ سراة البلاد ألا من يلد ؟
سراة البلاد ألا من يجود ؟ سراة البلاد ألا من يهب ؟
ألا من يرق ؟ ألا من يلين ؟ ألا من يواسى ؟ ألا من يطب ؟
أما فيكم منعم يرتجى ؟ أما بينكم ماجد ينتخب ؟

★★★

ويستثير « الراقى » مشاعر المحسنين كى تلين قلوبهم لدعوة الاحسان فيصور حال الفقراء وما لاقوه من بؤس وشقاء من خلال أسرة معدمة يجلس فيها الأب وقد التف حوله أطفاله ليكون من شدة الجوع ، « ويتناعون لوعة كفراخ الطير » وينظرون اليه بعيون دامعة تمزق سهامها الحانية نياط قلبه حيث لا يقدر على دفع الأذى عنهم ، وجلب الخير لهم بينما هم يعتقدون - على عادة الأطفال فى قدرة أبيهم على جلب الطعام

(١) نشر فى « وادى النيل » : فى ١٩١٥/٤/٤ .

اليهم ، ولكن ما حيلة الأب وقد « غلت الخطوب يديه من الأسى والهوان »
فيقول « الرافعى » تحت عنوان « العمال العاطلون » : (١)

كم أب حوله البنون صفارا	يتعانون من شلة ويعانى
غاية العز عندهم طلعة الخبز	وكل الأفراح فى الأفران
عضه الجوع عضه ضغمة	فتلوى تلوى الشعبان
وتباكوا من حوله بدموع	هى فى قلبه سهام الحنان
ثائر • غيظه وغيظ بنيه	شعل فوق ذلك البركان
صبية كاللآلىء الغر فى السلا	ك ، ودمع الندى على الريحان
يتناغون لوعة كفراخ الطير	ر حين انتفض للطيران
جوع ياملون فى طلب الخبز	ز أباهم وما أبوهم بوان
غير أن الخطوب غلت يديه	بقيود من الأسى والهوان
ولو استطاع ضرم الشمس نارا	وأعد النجوم مثل الجفان
ولو استطاع لاشرى قمر اللي	ل رغيضا لهم من الرغفان

ثم يتجه الى المحسنين فيدعوهم الى الاحسان الى هؤلاء الفقراء حتى
يحفظوا عليهم كرامتهم وعفافهم • والا فان الفقر سوف يدفعهم الى ارتكاب
الجرائم :

أيها المحسنون هذى ثمار	بلغت نضجها لغير أوان
فتح الناس بينهم باب شر	فافتحوا بابكم من الاحسان
واحفظوا للفقير فضل عفاف	تركته بقية الايمان

ثم يختم قصيدته بمناشلة الأغنياء باسم الدين والعلم والمدنية أن
يبقوا على حياة اخوانهم البائسين :

أيها المحسنون للدين رفقا	بأخ فى محبة الأوطان
أيها المحسنون للعلم رفقا	بأخ فى التضامن العمرانى
رجع الناس للتوحش فابقوا	انتموا للتمدن الانسانى

(١) نشرت فى « المقطم » : فى ١٩١٤/١١/٢٤ •

ويتجه « النشار » في قصيدته « الى الأغنياء » (١) ذوى الخزائن
العامرة والكنوز المستفيضة والقصور الشاهقة ، والركبات الفارحة ،
فيسألهم الرحمة بالمعدمين من العباد ويعتب عليهم تقصيرهم في حق الفقراء
البائسين فيقول :

اذوى الخزائن والكنو	ز المستفيضة والسواد
والشاهقات من القصور	ر علون كالسحب الغواوى
والفانيات الناعمات	ت الحاكمات على الفؤاد
والركبات تجرهن	ن الصافيات من الجياد
والعاليات من الآرا	ك والأسسرة والمهاد
ماذا فعلتم رحمة	بالمسلمين من العباد
البائسين الهائم	ن على الوجوه بكل واد
العاجزين عن ادخار	القوت من ماء وزاد
هملا يطوفون الأزق	ة يستميحون الأيادى
والشمس تلفحهم كفع	ل النار من تحت الرماد
حتى اذا جن الدجى	وامضهم طول السهاد
ناموا على وجسه الترا	ب وقد نعتم بالرقاد
أوصدتم ابوابكم	من دونهم بيد العناد
فاذا هم بالرغم قد	لجأوا الى باب الفساد

ويقول « حافظ ابراهيم » يدعو الأغنياء الى التسابق فى الخيرات
ويحجب اليهم الصالحات من الأعمال ، ويفريهم بما أعده الله للمحسنين
يوم الحساب من عظيم الثواب :

لا تهملوا فى الصالحات فانكم	لا تجهلون عواقب الاهمال
فتسابقوا الخيرات فهى امامكم	مسلان سبق للجواد النال

(١) ديوان النشار : ج ٣ ، ص ٧٨ / ٧٩ .

والمحسنون لهم على احسانهم يوم الاثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجل عن عد وعن وزن وعن مكيال (١)

★★★

ويقول يستحث القادرين على التعاون فى سبيل ماينفع الناس فيقترح
عليهم بعض المشروعات النافعة التى تهين فرص الحياة الكريمة للمجتمع:

يا رجال الجد هذا وقته أن أن يعمل كل ما يرى
ملجأ أو مصرفاً أو مصنعا أو نقابات لزراع القرى
أنا لا أعذر منكم من ونى وهو ذو مقدار ، أو قصرا (٢).

ثم يقول مناشدا أهل الثراء أن يبدأوا بملجأ يكفلون فيه الأيتام :
فابدوا بالملجأ الحر الذى جئت للأيدى به مستمطرا
واكفلوا الأيتام فيه واعلموا أن كل الصيد فى جوف الفرا (٣)
أيها الثرى ألا تكفل من بات محروما يتيما معسرا

ثم يشوق أهل الخير الى ما أعده الله من حسن الثواب لكافل اليتيم
فيقول :

كل من أحيا يتيما ضائعا حسبه من ربه أن يؤجرا
انما تحمد عقبى امره من لأخراه بدنياه اشترى (٤)

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن « حافظ ابراهيم » كان رائد
الشعراء المحافظين فى الدعوة الى الاحسان ورعاية الفقراء ، وكفالة الأيتام،
ومد يده المعونة الى المحتاجين .

(١) ديوان حافظ : ج ١ ، ص ٧٥ .

(٢) ديوان حافظ : ج ١ ، ص ٣١٠ .

(٣) أى : أن معونة اليتيم تحمل فى ثناياها جميع الأعمال الضالحة .

(٤) ديوان حافظ ابراهيم ج ١ ص ٣١٠ .

ويبدو أنه قد كان لما كابده في حياته من يؤس أثر في احساسه
بالبؤساء ولذلك يقول مستعظفا قلوب الأغنياء على الفقراء :

ذقت طعم الأسى وكابلت عيشا دون شربي قناه شرب الحمام
فتقلبت في الشقاء زمانا وتنقلت في الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقبا في فؤادي ومشى الحزن ناخرا في عظامي
فلهذا وقفت استعطف النا س على البائسين في كل عام (١).

وفي ديوان « حافظ » كثير من القصائد التي أنشأها في الدعوة الى
البر والاحسان ورعاية الطفل ، واعانة العميان ، ومساعدة الجمعية
الخيرية الاسلامية وملجأ الحرية وغير ذلك من أبواب الخير التي طرقها
« حافظ ابراهيم » بقصائده يستمطر المعروف ويستعطف أهل الخير
ويغريهم بما أعده الله للمحسنين من جزيل الثواب .

كذلك كان « عبد المطلب » يستثير نوازع الخير في قلوب الأغنياء
بتصوير أحوال الفقراء وما يلاقون من يؤس وحرمان . ومن ذلك ما يقوله
على لسان فقير كثير العيال له جار غنى يتقلب في ألوان العز واليسار
ولكنه لاه بنعمة اليسار عن حق الجوار :

فهل ددى جارنا عيالا غرثي الى كسرة قفار
تفت ايدى الغلاء فيهم قد حرموا رحمة التجار
ويلاه مالى وسمت نفسى بميسم الهون والصفار
دعوت من لم يجب دعائى رجوت من لم يقل عثارى
ذهلت لما بكى عيالى عن شيمة السيد الوقار
يا رب انت الرجاء فيهم يا رازق الوحش فى القفار (٢)

ولا شك أن مثل هذه الصورة الحية المنتزعة من الواقع الأليم الذى
كان يعيشه الفقراء فى هذه الفترة من شأنه أن يثير العواطف الجامدة ،
ويوقظ المشاعر الغافية ، ويهتف بأهل الخير أن يدركوا البؤساء .

(١) ديوان حافظ ابراهيم ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٩٢ .

ومن القصائد البليغة التي أثار بها « عبد المطلب » عاطفة الأغنياء
بتصوير أحوال الفقراء وما يكابدون من شظف الحياة قصيدته في « جمعية
المواساة الإسلامية التي يقول فيها :

أسألت باكية الدياجي مالها أرقت فأرقت النجوم حيالها
باتت تكفكف بالوقار مدامعا غلب الأسى عبراتها فأسالها
ثم يقول مستعطفا قلوب المحسنين :

من ذا يجير على الليالي أسرة خطف المنون غياثها وئمالها
أو من يمد يدا لنصر مصونة بذل الزمان قناعها فأذالها (١)

وإذا كانت الجمعيات الخيرية ، وملاجئ الأيتام والمشردين ودور رعاية
الأطفال والعميان وغيرهم من ذوى العاهة والحاجة - تؤدي دورا انسانيا
لعدد غير قليل من أفراد المجتمع فإن مؤازرة هذه الجمعيات ومساندتها
بالمال وبكل ما يدعم رسالتها ويعينها على أداء دورها الاجتماعي يعد لونا
من ألوان الشعر الاجتماعي ذي الصبغة الانسانية الدينية .

ومن ثم حرص الشعراء المحافظون على دعم هذه الجمعيات الخيرية
بالدعوة اليها وبيان رسالتها ، والاشادة بما تؤديه من خدمات انسانية
وكان « حافظ ابراهيم » في مقدمة الداعين الى انشاء هذه الجمعيات
والملاجئ الخيرية .

★★★

وكان ذم البخل والاشادة بالبر ، والتأكيد على حق الفقير في مال
الغنى ، والحث على أداء الزكاة المفروضة وبيان أثرها في تحقيق التكافل
الاجتماعي والقضاء على أسباب الصراع الطبقي .. كان ذلك جزءا من
رسالة الشعر الاسلامي المحافظ في اصلاح الأوضاع الاقتصادية في مصر
الاسلامية .

فيقول « شوقي » يذم البخلاء الذين يصمون آذانهم عن دعوة الخير
ويكتمون حق الله في أموالهم حبا للمال :

(١) المرجع السابق : ص ١٧٩ .

ولم أر مثل جمع المال داء
عجيب لعشر صلوا وصاموا
وتلفيهم حبال المال صما
لقد كتموا نصيب الله منه
ومن يعدل بحب الله شيئا
ولولا البخل لم يهلك فريق
ولا مثل البخل به مصابا
ظواهر خشية وتقى كذابا
إذا داعى الزكاة بهم أهابا
كان الله لم يحص النصابا
كحب المال ضل هوى وخابا
على الأقدار تلقاهم غضابا (١)

ويقول :

أرى الكريم بوجدان وعاطفة ولا أرى لبخل القوم وجدانا (٢)

ويقول « محرم » يذم البخل ويدعو إلى الانفاق مبيلا إلى خيري
الدنيا والآخرة :

ولقد تبينت الرجال فلم أجد
ما علر من رزق الغنى في قومه
لبوا بنى مصر دعائى واعلموا
وخذوا نصيبا من ثناء عاجل
فى الناس آلام من غنى باخل
ألا يكون أخالهن وفواضل
أن المفاخر للكريم الباذل
وثقوا بأخر من ثواب آجل (٣)

ويقول من قصيدة له ينعى على الأغنياء ضمنهم على الفقير بالعطاء
وحرصهم على المال حرص الشحيح :

ومن للفقير عناء الطوى
ضننتم عليه بنزر العطاء
وقلتسم له رازق لا يضمن
مقالة من لا يخاف الوعيد
فبات وامعاؤه تصطب
ولم تعرفوا حقه اذ وجب
ورزق يطالبه من كتب
ولا يتقى الله فيما وهب

(١) الشوقيات : ج ١ ، ص ٦٩ .

(٢) الشوقيات : ج ٢ ، ص ٨١ .

(٣) ديوان أحمد محرم : ج ١ ، ص ٧٧ .

حرصتم على المال حرص الشحيح فهلا وأموالكم تنتهب (١)

★★★

ومن أدب الاسلام فى الاحسان ألا يتبعه من ولا أذى ولا يرتجى فاعله
الجزاء من آخذه . وفى هذا يقول الكاشف :

لا ارتجى الاحسان من مؤسر يمتن بالفضل على مرتجيه
لا يكتفى أجرا على صنعه بريحه الشكر ولا يرتضيه (٢)

★★★

ويدخل « شوقى » الى النفوس من مداخل الايمان حين يشيد بالبر
ويعلى من مكانته بين شعب الايمان اغراء للقادرين بالبر فيقول :

البر من شعب الايمان أفضلها لا يقل الله دون البر ايماننا (٣)

ويمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبر فيقول :

والبر عندك ذمة وفريضة لائمة ممنونة وجباء (٤)

ويؤكد « شوقى » فى قصيدة أخرى على فضل البر فيقول :

وان البر خير فى حياة وابقى بعد صاحبه ثوبا (٥)

★★★

والزكاة ركن من أركان الاسلام تحدث عنها القرآن الكريم فى أكثر
من آية تنويعها بفضلها وأثرها فى حياة الأمة . فلو أننا أدينا زكاة أموالنا
كما فرض الله لقضينا على مظاهر البؤس ولنزعنا ما فى صدور الفقراء
من غل ، ولأمننا ساحة المجتمع من شرور الفقراء وجرائم البائسين .

(١) نشرت فى « وادى النيل » فى ١٩١٥/٤/٤ م .

(٢) ديوان الكاشف : ج ١ ، ص ١٢٨ .

(٣) الشوقيات : ج ٢ ، ص ٨١ .

(٤) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٨ .

(٥) الشوقيات : ج ١ ، ص ٦٩ .

وقد أثار الشعراء المحافظون هذه المعاني عندما تحدثوا عن الزكاة
في معرض الحث على انفاق المال وتخفيف المعاناة عن الفقراء الكادحين
فيقول « حافظ إبراهيم » :

وعلمنا أن الزكاة سبيل الله قبل الصلاة قبل الصيام
خصها الله في الكتاب بذكر فهي ركن الأركان في الإسلام
بدأت مبدأ اليقين وظلت لحياة الشعوب خير قوام
لو وفي الزكاة من جمع الدنـ يا وأهوى على اقتناء الحطام
ما شكا الجوع معدم أو تصدى لركوب الشرور والآثام
راكبا رأسه طريدا شريدا لا يبالي بشرعة أو ذمام
سائلا عن وصية الله فيه أخذ قوته بعد الحسام (١)

★★★

ويحذر « الرافعي » من ثورة الفقراء على الأغنياء إذا منع الآخرون
حق الأولين فيقول :

يظن الأغنياء الفقر ضعفا وكم من حية تحت الخراب
ولا يخشون ممن جاع بأسا وليس أضر من جوع الدئاب
الم تكن السفينة من حديد فما للملء يخرقها بناب
إذا شمخت على الأمواج تعلو فما بعد العلو سوى انقلاب (٢)

ويقول في المعنى نفسه من قصيدة أخرى : (٣)

واحفظوا للفقير فضل عفاف تركته بقية الإيمان
ان هذا الضعيف مفترس الطبا ع متى ثار جوعه الحيواني
شرس يضرب الفضيلة في الجد ع فتهدى بالجدع والأغصان

★★★

(١) ديوان حافظ إبراهيم : ج ١ ، ص ٢٨٧ .

(٢) ديوان الرافعي : ج ٢ ، ص ٢٦ .

(٣) نشرت « بالمقطم » في ١٩١٤/١١/٢٤ .

واذا كانت الزكاة كما يقول شوقي : « هي مال الفقير خلستموه ،
ورزق المحروم حبستموه وحق العاجز في الحياة بخستموه ، وحكم الله
الذي أغناكم قد دستموه » (١) .

فان الفقير متى يسترد حقه بالقوة لا يكون معتديا !!

وقد أشار « القاياتي » الى هذا المعنى فقال يخاطب الأغنياء :

في مالكم للمعتفن فريضة من هب يسلبها فليس بمعتدى (٢)

ولقد كان لظهور الدعوات الاشتراكية والدعاية لها بشكل آثار
آمال الفقراء في غد أفضل في ظل المذاهب الاقتصادية الجديدة .. كان
لذلك أثره في التفات الشعراء المحافظين نحو النظام المالي في الاسلام
فأخذوا يشيدون بنظام الاسلام في التكافل الاجتماعي وحل مشكلة
الفقراء على نحو لم يعرفه الاشتراكيون الى يومنا هذا . وذلك عن طريق
الزكاة التي قررها الاسلام حقا للفقير في مال الغني .

وفي هذا يقول « شوقي » يمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
ويشيد بنظام الاسلام في المال (٣) :

الاشتراكيون أنت امامهم	لولا دعاوى القوم والغلو
داويت مثلاً وداووا طفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة	لا منة ممنونة وجبه
جاءت فوحدت الزكاة سبيله	حتى التقى الكرماء والبخل
انصفت اهل النقر من اهل الغنى	فالكل في حق الحياة سواء

وقال من قصيدة أخرى : (٤)

أراد الله بالفقراء برا وبالأيتام حبا وارتبابا

(١) أحمد شوقي : أسواق الذهب ، ص ٩ .

(٢) نشرت بالأهالي : في ١٩١٥/٣/٢٦ - تحت عنوان (وارحمته للعالم العاطلين) .

(٣) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٨ .

(٤) المرجع السابق : ص ٧٠ .

يريد الخالق الرزق اشتراكا وان يك خص اقواما وحابى (١)
فما حرم المجد جنى يديه ولا نسي الشقى ولا المصابا

وهكذا اقام الاسلام نظاما اقتصاديا متوازيا يعيش فى ظله الفقير
الى جانب الغنى شريكا له فى حدود الحق المعلوم المفروض له فى مال
الغنى . ثم تكون لكل منهما - بعد ذلك - ثمرة جهده ونتيجة عمله
بقدر ما يملك من امكانيات وهذا هو العدل الاجتماعى القائم على احترام
الحق الطبيعى للانسان . وهو ما لم تهتد اليه المذاهب الاقتصادية
الى الآن .

وقد نجح الشعر الاسلامى المحافظ فى لفت الأنظار الى الحل الاسلامى
لمشكلة الفقر التى عانى منها الشعب المصرى أسوأ المعاناة . وسوف أعود
الى الحديث عن سياسة المال فى الاسلام بشئ من التفصيل عند الكلام عن
« الاتجاه الحضارى » فى « الباب الثالث » .

فاذا جزنا هذه المشكلة الاقتصادية الى مشكلة اجتماعية أخرى .
الفينا قضية التعليم تأخذ مكانها بين القضايا الاجتماعية المهمة التى
استلقت أنظار المصلحين وكان للشعر المحافظ فيها دور بارز وفكر موصول
بالاسلام وبدعوته الى العلم .

وكانت مشكلة التعليم فى مصر قد تضاعفت فى ظل سياسة الانجليز
الذين وضعوا الخطط للحد من ازدياد التعليم حتى تتوقف عجلة التطور
الاجتماعى فى مصر وكان القائمون على أمر التعليم من الانجليز فى هذه
الفترة « يعتقدون أن تعليم القراءة والكتابة فيه الكفاية بالنسبة لسواد
الشعب ، وأن بعض الموظفين الكتابيين يكفون لسد حاجة المصالح
الحكومية » (٢) .

(١) يريد : ميزم بقدر جهدهم . ولكن التوفيق جانبه فى اختيار اللفظ المعبر
ويبدو أن القافية قد اضطرته الى ذلك اللفظ .

(٢) د . حسن الفقى : التاريخ الثقافى للتعليم فى مصر ، ص ١٠٧ .

وقد جاء فى تقرير « كرومر » سنة ١٨٩٩ عن التعليم أن الحكومة ترمى الى غرض ذى شقين فأما الشق الأول فهو فى أن تنشر على أوسع نطاق ممكن لونا بسيطا من التعليم ينحصر فى الامام بمبادئ اللغة العربية والحساب ، وأما الشق الثانى فهو الرغبة فى اعداد طبقة متعلمة تعليما راقيا يفى بمطالب الخدمة فى الحكومة (١) .

ولا شك فى أن هذه السياسة التعليمية التى استهدفت تخريج آلات صم للعمل فى مكاتب الحكومة . قد أفقدت التعليم روحه المعنوية مما آثار انتقاد الانجليز أنفسهم . يقول (السير فالتين تشيرول) فى كتابه « المسألة المصرية » : « لقد كانت سياستنا التعليمية تفتقر الى الروح المعنوية والالهام القوى لأننا تركناها فى يد مستشار وزارة المعارف مستر « دانلوب » وكان « دانلوب » حسن النية دعوبا على الجد والعمل غير أن آراءه فى التربية لم تتعدد ما كانت توحى به تلك الدروس التربوية التى تلقاها فى حدائنه » (٢) .

ويقول مستر (بويد كاربنتر) : « على المستر « دانلوب » تقبح تبعة فساد التعليم المصرى والرجوع به القهقرى واخراج موظفين جيل اعتمادهم فى أثناء دراستهم على الاستظهار والحفظ لا على القوى العقلية السامية الأخرى من التعقل والموازنة والابتكار والاستنباط (٣) .

وكان من نتيجة هذه السياسة التعليمية أن ساءت حالة التعليم فى مصر كما وكيفا أما فى الكم فيكفى للدلالة عليه أن نسبة المتعلمين فى مصر قد تضاءلت الى النصف فى عهد « كرومر » على الرغم من جهوده فى نشر التعليم ومحو الأمية حيث ابتداء عهده فى سنة ١٨٨٣ ونسبة المتعلمين من الذكور بمصر ١٦٪ ورحل عن مصر سنة ١٩٠٧ ونسبة المتعلمين لا تزيد عن ٨٪ (٤) .

كما أن نسبة الأمية قد بلغت فى سنة ١٩١٧ (٩١٣٪) (٥) .

هذا من ناحية الكم . أما من ناحية الكيف فحسبنا ما يذكره الامام (محمد عبده) عن فساد التعليم فى المدارس الحكومية والأهلية حيث يقول :

(١) المرجع السابق : الصفحة نفسها .

(٢) عمر الدسوقي : فى الأدب الحديث ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٥) د. حسن الفقى : التاويخ الثقافى للتعليم فى مصر ، ص ١٠ .

« وأما مدارس الحكومة والمدارس الأهلية فليس فيها الا تعليم تقليدى صورى فى شكله وموضوعه للمدارس الأوربية ، وغايته تخريج موظفين للحكومة فى جميع وزاراتها ومصالحها يكونون كالآلات الميكانيكية لإدارة هذا العمل الكبير . وليس فيها شىء مما فى المدارس الأوربية من تخريج رجال مستقلين فى العلوم والفنون يرفعون قدر الأمة بما يكشفون من أسرار الكون ، وما يرقون من الصناعات فيها ، كما أنه ليس فيها أدنى فكرة فى تهذيب الأخلاق ورفع شأن الفضيلة بالتربية الدينية وقد صار أمرها الى الانجليز وكان المسيطر عليها أحد قسوس البروتستانت فكان جل همه محو كل أثر اسلامى » (١) .

ولذلك دعا الامام « محمد عبده » الى اصلاح التعليم والعناية بالتربية الاسلامية الصحيحة ايمانا منه بأن الأمة لا تتكون وتكون أمة واحدة فى شعورها بحياتها المالية ، ومصالحها العامة ، وبحاجتها الى التعاون على منافعها والدفاع عن حقيقتها فى جميع طبقاتها . الا اذا كانت التربية والتعليم للاحداث موجهين الى اصلاح الأنفس بالعقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة ، والآداب الحسنة ، والقيام بحقوق الله ، وحقوق الوالدين والأقربين والجيران فسائر الأمة (٢) .

وفى سبيل اصلاح التعليم تقدم الامام « محمد عبده » بمشروع تضمن مناهج للدراسات الاسلامية تتمشى وما يحتاج اليه الخاصة والعامة من الأمور المهمة والضرورية لغذاء أرواحهم وتكوين الوعي الاسلامى بينهم أجمعين (٣) .

وفى سبيل نشر التعليم فى مصر دعا الامام « محمد عبده » الأغنياء الى الاسهام فى تعليم الأمة عن طريق التبرع . وبذل الأموال فى سبيل افتتاح المدارس والمكاتب فقال : « على الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم ، وتطاول الأيدى الظالمة اليهم أكثر من الفقراء أن يتألفوا ويتحدوا ويبدلوا من أموالهم فى سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التعليم حتى تعم التربية ، وتثبت فى البلاد جراثيم العقل والادراك وتنمو روح الحق والصلاح ، وتتهذب النفوس ويشتهد الاحساس بالمنافع والمضار فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بنى غيرها من الأمم فنكون عند ذلك معهم فى رتب المساواة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا » (٤) .

(١) تاريخ الامام محمد عبده : ج ١ ، ص ٧٥٠

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) تاريخ الامام محمد عبده : ج ٢ ، ص ٥٠٥ / ٥٥٣ .

(٤) تاريخ الامام محمد عبده : ج ١ ، ص ١٥٠ .

وكان زعماء الحركة الوطنية في مصر حريصين على نشر التعليم بين طوائف الشعب ايمانا منهم بجذوى العلم وأثره في نهضة الأمة ، وكانوا على وعى بسياسة الاحتلال في اخماد جذوة العلم في مصر . ومن ثم اقترن الكفاح الوطني في هذه الفترة بالدعوة الى التعليم فكان زعماء الحركة الوطنية يقاومون الاحتلال ويدعون في نفس الوقت الى انشاء المدارس وانتشار التعليم فدعا « محمد فريد » الى انشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم العمال الفقراء مجانا ، كما دعا الى انشاء مدرسة ثانوية بعاصمة كل مديرية أو محافظة على الأقل (١) ، ودعا - كذلك - الى الاهتمام بالتعليم العالي ليتمكن خريجو المدارس العليا من خدمة بلادهم في ميادين الطب والهندسة والاقتصاد والثقافة (٢) .

★★★

وفي هذه الحقبة شهدت البلاد ميلاد الجامعة الأهلية التي افتتحت سنة ١٩٠٨ بفضل جهود المخلصين من أبناء الوطن الذين تحدوا ارادة الاحتلال في ابطال فكرة الجامعة بدعوى ان البلاد في حاجة الى الكتاتيب أكثر منها الى الجامعة ولكن الجهود الوطنية المخلصة قد تضافرت حول فكرة الجامعة واشتدت حركة الاكتتاب لها ، وزاد اقبال الجماهير على تأييدها حتى برزت الجامعة الى حيز الوجود سنة ١٩٠٨ .

وفي كل مراحل العمل الجماعي من أجل النهوض بالتعليم في مصر كان الشعور المحافظ شريكا في حركة الاصلاح الاجتماعي والدعوة الى نشر التعليم ، وبذل المال في سبيله وبيان فضل العلم وأثره والحث على طلبه .

يقول « حافظ ابراهيم » بحث الأغنياء على بذل المال في سبيل الجامعة الأهلية مبينا أثرها في حياة المجتمع :

ان كنتم تبدلون المال عن ذهب فنحن ندعوكم للبذل عن رغب

ثم يهجم على سياسة الاستعمار التي تستبدل الكتاتيب بالجامعة مع ان الكتاتيب مهما كثرت لا تغني عنها فيقول :

**ذرا الكتاتيب منشئها بلا عدد ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فانشاوا ألف كتاب وقد علموا ان المصابيح لا تغني عن الشهب**

(١) راجع : حسن الفتى : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٢) راجع : عبد الرحمن الرافعي : محمد فريد ، ص ٩٠ .

ثم يبين أثر الجامعة في حياة المجتمع من خلال من تخرجهم الجامعة من الأطباء والمهندسين والحقوقيين والمعلمين وغيرهم من المتخصصين في فروع العلم . فيقول :

من المداوى اذا ما علة عرضت من المدافع عن عرض وعن نشب
ومن يروض مياه النيل ان جمحت وانلرت مصر بالويلات والحرب
ومن يوكل بالقسطاس بينكم حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
ومن يبز اديم الأرض ما ركزت فيها الطبيعة من بدع ومن عجب
ومن يميظ ستار الجهل ان طهست معالم القصد بين الشك والريب
الى أن يقول :

فما لكم ايها الأقوام جامعة الا بجامعة موصولة السبب
هذا هو العمل المبرور فاكتبوا بالمال انا اكتبنا فيه بالآدب (١)

★★★

« ولحافظ ابراهيم » قصيدة أخرى (في الحث على مشروع الجامعة) (٢) حث فيها الأغنياء على البذل والعطاء ، وتعمير دور العلم واعتبار ذلك واجبا دينيا يحاسب عليه المرء يوم لا ينفع مال ولا بنون . وبين ان الانفاق في سبيل هذا العمل الخيري هو قرض لله تعالى يجزى عليه بالأجر الجزيل كما يجزى المجاهدين فيقول :

حياكم احيوا العلم والأدبا ان تنشروا العلم ينشر فيكم العربا
وراقبوا يوم لا تغنى حصائله فكل حى سيجزى بالذى اكتسبا
ان تقرضوا الله في اوطانكم فلکم اجر المجاهد طوبى للذى اكتبا

★★★

ويشيد « شوقي » بآثار العلم فيصوره وسيلة للقوة والفوز والسعادة والسيادة ويصوره سياج الأمة وحاسنها وحاميها ولا عجب

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٢٧٢ .

فالعلماء بأرائهم واختراهم وتدبيرهم ينهضون بشئون الوطن ومرافقه
ويذودون عنه ويحمونه من الغاصبين كما تحمى الأسود عرينها (١) يقول
شوقي في ذلك :

بالعلم تمتلك الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال
والعلم يعتصم الملك الكبير به كالغاب ما بين أساد وأشبال (٢)

ويقول من قصيدة أخرى : (٣)

والعلم في فضله أو في مفاخره دكن الممالك صدر الدولة الحال
إذا مشت أمة في العالمين به أبى لها الله أن تمشى بأغلال

ويقول من قصيدة له في رثاء « قاسم أمين » : (٤)

بالعلم يبنى الملك حق بنائه وبه تنال جلائل الاخطار
ولقد يشاد عليه من شم العلا ما لا يشاد على القنا الخطار

ويقول يستحث الخديو « عباس الثاني » على الاهتمام بالعلوم
والعمل على نشر التعليم مؤكدا أنه لا قيمة للسلطان بغير العلم :

فانصر بهمتك العلوم واهلها ان العلوم قليلة الانصار
لا يظهر الكبراء آية عزهم حتى يعزوا آية الأفكار (٥)

وقال يحث القادرين على الاسهام في تعليم أبناء الأمة :

فعلم ما استطعت لعل جيلا سيأتى العجب العجابا (٦)

(١) راجع : د. أحمد الحرفى : تحت راية الاسلام ، ص ٢٢٦ .

(٢) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٥٠٦ تحقيق : د. الحرفى .

(٣) ديوان شوقي : ج ٢ ، ص ٥١٢ تحقيق : د. الحرفى .

(٤) المرجع السابق : ص ٢٧٠ .

(٥) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٤٧٠ تحقيق : د. الحرفى .

(٦) المرجع السابق : ص ٦٠٦ .

كما حذرنا من اهمال التعليم لان العلم حياة النفوس والجهل موتها :

(١)
الجهل موت فان اوتيت معجزة فابعث من الجهل او فابعث من الرجم ويقول :

ترك النفوس بلا علم ولا ادب ترك المريض بلا طب ولا اسي (٢)
وفي الحث على طلب العلم يقول « محمد عبد المطلب » :

ان كنت تبغى المعالى فالعلم اهدى سبيلا
واطلب عليه مجدا واطلبه دهرا طويلا
كن بالعلوم ولوعا ترق المقام الجليلا
فاحقر الناس من قد طوى الحياة جهولا
العلم للمجد باب يا من يروم الدخولا (٣)

ويقول « أحمد الزين » : (٤)

ان العلوم ترفع المملوكا حتى تراه يفضل الملوكا (٥)
وليس يرفع الفتى باهله وماله ان يتضع بجهله
فاطلب العلم ولو بالصين لا تك عن طمأينه باللون

والعلم سلاح في يد الشعب يصون كرامتها ويحمي حماها ، يقول
« الغاياتي » :

ان في قبضة الشعوب حساما صادق البأس ماض العزمات
يدع الغامل الجبان شجاعا ويبث الحياة في الاموات

(١) الشوقيات : ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) ديوان شوقي ج ٢ ص ٦٠ .

(٣) ديوان عبد المطلب : ص ٢١٥ .

(٤) ديوان أحمد الزين : ثلاثه الحكمة ، ص ٢٩٠ .

(٥) فيه اشارة الى الحديث الشريف « ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك

حتى يبلغ درجة المملوك .

ويجبر البلاد من تكبات ويجبر العدا الى تكبات
ذلك العلم فاتخذ سلاحا يا فتى النيل فهو حرب العداة (١)

والعلم فى الاسلام ينبغى أن يطلب لله وأن يكون أداة خير لا وسيلة
افساد يقول « أحمد الزين » (٢) :

لا تبتغ العلم لغير الله ولا يكن همك كسب الجاه
لا تبغ له لطلب الحطام فانه من خلق الطغام
لا تتخذ سلم الافساد ان كنت ذا عقل وذا سداد (٣)

★★★

فاذا اتخذ العلم وسيلة للافساد ، وأداة للتدمير ، وقوة للباطل .
فان الاسلام يرفضه رحمة بالناس . وهذا ما يشير اليه « شوقى » فى
قصيدته (الطيارون الفرنسيون) (٤) اذ يقول عن الطائفة :

وب ان كانت لخير جعلت فاجعل الخير بتأديها لزأما
وان عثر بها الشر غدا فتعالت تمطر الموت الزؤاما
فاملا انجو عليها وجما رحمة منك وعدلا وانتقاما (٥)

ويقول « شوقى » يحمل العلماء وزر محدثات العلم التى ألحقت
الأذى والدمار بالناس :

يتقاذفون بذات هول لم تهب حرم المسيح ولا حمى الغدراء
من محدثات العلم الا أنها اثم عواقبها على العلماء (٥)

★★★

-
- (١) ديوان الغاياتى : وطنيتى ، ص ٩٢ .
(٢) ديوان : أحمد الزين : قلائد الحكمة ، ص ٣٥ .
(٣) الشوقيات : ج ٢ ، ص ٨٨ .
(٤) الشوقيات : ج ٢ ، ص ٨٨ .
(٥) الشوقيات : ج ٣ ، ص ٢ .

وقيمة العلم انما تكمن فى العمل به يقول « أحمد الزين » : (١)

واعمل بما علمته من علم تعمل به فوق متون النجم
فاطلب العلوم للأعمال لا للشهادات وكسب المال
ليست شهادات الغنى الأوراق لكنما الشهادة الأخلاق

ويقول « محرم » (٢)

والعلم ان لم تكتفه شمائل فاقهر بها دولة الأهواء والفتن

ويقول « حافظ ابراهيم » : (٣)

والعلم ان لم تكتفه شمائل تعليه كان مطية الاخفاق
لا تحسب العلم ينفع وحده ان لم يتوج ربه بخلاق

★★★

وأفة العلم الادعاء فهو جناية عليه وعلى صاحبه . يقول « أحمد
الزين » محذرا من هذا الشر : (٤)

اياك وادعاء ما لم تعلم فانه مجلبة التندم
تجنى على العلم بما ادعيت شرا وما لم تعلم
فآفة العلوم ادعياؤها ان اللعاوى ليس يؤسى داؤها
ولا تقل جمعت علما جما ان رمت أن تبعد عنك النما

★★★

والعالم لا ينبغي أن يضمن بعلمه على الناس ، بل عليه أن يؤدي
شكره بتعليمه الجاهل مبتغيا بذلك رضا الله تعالى :

(١) ديوان أحمد الزين : قلائد الحكمة ، ص ٢٩ .

(٢) ديوان أحمد محرم : ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٨٠ .

(٤) أحمد الزين : قلائد الحكمة ، ص ٣٢ .

من ضن بالعلم على الجهال ابخل من ضن بالأموال
فاستبق فضل العلم بالتعليم وذاك غرس الفهم بالتفهيم
علمه لا تبغ به جزاء ولا ترم حمدا ولا ثناء
لا تبغ بالتعليم ذخرا لجاه فانما الزخر رضاء الله (١)



وليس من شك في أن هذه الأفكار التي أثارها الشعر المحافظ حول موضوع العلم والتعليم موصولة بالاسلام وبدعوته الى العلم والحث على طلبه في اطار من الأخلاق والفضيلة والرغبة في نوال الأجر من الله تعالى .
وبهذه الأفكار والمعاني الاسلامية شارك الشعر المحافظ في حل مشكلة التعليم في مصر .



وكما شارك الشعر المحافظ في شرف الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى بفكر موصول بالاسلام في قضايا المرأة والاقتصاد والتعليم . شارك كذلك في قضية الشباب الذين اجتاحتهم موجة التقليد للأجانب وخطفت أبصارهم حضارة الغرب المادية . فتمردوا على تقاليد المجتمع واستخفوا بتعاليم الدين وتحللوا من قيود الفضيلة .

واذ ذاك تصدى المصلحون يؤازرهم الشعراء لهذه الظاهرة الخطيرة واضطلع الشعراء المحافظون برسالتهم فى الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى منتهجين فى دعوتهم لاصلاح الشباب أساليب متعددة .

منها أسلوب النقد والتقريع لهؤلاء الشباب المخنثين بهدف التأثير عليهم لتغيير سلوكهم الاجتماعى المقوت . على نحو ما رأينا فى الفصل السابق من هذا الباب (٢) .

ومنها الدعوة الى الاقتداء بعظماء الاسلام ولفت أنظار الشباب الى ما فى تاريخ المسلمين من مجود وحضارة . . . وسوف نزيد هذه المسألة ايضاحا عند الحديث عن « الاتجاه الحضارى » فى الباب الثالث .

(١) أحمد الزين : قلائد الحكمة ، ص ٣٢ .

(٢) انظر : ص ١٠١ من هذا البحث .

ومنها الدعوة المباشرة الى التمسك بالدين والتخلق بأخلاق الاسلام الحميدة . ومن ذلك ما يقوله « أحمد محرم » يحث على التمسك بالدين والاعتصام بحبله المتين :

هل الدين الا معقل نحتفى به	اذا دلف العادى الينا فأسرعا
هو الدين ان يذهب فلا عز بعده	وان جد ساعينا على اثر من سعى
ولا دين حتى ينزعوا عن ضلالهم	ويمصبح منهم موطن الغى بلقعا
وحتى يصـونوا للكتاب زمامه	وحتى يكونوا ساجدين وركعا
هنالك يقوى منهم ما تضعفنا	ويثبت من بيانهم ما تززعنا (١)

ويقول « الكاشف » يدعو الى التمسك بتقاليد الدين لأنه خير منهج للحياة : (٢)

بنى الشرق ؟ ادعوكم الى خير منهج	يعيد اليكم نضرة العيش ثانيا
أسركم ان المحارم تستبى	ولم تلق فيكم عن حماها محاميا ؟
واعجبكم أن الطرائق تعتفى	ولم نر منكم يا بنى الشرق واقيا
وان لكم سيفا من الدين ماضيا	يفل اذا جردتموه المواضيا
واحيوا به نهج النبى وجددوا	مقاما لدين الله أصبح باليا
وردوه حتى تستعيدوا شبابه	نضيرا والا عاش ظمآن ذاويا
فارضوه عنكم بانتهاج طريقه	فما أجمل الدنيا اذا بات راضيا
هنالك نحيا فى نعيم ونضرة	وتأمن علوان العدى واللياليا

ويقول « عبد المطلب » يرغب الناشئة فى مكارم الأخلاق :

ابنى بالأدب اعتصم	واعمل كأعمال الكرام
من لازم الأدب ارتقى	بين الورى أعلى مقام

(١) ديوان محرم : ج ١ ، ص ١١٣ .

(٢) ديوان الكاشف : ج ١ ، ص ٩١ .

لا عز في الدنيا بغير بر أخى الوكيل والاحتشام
ابنى بالصلق أدع فالصلق محملة الكرام
واحلم فان الحلم صا حبه هو الرجل الهمام
واقنع فليس أخو القنا عة في الردى أبدا يضام
وذر الخيانة للخثو ن فانها عيب وذام (١)

★★★

ويقول « نسيم » يدعو الى غض البصر كما أمر الله :

غضوا كأمر الله من أبصاركم تحيوا العفاف وتقتلوا الآثاما (٢)

ويقول « أحمد محرم » يدعو الشباب الى بر الوالدين كما أوصى
الله سبحانه وتعالى : (٣)

للوالدين حقوق غير خافية أوصى بها الله تيانا وتعلينا
فلا تعفهما ان كنت ذا أدب ولا تغفهما برا وتعظيما
اذكر صنيعهما اذ أنت بينهما بموضع القلب وما تنفك ملزوما
اذكر وما بك نسيان لحقهما ما كان في محكم التنزيل مرقوما
اذكر قرارك في جنبى معذبة تغلوك من دمها جبا وتكريما

الى غير ذلك من ألوان الدعوة المباشرة الى حسن الخلق وفضائل
الأعمال التى دعانا اليها الدين الحنيف .

★★★

وهكذا عالج الشعر المحافظ فى مصر قضية الشباب بروح اسلامية
مشاركاً بذلك فى شرف الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى .

-
- (١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٧٨ .
 - (٢) ديوان نسيم : ج ٢ ، ص ٥٧ .
 - (٣) ديوان محرم : ج ١ ، ص ١٤٧ .

ولقد يمكننا في ضوء ما تقدم أن نثبت بعض الملاحظات :

أولا : أن الشعراء المحافظين في هذه الفترة كان نبض الجماهير وصوت الأمة في جهادها ضد الجهل والفقر والتخلف وعوامل الانحلال .

وإن الشعراء المحافظين قد أدوا رسالتهم في إصلاح المجتمع ونهضته جنبا إلى جنب مع المصلحين الذين احتفظ لهم التاريخ بالذكر الحسن .

ثانيا : أن الشعراء المحافظين لم يهيموا في أودية الخيال وشعوبهم تتلوى جوعا وتئن تحت وطأة المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية - صنع غالب شعرائنا في هذا العصر - وإنما نسوا - إلى حد ما - ذواتهم وانغمسوا في تيار الحياة الاجتماعية موقنين بأن من إنسانية الشاعر أن يكون في قومه نغما شاديا تستريح إليه نفوسهم وتستجيب له عواطفهم وتتلاقى عنده آلامهم وآمالهم . وأن من أمانة الكلمة أن تكون لوجه الحق، ولخير المجتمع . ومن ثم كان عطاؤهم في هذا الميدان الاجتماعي كبيرا .

ثالثا : أن ما أشرت إليه من أفكار الشعراء حول قضايا المرأة والمال والتعليم والشباب إنما يختص بما يقع منها في فترة البحث فحسب وأن ما طرحه الشعراء في هذه الفترة من أفكار إسلامية لم يكن غاية جهادهم الإسلامي في ميدان الحياة الاجتماعية بل كانت لهم آراء وأفكار إسلامية أخرى نبعت من وحى الظروف والمتغيرات الاجتماعية الجديدة .

بمعنى أننا لو مددنا هذه الدراسة إلى فترة تالية لوجدنا أفكارا ومضامين جديدة . وهذا يدل على أن الشعراء المحافظين لم يجمدوا في مواجهة الأحداث والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتجددة .

ولعل بهذه الإشارة إلى محدودية الأفكار في فترة البحث أنفي عن شعرائنا المحافظين ما قد يتهمون به من سطحية الأفكار وضآلة الثقافة ، مؤكدا أن بواكير القضايا - كثيرا ما - يغلب عليها طابع العموم والسطحية .



البَابُ الثَّالِثُ

الاجتهاد الحضارى



ويشتمل على فصلين

الفصل الأول :

الاشادة بالحضارة الاسلامية

الفصل الثانى :

التعريف بالاسلام فى مواجهة التحديات

الفصل الأول

الإشادة بالحضارة الإسلامية

اتجه الشعراء المحافظون نحو الحضارة الإسلامية يشيدون بعطائها ويمجدون بناتها ويهتفون بالاسلام الذي صنعها ، وبالأمة التي حملتها الى الناس فأخرجتهم من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، ومن بدانة الأخلاق والسلوك الى حضارة القيم وانسانية الانسان .

وكان هذا الاتجاه نحو الحضارة الإسلامية - فيما يبدو لي - محاولة لرد اعتبار المسلمين في هذه الفترة التي كان الشرق الاسلامي فيها يتردى في مهاوى التخلف والجمود . ويترنح تحت ضربات الاستعمار ، وتتهاوى أعلامه تحت أقدام الغزاة . وتعجز إمكاناته عن المواجهة المتكافئة مع الحضارة الغربية الناهضة . وكانت مصر من بين البلاد الإسلامية التي سقطت في قبضة الاحتلال وانخرطت في سلك التبعية والقهر وتوارت في ظلام التخلف واليأس .

وفي ظل هذه الظروف أحس المسلمون بشيء غير قليل من المهانة والضعف فاستداروا نحو التاريخ الحضاري للمسلمين في الماضي يستلهمون من صفحاته المضيئة ما يرد الى المعاصرين ثقتهم بأنفسهم . وأملهم في استعادة ما كان لهم من ماضٍ مجيد ، وحضارة باهرة .

وبذلك كان الاتجاه نحو الماضي نوعاً من مقاومة الاحساس بالهزيمة والضعف واستعلاء على الحاضر المهين باستدعاء صور الحضارة المشرقة من الماضي العزيز رفضاً للواقع الأليم ، وتمرداً عليه ، وحفزاً للهمم ، وشجراً للعزائم واستنفاراً للطاقات الكامنة في النفوس .

ثم كان هذا الاتجاه - من قبل ومن بعد - رد فعل لتيار العداء للإسلام الذي تزايد في هذه الفترة ، وظهرت آثاره في كتابات الساسة والمفكرين من زعماء الغرب الذين تجرأوا على الإسلام ، وصوبوا إليه سهام نقدهم متخذين من واقع المسلمين دليلاً على تخلف الإسلام وبدأوته وعدم صلاحيته للحياة المدنية المتحضرة .

ومن ذلك ما كتبه « كرومر » طعنا في الدين : « أن الإسلام ناجح كعقيدة ولكنه فاشل كنظام اجتماعي ، فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي - أن الإسلام دين مناف للتجديد ولم يكن صالحاً إلا للزمن والمحيط اللذين وجد فيهما أن المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره لأنه يأمرهم بالحمول والتعصب ، ويبث فيهم روح البغض للاغيار ، والشقاق وحب الانتقام وأن الإسلام على الجملة هو العقبة الكؤود في سبيل رقي الأمة الإسلامية » (١) .



وليس يخفى - بطبيعة الحال - ما وراء هذا الكذب على الإسلام من رغبة في تمزيق وحدة المسلمين وإضعاف ثقتهم بهذا الدين الذي يعرف الغرب أنه مصدر قوة المسلمين وأنه العقبة الكؤود في وجه الزحف الاستعماري على بلاد الإسلام .

وكان إدراك المسلمين لهذه الحقيقة دافعا لهم إلى الذود عن حياض الإسلام والرد على مطاعن الخصوم وتقنيده مزاعمهم وإثبات أن الإسلام روح المدنية (٢) .

ولقد يكون من الانصاف للإسلام أن نحتكم إلى التاريخ الذي لا تكذب أسانيده في الدلالة على ما كان للمسلمين من حضارة وأنشأها الإسلام وأمدّها بقيمة ورعاها المسلمون حتى رعايتها حتى أثمرت واينعت ونعم خيرها المشرق والمغرب .

(١) راجع : ★ أنور الجندي : الإسلام في معركة « التفريب » ، ص ٦٣ .

★ د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(٢) من أهم ما صدر في مقام الرد على مزاعم « كرومر » حينئذ :

★ اللورد كرومر والإسلام - ردود وملاحظات « لحمد فريد وجدي » سنة ١٩٠٧ .

★ الإسلام روح المدنية - أ . - الإسلام واللورد كرومر - « مصطفى الفلايحي » .

بيوت ، سنة ١٩٠٨

فمن المسلمات التاريخية لدى كثير من الباحثين أن الحضارة الإسلامية كانت قد بلغت قمة مجدها الأدبي والمادي بينما كانت أوروبا تعيش عصر الظلام والتعميم وتحيا حياة البداوة والهمجية ، وأنه في الوقت الذي كان المسلمون فيه يرفلون في حلل الحضارة وينعمون بحياة المدنية والرفاهية ، ويستظلون بلواء العدالة والحسنة والأمن ويعكفون على مدارس القرآن الكريم وعلوم اللغة وآدابها ، ويترجمون علوم الأمم وآدابها وفلسفاتها إلى اللغة العربية - في هذا الوقت - كان الغربيون متوحشين جاهلين لا يعرفون طعم الراحة ، ولا يتذوقون عيش الرفاهية ، لا أمن ولا إدارة ملوك يعرفون واجبهم في إقامة العدل وتوطيد الأمن وهم في كل أحوالهم إلى حالة البوادي أقرب منهم إلى حياة المدن والحضارة » (١) .

وبينما كانت كتب الفلسفة والعلوم المادية والأدبية يتنافس فيها علماء العرب في بغداد وقرطبة وترجم للمنصور العباسي الكتب من اللغة العجمية إلى اللغة العربية وتخرج إلى الناس وآرائهم من تقدم وتأخر من الفلاسفة ، الأول من بنى عباس يشرفون على علوم الناس وآرائهم من تقدم من الفلاسفة وغيرهم من الشرعيين وتجسروا في مجالسهم مباحث في أنواع العلوم من العقلية والسمعية في جميع الفروع والأصول . . بينما كان الحال على هذا النحو كان « شارلمان » أعظم ملوك أوروبا وهو معاصر للرشيد العباسي أقرب إلى الأمية منه إلى النور يحاول أن يتعلم ويتحجب إلى الآداب تحببا ساذجا كما يحب غير المتعلمين أن يروا أحيانا السطور المكتوبة (٢) .

ويوم كانت المدنية الإسلامية في أسبانيا زاهرة باهرة كانت المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد الغرب عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة ، متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون وكان أكثر رجال النصرانية معرفة من الرهبان المساكين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع (٣) .

وفي الوقت الذي كان الفن الإسلامي يقدم نماذج رائعة للعمارة الإسلامية كما تشهد بذلك آثار المسلمين في الجامع الأموي بدمشق ، وفي قصر الحمراء ومسجد قرطبة ومسجد الحمراء بالأندلس ، كانت الدور

(١) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية . ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٣ / ١٩٠ .

(٣) دغوستاف لوبرون : حضارة العرب . ص ٥٦٦ .

في لندن وباريس أكواخا صغارا والقلاع والأبراج والكنائس لا هندسة لها ، (١) .

وليس من قبيل المبالغة ما يؤكد الباحثون من أن النهضة الإسلامية الباكورة كانت شاملة لكل ألوان الحضارة العلمية والعملية أو العقلية والمادية .

فالى جانب ما تقدم من ألوان النهضة العلمية وتشجيع الخلفاء للعلم والعلماء وعنايتهم بالترجمة من علوم وفلسفات الأمم الى اللغة العربية وحرصهم على جمع الكتب الى الحد الذى جعل المأمون العباسى يطلب الى ملك الروم لما غلبه . كتب العلم التى عنده (٢) الى جانب هذه النهضة العلمية . كانت هناك نهضة عمرانية تمثلت فى البناء والتشييد وأعمال الهندسة كما تمثلت فى الزراعة والصناعة وكان الوليد بن عبد الملك الأموى ممن عنوا بالبناء والعمران وأنفقوا فى ذلك كثيرا من الأموال فقد توسع فى اقامة المصانع والجوامع وزين مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم وكاتب ملك القسطنطينية فبعث اليه أربعين رجلا من الروم وأربعين رجلا من القبط ووجه اليه أربعين ألف مثقال ذهباً وأحمالا من الفسيفساء وحلي المسجد بالفضة والذهب وفرشه بالمرمر وكذلك فعل الوليد فى الحرم المكى والجامع الأموى فقد أنفق على جامع دمشق خمسة ملايين وستمائة ألف دينار وجلب له مائتى عامل من الروم وكان من خلفائهم فى الأندلس فى باب العمران ما هو عجيبة الايام والدهور (٣) .

ويعترف المؤرخ الفرنسى « لا ريل » فى كتابه (مدنية الاسلام بأسبانيا) بمزايا المسلمين فى الصناعة والزراعة والبناء وخصائص الهندسة العربية ويقرر أن المسلمين هم أول من استعمل المدافع النارية فى أوروبا وأنهم فاقوا الغربيين فى جميع الفنون (٤) .

ولم تكن هذه الحضارة اليانعة التى جمعت بين ماديات الحياة ومعنوياتها الا ثمرة من ثمرات الاسلام فى الدعوة الى البحث والنظر وطلب العلم .

(١) د . أحمد الحرفى : القومية العربية فى الشعر الحديث ، ص ٣٥٢ .

(٢) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٦١ / ١٦٢ .

(٤) أنور الجندى : الاسلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى ، ص ١١١ .

هذه الدعوة التي استقبلها المسلمون الأوائل في اطار التكاليف الدينية ونظروا اليها من منظور ايماني قد حبيت اليهم البحث والنظر وطلب العلم والحرص على اتقان مسائله واحراز قصبة السبق في ميدان حتى ظهر منهم النابغون وجهابذة الفكر في شتى ألوان المعرفة ولا تزال الأجيال رغم تطور الزمن وتقدم العلوم ومناهج البحث . تردد أسماء ابن الهيثم والكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، والبيروني ، والطوسي ، والبغدادى ، والدينورى ، والرازي والحكيم ، والترمزي ، والقزويني ، والانطاكي ، والزهرأوى ، والخوارزمي ، والصوفي ، والجاحظ ، وابن حيان وابن البيطار ، وابن النفيس ، والادريسي ، والمسعودي ، وابن بطوطة ، وابن خلدون . . وغيرهم من رجال البحث والتخصص (١) الذين أثرت الحضارة الانسانية بعطائهم في ميدان الطب والفلك والكيمياء والطبيعة والفلسفة والاجتماع والأدب واللغة وسائر العلوم الانسانية التي سجل التاريخ فيها فضل المسلمين بما ابتكروه أو أضافوه أو حققوه من هذه العلوم التي وجهتهم اليها أو شجعتهم عليها دعوة الاسلام الى العلم وتكريمه للعلماء .



ان الاسلام هو صانع هذه الحضارة بكل خصائصها ومقوماتها من خلال ما دعا اليه من قيم ومبادئ تنتظم الحياة الانسانية كلها وتغطي جوانب النشاط البشرى عامة وترعى شئون الانسان في جميع أحواله السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وما شعر المسلمون يوما وعلى امتداد تاريخهم أن الاسلام قد عاق تطورهم الحضارى ولكنه على العكس من ذلك هو الذى أخذ بأيديهم نحو المدنية الصحيحة التي غيرت مجرى التاريخ البشرى ووضعت العالم على بداية الطريق نحو النور ، ولا يستطيع أحد من الباحثين المنصفين أن ينكر فضل الحضارة الاسلامية وتأثيرها في نهضة العالم . ولا سيما أوروبا بل لا يستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش في العالم المتمدن المعمور أن تدعى أنها لم تتأثر بالاسلام والمسلمين في قليل ولا كثير يقول (Robert Briffal) في كتابه (The making of Humanity) : « ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا وللحضارة الاسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير .

(١) أحمد السايح : مستقبل الحضارة الاسلامية ، ص ٧٩ .

ويقول في موضع آخر :

« لم تكن العلوم الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل الى العرب) هي التي أعادت أوروبا الى الحياة ، ولكن الحضارة الاسلامية قد أثرت في حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى الى أوروبا » (١) .

يقول (ديفونويب) في كتابه « اعتذار الى محمد والاسلام » : « يجب أن نعترف بأن علوم الطبيعة والفلك والفلسفة والرياضيات التي أنعشت أوروبا منذ القرن العاشر مقتبسة من القرآن ، بل ان أوروبا مدينة للاسلام بأكثر من ذلك لأن الدين الذي أمر بالدستور والديمقراطية ونهى عن الاستبداد في قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » و « وشاورهم في الأمر » قد فتح أمام الانسانية الحقوق المدنية .

ولند أوروبا أنها مدينة للمسلمين بحفظ آداب الغرب القديمة حينما كانت هي في ظلام دامس فحفظوا آثار فلاسفة اليونان وآثار علوم الطب أو الهندسة وبالجمله فالمسلمون هم أساتذة أوروبا (٢) .

ويعترف (جوستاف لوبون) بفضل المسلمين على حضارة أوروبا وبتأثير مدنيتهم فيقول : « انه اذا كانت هناك أمة تقرر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في انقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافا أبديا .

ويقول :

« ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة قرون ، ويمكننا أن نقول ان تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام الى أيامنا » (٣) .

(١) ابو الحسن النووي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٤٢ .

(٢) أبو الحنديل : الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني ، ص ١١٢ .

(٣) د. جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٥٦٨ / ٥٦٩ .

ويقول « كمال ولف شحومالكو » :

« حينما كانت أوروبا منسلكة في دياجير الظلمات نفذ الى أوروبا شعاع من أشعة الحضارة المشرقة من بلاد الاسلام أن تعاليم القرآن وأحاديث النبي نفخت في الأمة الاسلامية روحا قويا أوجدت تقدما باهرا ورقيا عظيما ، هذه الروح سرعان ما تسربت الى أوروبا ولا سيما عن طريق أسبانيا فهيات عوامل نهضتها في أواخر القرون الوسطى .. ان للاسلام في تاريخ الغرب معنى عظيما وأهمية كبيرة لم يستطع أحد بعد ادراك كنه ذلك وغايته .. والفضل للاسلام في ايجاد روح البحث والانتقاد بأرض أوروبا حتى استطاعت التعصب للمعتقدات الوهمية المناوئة لتقدم العلم ورقى الفكر (١) » .

ويقول « سديو » في كتابه « تاريخ العرب » :

« كن المسلمون في القرون الوسطى منفردين في العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها أينما حلت أقدامهم وتسربت عنهم الى أوروبا فكانوا هم سببا لنهضتها » (٢) .

ويؤكد « أبو الحسن الندوي » في كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » على أهمية المدنية الاسلامية وتأثيرها في الاتجاه البشري عامة ، وفي الحضارة الأوروبية خاصة فيقول :

« كان ظهور المدنية الاسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الاسلامية بشكلها ونظامها في القرن الأول لهجرة محمد صلى الله عليه وسلم فعلا جديدا في تاريخ الأديان والأخلاق ، وظاهرة جديدة في عالم السياسة والاجتماع ، انقلبت به تيارات المدنية ، واتجهت به الدنيا اتجاها جديدا » (٣) .

ثم يقول : « ويمكن أن يطالع تاريخ أوروبا الديني وتاريخ الكنيسة انصرافا أن يتلمس تأثير الاسلام العقلي في نزعات المصلحين والتأثرين على النظام الأسقي السائد » .

(١) المرجع السابق : ص ١٠٨ .

(٢) أحمد السايح : مستقبل الحضارة الاسلامية ، ص ٨٢ .

(٣) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٣٥ .

أما دعوة « لوثر » الإصلاحية الكبيرة فقد كانت على علاتها أبرز مظهر للتأثير بالاسلام وبعض عقائده كما اعترف المؤرخون . وترى كذلك تأثيرا للعقلية الاسلامية والشريعة الاسلامية في أخلاق الأمم اجتماعها وتشريعها في أوروبا النصرانية وفي الهند الوثنية بعد الفتح الاسلامي تراه وتلمسه في الاتجاه الى التوحيد ، ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر الى غير ذلك مما سبق اليه الاسلام ، وامتازت شريعته ومدنيته (١) .



ومهما يكن من أمر فلا سبيل الى انكار فضل الاسلام على البشرية ، وافادتها من حضارته وتأثيرها بمدينة المسلمين التي أشاعت النور في أرجاء العالم ، وكانت سببا في نهضته ولولا مدينة المسلمين في الأندلس «لتأخرت - بضعة قرون - نهضة أوروبا» (٢) ولظل ظلام القرون الوسطى مخيما على الغرب الى وقت قريب ولكن شعاع الحضارة الاسلامية الذي أضاء في سماء الأندلس قد اطلع فجر النهضة في هذه البلاد بما حمله المسلمون اليها من شريعة وأخلاق وقيم وآداب وعادات وتقاليد ونظم وإدارة وعلوم وفنون وصنائع أحيوا بها موات تلك الأقطار ، وزرعوا فلولاتها ، وعمرؤا مدائنها ، ومدنوا أهلها ولقنوهم معنى الحياة الراقية (٣) .



فاذا كانت تلك شهادة التاريخ بأقلام المنصفين من مؤرخي الشرق والغرب عن فضل الحضارة الاسلامية على مدينة العالم وعلى النهضة الأوروبية بوجه خاص فماذا قال الشعر المحافظ عن هذه الحضارة ؟

لقد هتف الشعر الاسلامي المحافظ بهذه الحضارة ، وأطال الوقوف على معالمها وحيا آثارها ، وأشاد بصنائعها وبآلامه التي حملتها الى الناس .

وكانما أراد الشعراء أن يردوا الى الأمة ما انتقصه الأعداء من كرامتها وأن يكشفوا ما انطمس من ملامح مجدها ، ومعالم حضارتها ، وأن يذكروها - وما أحوجها الى الذكرى - بماضيها العريق ، وتاريخها المشرق يوم كانت مصدر اشعاع حضاري تستقبل الدنيا ضوؤه في اعجاب وامتنان .



-
- (١) أبو الحسن الندوي : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .
(٢) د . أحمد الحوفي : القومية العربية في الشعر الحديث ، ص ٣٥٢ .
(٣) راجع : محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية . ج ١ ، ص ٢٤٤ / ٢٤٨ .

لقد أعجب الشعراء المحافظون بالحضارة الاسلامية وبآثارها المادية
والمعنوية التي تدل عليها الحواجز الاسلامية في عهد بنى أمية والعباسيين
وفي عهد الفاطميين والأيوبيين .

فهذه دمشق قد كانت في عهد بنى أمية مقر الملك ، ومقعد التاج
ومهد المعالي ، وعروس البلاد ، ورمز الجمال والجلال ، وفيها يقول
« شوقي » يصف معالم الحضارة في عهد بنى أمية :

أما دمشق فمقر الملك	ومقعد التاج ونظم الملك
بل شامة والشام وجنة الثرى	تurf فردوسا وتجري كوثرها
مهد معالي ملكهم واسها	لا عجب أن يرفعوها للسها
وتزلف الدنيا لها وتجبي	ويتثنى بها الزمان عجبا
حتى جلتهها دولة الوليد	في أزين الطريف والتليد
وكمليت محاسن العروس	وعوزت بالجامع المحروس
تأنقت يد الوليد فيها	واستبقت أكف مترفها
تفيض من عجائب العمارة	وحجر الصلالة والامارة (١)

ويقول يصف تقدم المسلمين في فن العمارة كما يتجلى في مسجد
« قرطبة » الذي بناه « عبد الرحمن الداخل » بالاندلس منذ أكثر من ألف
عام وكان آية من آيات الفن الاسلامي :

ورقيق من البيوت عتيق	جاوز الألف غير مذموم حرس
أثر من محمد تراث	صار للروح ذى الولاء الأسمى
بلغ النجم ذروة وتناسى	بين ثهلان في الأساس وقنسى
مرمر تسبح النواظر فيه	ويطول المدى عليها فترسى
وسوار كأنها في استواء	القات الوزير في عرض طرسى (٢)
فترة الدهر قد كست سطرها	ما اكتسى الهلب من فتور ونعس

(١) أحمد شوقي : ديوان : دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٧٤ / ٧٥ .

(٢) الوزير : هو « ابن مقله محمد بن على (٢٥٢ هـ - ٣٢٩) » تولى الوزارة أربع
مرات ، ولكن مؤامراته أودت به الى السجن والى قطع يده . وقد اشتهر بجودة خطه .

ويحها كم تزينت لعليم واحد الدهر واستعدت لخمس
 وكان الرفيف في مسرح العين ملاء مدنرات الدمقى
 وكان الآيات في جانبيه يتزلن من معارج قلس
 صنعة الداخل المبارك في الفر ب وآل له ميامين شمس (١)

★★★

وقال يصف قصر الحمراء بغرناطة ، الذى بناه بنو الأحمر ، وكان
 صورة من صور الفن الاسلامى فى نقوشه وألوانه التى بهرت السائحين
 فوقفوا أمامها خاشعين :

من لعمراء جللت بغير الد هر كالجرح بين برء ونكس
 كست البرق لومعا الضوء لحظا لمحتها العيون من طول قبس
 حصن غرناطة ودار بنى الأحمر من غافل ويقظان ندس
 سمره شبيهه ولسم أر شييا قبله يرجى البقاء وينسى
 ثم يقول :

لا ترى غير وافدين على التا ريخ ساعين فى خشوع ونكس
 نقلوا الطرف فى نضارة وائى من نقوش وفى عصارة ورسى
 وقباب من لازورد وتبر كالربى الشم بين ظل وشمس
 وخطوط تكفلت للمعاني ولألفاظها بأزين لبس (٢)

★★★

(١) الداخل : عبد الرحمن بن معاوية بن هشام مؤسس الدولة الأموية بالاندلس ،
 الملقب بصقر قریش - أرسى مركبه بالاندلس سنة ١٢٨ هـ (٧٥٥ م) لقب بالداخل لأنه
 أول من دخل الأندلس من ملوك الأمويين .

(٢) ذكر شكيب أرسلان أنه قرأ على جدران قصر الحمراء قصيدة بالخط المنحى
 راجع د. الحوفى : ديوان شوقي ، ج ١ ، ص ٢١١ .

وقال يصف « بغداد » في عهد العباسيين ، وكانت بغداد عاصمة
للكهمل اختطها « المنصور » لتكون دارا للملك ، ومنهلا للعلم ، ومقصدا
للنبوغ والتفوق :

واختط بغداد على التسدير دار الملك يسر مديد
كانت لأيام البهاليل سمة ومهرجان ملكهم وموسمه
ينجم فيها النابغ السعيد وينجب المقتبس البعيد (١)

وكان عصر « المنصور » عصرا ميمونا فاض الخير على الحواضر
والبوادي ، وعم الرخاء القاصي والداني ، وساد الأمن أرجاء البلاد ، وتقدمت
الصناعة ، ونهضت العلوم والفنون وكثرت الترجمة من العجمية الى
العربية ، ونقل العلما كثيرا من آداب الامم وحكمتها وفلسفتها وعلومها
وقد امتدح شوقي عصر المنصور وباهى بالنهضة العلمية في أيامه النواضر
فقال :

انظر الى أيامه النواضر وظلها الوارف في الحواضر
عشرون في الملك روض امناء وفضن نعماء ، وسلن يمناء
أدر من صوب الغمام دخلا على أشد الخلفاء بخلا
يخاف في مال العباد الله ما تبع الدنيا ولا تسلاهي
للسلم آلات وللحرب أهب جماعهن هي الممالك الذهب
ولا تسل عن هممة العقول ونهضة العقول والنقول
وكثرة النياقل والمعرب عن حكمة الفرس وعلم المغرب (٢)

ويشيد « شوقي » بما بلغت حضارة العباسيين في بغداد من مجد
تطامننت له حضارة روما وأثينا وما حوتا . فيقول :

(١) أحمد شوقي : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

دع عنك روما واثينا وما حوتا كل اليواقيت في بغداد والتوم
 دار الشرائع روما كلما ذكرت دار السلام لها ألفت يد السلام
 ما ضارعتها بيانا عند ملتام ولا حكمتها قضا عند مختصم
 ولا احتوت في طراز من قياصرها على رشيد ومأمون ومعتصم
 من الذين اذا سارت كتابهم تصرفوا بحدود الأرض والتخم
 ويجلسون الى علم ومعرفة فلا يدانون في عقل ولا فهم (١)

★★★

والحق أن هذه الحضارة الاسلامية الزاهرة في بغداد لم تنشأ من فراغ وانما كانت امتدادا لحضارة المسلمين في عصر الخلفاء الراشدين ثم في عصر بني أمية فقد عرف المسلمون في هذين العصرين ألوانا من الحضارة المادية والمعنوية منها ركوب المسلمين البحر في عهد عثمان بن عفان، ومعرفتهم بصناعة السفن وسيطرتهم على بحر الروم في هذا الوقت الباكر من تاريخ الاسلام .

وقد أشاد « شوقي » بهذه الحضارة وبالرجال الذين صنعوها فقال : (٢)

قد فتحوا قبرص للامام بالسفن المزجاة كالغمام
 فأصبح القاصي من البر اقرب وصار بحر الروم لجة العرب
 وخفقت كتاب الاسلام في البحر اعلاما على اعلام
 فخر لدى النورين اي فخر وهمة تذكر لابن صخر (٣)

ثم اتسعت موجة الفتوحات في عهد الأمويين برا وبحرا ، واتسعت رقعة الاسلام ، ودانت ممالك للمسلمين ، وانتشر الرخاء ، ونهضت العلوم والآداب ، وظهر الخطباء والشعراء وقادة الممالك .

(١) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٦٣١ ، توثيق د. الحوفي .
 (٢) أحمد شوقي : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٥١ .
 (٣) ابن صخر : هو : معاوية ابن أبي سفيان - رضي الله عنه - أول من ركب البحر .

وقد نوه شوقي بهذه المظاهر الحضارية في دولة بني أمية فقال :

تقلب الاسلام في رخائها	وجرت الآمال في رخائها
وزخرت بالعلم والبيان	وأخرجت فرائد الأعيان
حاز لواء الشعر فيها الرزق	جرير والأخطل والفرزدق
وما رأى المنبر من عطفى ملك	كابن أبي سفيان أو عبد الملك
أو كزياد خطبة اذا انبرى	والثقفى حين يرقى المنبرا
ورزقت أرباب سيف قيادة	أعطتهم الممالك المقادة
سل ثيج البحر وعرض البر	عن طول باع الفاتحين الغرا(١)

★★★

ثم تمضى مسيرة الحضارة الاسلامية زاهرة باهرة عبر القرون والأجيال حتى تصل الى العصر الفاطمى في مصر لنرى ألوانا من هذه الحضارة في عهد « جواهر الصقلى » الذى بنى مدينة القاهرة ، وأقام بها الجامع الأزهر ، وشيد الدور والقصور ، ونشر العدل والنظام ، وأشاع الأمن والاستقرار واستشعر الناس في عهده الأمان والغنى .

والى هذا يشير شوقي بقوله يصف ملامح الحضارة الاسلامية فى عهد « جواهر الصقلى » :

اعتدل الأمر على مقدمه	وكان ركن الملك ميلا فاستوى
وجرت الأحكام مجرى عللها	وعرف الناس الأمان والغنى
كم أثر لجوهر نفيسه	الى المعز ذى المآثر اعزى
الجامع الأزهر باق عامر	وهذه القاهرة التى بنى
وقل ان ذكرت قصره بها	على السدير الخورنق العفا(٢)

(١) أحمد شوقي : دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٧٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٧ .

ويقول مشيدا بحضارة الفاطميين في مصر : (١)

فيا جزى الله بنى فاطمة عن مصر خير ما أثاب وجزى
خلائف النيل اليهم ينتمى اذا الفرات لبنى الساقى انتهى (٢)
تلك أياديهم على لباته مفضلات بالثناء تجتلي
كم مدن بنوا ودور شيدوا للصالحات ها هنا وها هنا
هم رفعوا الإصلاح مصباحا فما مصلح الا بنورهم مشى
والكرم المصرى مما رسموا بمصر من بر وسنوا من قرى
وكل نيروز بمصر رائع أو مهرجان رائع هم الآلى (٣)

وفى مصر الاسلامية كانت هناك بصمات حضارية لبنى ايوب نوه
بها « شوقى » فقال :

كل يوم بالصلحية حصن وبيليس قلعة شماء
وبمصر للعلم دار وللضيافان نار عظيمة حمراء
ولا عداء آل أيوب قتل ولا سراهم قرى وثواء (٤)

ولم تكن هذه الحضارة الاسلامية التى برزت ملامحها فى عواصم
الاسلام الا ثمرة لشريعة سامية ، وجهدا لأمة فاضلة ، وأثرا لفتوحات
انسانية نبيلة ، وجهادا لقادة عظماء حملوا أمانة هذا الدين فقادوا الانسانية
الى خيرها وهداها .



وقد أشاد الشعر المحافظ بكل هذه الدعامات الحضارية .

فقال « شوقى » يشيد بالشريعة الاسلامية التى أطلقت العقول ،
وحررت الأفهام وفجرت صنوف العلم والمعرفة ، وأنارت السبيل للمصلحين

(١) المرجع السابق : ص ١٠٩ .

(٢) الساقى : المراد به : العباسى .

(٣) هم الآلى : أى هم الذين كانوا الأصل فى ايجاده .

(٤) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ١٨٧ . توثيق د. الحرفى .

فمشوا في نورها ينشرون العلم ويقيمون العدل ، ويمدنون الشعوب ،
ويسوسون الأمم ، ويهدون الناس الى الطريق المستقيم :

شريعة لك فجرت العقول بها	عن زاخر بصنوف العلم ملتظم
غراء حامت عليها أنفس ونهى	ومن يجد سلسلا من حكمة يحم
نور السبيل يساس العالمون بها	تكفلت بشباب الدهر والهرم
كم شيد المصلحون العاملون بها	في الشرق والغرب ملكا باذخ العظم
للعلم والعدل والتمدين ما حزموا	من الأمور وما شلوا من الحزم
سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم	وانهلوا الناس من سلسالها الشبم
ساروا عليها هداة الناس فهي بهم	الى الفلاح طريق واضح العظم (١)

ويقول :

شريعة فجرها بحران بالعلم والحكمة يزخران
ظام من الوحي فرات المشرع في زاخر من الحديث منزع (٢)

★★★

واذا كانت الحضارة الاسلامية هي ثمرة هذا الدين الذي أنهض
العقول وحرر النفوس ومدن الشعوب ، فان الأمة التي حملت أمانة هذا
الدين كانت عنصرا من عناصر هذه الحضارة الاسلامية . نعم كانت العنصر
البشرى الذي تمثلت فيه هذه الحضارة الاسلامية بقيمها الرفيعة ومثلها
العليا ، ونظامها الفريد .

وقد أشاد شوقي بالأمة الاسلامية وبما حملته الى الناس من دين
وحضارة وبما حققت للبشرية من أمن وعدل ونظام فقال :

أمة ينتهى البيان إليها وتؤول العلوم والعلماء
جازت النجم واطمأنت بأفق مطمئن به السنن والثناء

(١) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٦٣١ ، توثيق د. الحوفي .

(٢) أحمد شوقي : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٩ .

كلما حثت الركاب لأرض جاوز الرشيد أهلها والذكاء
وعلا الحق بينهم وسما الفضيل ونالت حقوقها الضعفاء
تعمل النجم والوسيلة والميزان من دينها إلى من تشاء
وتنيل الوجود منه نظاما هو طب الوجود وهو اللواء (١)

لقد كانت الأمة العربية أمة ينتهى إليها البيان وتجد فيها العلوم
صدورا منسجمة فهي تقبل عليها بطبيعتها وتقيم وزنا للعلماء حيث كانوا .
فكانت كلما استولت على قطر اهتمت فيها العلم وربا ، ونشأ فيه العلماء
الفحول ، وعلت راية الحق ونال كل انسان ما يستحقه بعمله ، واضمحلت
الطبقات ، وارتفعت الفروق فالعرب حملوا العدل الذى فى دينهم الى الأمم
التي استولوا عليها ، وأثاروا فيها حب العمران والسعى فى مناكب
الأرض ، وصار هذا الدين نظاما للوجود يرجع الناس إليه فى أمور الدنيا
العقبى (٢) .

ويشيد « شوقي » بأخلاق العرب وفضائلهم وأثرهم فى حياة الناس
بما هداهم إليه الدين من حسن الخلق والرحمة والعدل فيقول من
قصيدة له : (٣)

الله جل جلاله بلسانهم خلق البيان وعلم الأمثالا
وتخير الأخلاق احسنها لهم ومكارم الأخلاق منه تعالى
كالرسل عزما والملائك رحمة والأسد بأسا والغيوث نوالا
عدلوا فكانوا الغيث وقعا كلما ذهبوا يميننا فى الورى وشمالا

والفتوحات الاسلامية فى نبل أهدافها ، وانسانية بواعثها ، مظهر
من مظاهر الحضارة الاسلامية ، لأنها استهدفت خير الانسانية وهدايتها

(١) احمد شوقي : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٩ .

(٢) شكيب أرسلان : شوقي او صداقة أربعين سنة ، ص ١٩٠ .

(٣) الشوقيات : ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

الى الحق وردها الى الله وتطهيرها من الشرك والضلال ، وقد أشاد شوقي
بهذه الفتوحات وبأهدافها الانسانية فقال : (١)

كس من غزاة للنبي كريمة فيها رضا للحق أو اعلاء
كانت لجند الله فيها شدة في أثرها للعالمين رخاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها فعلى الجهالة والضلال عفاء
دعموا على الحرب السلام وطالما حقنت دماء في الزمان دماء
نسفوا بناء الشرك فهي خرائب واستأصلوا الأصنام فهي هباء

★★★

وهؤلاء هم أبطال الفتح الاسلامي في عهد عمر بن الخطاب - رضى
الله عنه - وقد جاءوا الى مصر يحملون من الهدى والحق ما يحيى القلوب
والعقول :

بعث الصحابة يحملون من الهدى والحق ما يحيى العقول ويفتح
فتح الفتوح من الملائك رزق فيه ومن اصحاب بدر رزق
يبنون لله الكنانة بالقنا والله من حول البناء موفق
تطوى البلاد لهم وبجند جيشهم جيش من الأخلاق غاز مورك
في الحق سل وفيه أغمض سيفهم سيف الكريم من الجهالة يفرق (٢)

★★★

وقال يشيد بجنود الاسلام ، ويبارك جهادهم الذي اقتلع حدود
الشرك واستأصل شأفة الباطل ، ونشر لواء الأمن والسلام على ربوع
الجزيرة :

قد نصرنا الله وبروا الهادى ووصلوا الجهاد بالجهاد
وأصلوا الشرك الحروب الغابرة واستأصلوا شأفته ودابره
وردت السلم على الجزيرة صافية حياضها غزيرة (٣)

★★★

-
- (١) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٦٠٤ . توثيق د. الحوفي .
(٢) الشوقيات : ج ٢ ، ص ٨٦ .
(٣) أحمد شوقي : ديوان : دول العرب وعلماء الاسلام ، ص ٣٦ .

ومن خصائص البطولات الإسلامية وسلوكها الحضارى مع الأمم المغلوبة
وسعيها الى تحقيق ما دعا اليه الاسلام من عدل وانصاف وتسامح ومودة
على نحو ما يقول شوقى عن العرب الفاتحين :

وأمنوا الأمصار فاتحيننا وعدلوا فى العالمين حيننا
واتغلوا كل القرى أوطاننا وحاسنوا الأهلين والقطاننا
فحيث حل العربى حيانا من الملا قبيلة وحيانا
وشاطر الأرض على التساوى محاسن الأقوام والمساوى (١)
والأبطال المسلمون يمتازون بالهبة والوقار ، لا يستخفهم النصر ،
ولا يفرهم الفتح ولا يطغيهم نعيم الحياة :

يمشون تغضى الأرض منهم هيبة وبهم حيان نعيمها اغضاء
حتى اذا فتحت لهم أطرافها لم يطفهم ترف ولا نعماء (٢)

★★★

بل ان الدنيا كلها لا تتدعهم يبريقها ، ولا تصرفهم عن النهج
الصحيح للمسلم الذى يحمل النفس على المكاره فى سبيل الله :

ما حمل النفس على الأشق كفاتل الصديق وحامى الحق
حتى جبا الأرض اليهم من جبا وملكوا الدنيا فكانوا اعجبا
لا يعقلون فى الجباه العسجدنا بل التراب للمليك سجدا
وتحت اقدامهم التيجان يندبها اللؤلؤ والمرجان (٣)

★★★

ولقد كان من أهم ما التفت اليه الشعراء المحافظون فى اشاداتهم
بالحضارة الإسلامية تمجيد العظماء من رجال الاسلام الذين أخلصوا دينهم
لله ، ووهبوا حياتهم لنصرته ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه وكانوا فى
تاريخ الاسلام سطورا مضيئة ، وفى ليل محنته نجوما ساطعة أضاءت
طريق الأمة وأنقذتها من التيه والضيايع .

(١) المرجع السابق : ص ١٨ .

(٢) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٠٤ ، توثيق د . الحرفى .

(٣) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٣٤ .

فاذا كانت الأمة الاسلامية فى هذه الفترة على مقربة من الضياع
توشك أن تعصف بها أحداث السياسة ، ومؤامرات الاحتلال ، ومتغيرات
الظروف الاجتماعية والثقافية فان استدعاء العظمة الاسلامية فى مثل هذه
الظروف يصبح أمرا واجبا لأنه يرد الى الأمة ثقها بنفسها ، ويقوى أملها
فى الخروج من مأزقها ويرفع أبصارها الى ما فوق الأحداث الخائقة ،
ويمد أعينها الى ساحة البطولة والمجد ويفرى أبنائها باستلهاهم العظمة من
تاريخ العظماء الذين صنعهم الاسلام فكانوا رجاله وحماة وكانوا للأمة
هداة ومعلمين .

من أجل ذلك رأينا شعراءنا المحافظين يتجهون صوب التاريخ
الاسلامى يستخرجون من مواقف عظمائه دروسا تعالج بها الأمة واقعها ،
وتستكمل نقصها ، وتجدد الرجاء فى قلوب أبنائها ، وتحفز همهم الى
الجهاد وتعصم نفوسهم من الإحباط والقنوط .

ولكم كانت الأمة فى أمس الحاجة الى هذه الدروس النافعة تستلهمها
من تاريخ عظماء الاسلام ، تربية لوجدان أبنائها ، وبعثا للقيم الكامنة فى
قلوبهم وتبصرة لهم بمعالم الطريق نحو الحق . ولعل هذا ما قصد اليه
« شوقى » حين نظم ديوانه « دول العرب وعظماء الاسلام » وهو فى منفاه
فيما بين (١٩١٥ - ١٩١٩) اذ يقول :

حتى أراد الله أن نظمت من سير الرجال ما استعظمت
علما بما يبعث فى الأحداث جلائل الأعمال والأحداث (١)

على أن ايتاء العظمة حقها أمر لازم فى كل آونة وبين كل قبيل
— كما يقول العقاد — بل هو (فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا الزم منه فى
أزمة أخرى لسبيين لا لسبب واحد : أحدهما : أن العالم اليوم أحوج
ما يكون الى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة ، ولن يتاح لمصلح
أن يهدى قومه وهو مغموط الحق معرض للجفوة والكنود . والسبب
الآخر : ان الناس قد اجترأوا على العظمة فى زمننا بقدر حاجتهم الى
هدايتها . فان شيوع الحقوق العامة قد أغرى اناسا من صغار النفوس
بانكار الحقوق الخاصة . حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز

(١) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٦ .

وتظلمهم المساواة (١) . ومن أجل ذلك اتجه الشعراء المحافظون الى عظماء الاسلام يشيدون بأخلاقهم ويمتدحون مآثرهم ويمجدون مواقفهم ويلتقطون من أحداث حياتهم ما يضيء الطريق للمعاصرين .

وبهذه الصورة - غير المباشرة - تعامل الشعراء المحافظون مع الواقع الاسلامي بمنطق الاسلام من غير أن يصطدموا بالقوى الغاشمة التي هيمنت على مقدرات البلاد في تلك الفترة والتي كان يسوؤها أن ترتفع الأصوات ضدها فتحايل الشعراء على ذلك برواية التاريخ .

وإذا كان سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعظم العظماء في تاريخ الاسلام فقد أعجب به الشعراء المحافظون فأشادوا بأخلاقه وشماله وبمنجزات دعوته وما قدمت له للإنسانية من خير كانت أحوج ما تكون اليه .

فيقول « شوقي » يمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويشيد بأخلاقه وشماله :

يسوى الأمانة في الصبا والصدق لم	يعرفه أهل الصدق والأمانة
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا	منها وما يتعشق الكبرياء
لو لم تقم دينا لقامت وحدها	دينا تضيء بنوره الآناء
زانتك في الخلق الرفيع شمائل	يفرى بهن ويولع الكرماء

ويقول :

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرا ومقلدا	لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فانت أم أو أب	هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فانما هي غضبة	في الحق لا ضغن ولا بغضاء
وإذا رضيت فذاك في مرضاته	ورضا الكثير تحلم ورياء
وإذا حميت المله لم يورد ولو	ان القياصر والملوك ظماء

(١) عباس العقاد : عبقرية محمد - صلى الله عليه وسلم - ص ١٢ - ص ١٤ .

وإذا اجرت فأنت بيت الله لم يدخل عليه المستجير عدا
 وإذا ملكك النفس قمت ببرها ولو أن ما ملكك يدك الشاء
 وإذا بنيت فخير زوج عشرة وإذا ابتليت فدونك الإساء
 وإذا صحبت رأى الوفاء مجسما فى بردك الأصحاب والخطاء
 وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء
 وإذا مشيت الى العدى فغضنفر وإذا جربت فانك النكباء
 وتمدد حلمك للسفيه مداريا حتى يضيق بعرضك السفهاء
 فى كل نفس من سلطانك مهابة ولكل نفس فى نداءك رجاء (١)

أى نموذج انساني فريد ذلك الذى تحلى بهذه الخلال النبيلة
 والشمائل العالية والأخلاق الرفيعة !

انه رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

نعم انه رسول الله الذى يوحى اليه ولا ينطق عن الهوى ، والذى أدبه
 ربه فأحسن تأديبه ، ولكنه مع ذلك بشر !

وهو - صلى الله عليه وسلم - يبشرته يفرى بالافتداء والتأسي ،
 ويجسد صورة الكمال الانساني أمام الأمة الطامحة الى المجد . ويقدم صورة
 البطل المصلح الذى يحتاج اليه كل زمن يعتريه الفساد (٢) .

ولشد ما كانت الانسانية فى حاجة الى رسول الله - صلى الله عليه
 وسلم - كى ينقذها من الفساد الذى صارت اليه .

ويصور « عبد المطلب » جانبا من هذا الفساد قبل بعثة النبي - صلى
 الله عليه وسلم - فيقول :

ولو ترى قبله الدنيا وما لقيت من البلاء وما ذاق من النقم
 والناس ضلال قفر فى مساحها هيم من السرح او غفل من الغنم

(١) الشوليات : ج ١ ص ٣٥ / ٣٦ .

(٢) راجع : د . أحمد زكى : محمد صلى الله عليه وسلم فى الأدب المعاصر ،

ضلوا سواء النهى فاستمسكوا عهها بكل حبل من الأهواء منجلد
جهل مبيد وفوضى عب زاخرها والعيش بين الضنى والفتنة العمم (١)

ويردد « شوقي » ما سجله التاريخ من مظالم ناءت بها الانسانية قبيل بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومفاسد استشرت بالشرق والغرب .
فالحكام طغاة ورجال الدين بغاة والأغنياء قلة تستعبد الفقراء وهم كثرة والشعوب تن من الحكم المطلق ، ومن الجور المهلك ومن تسخيرها كما تسخر الماشية ، والأخلاق مجرحة ، والفضائل فى جائحة ، والأديان عقائد مزعزة ، وكهانة ووساطة والغاز ووثنية تنفى عن الانسان ميزة العقل والفكر والرشد وسلامة الوجدان .

واذن . . فقد كان البشر فى أشد الحاجة الى منقذ يرتفع بهم من وهادهم التى تردوا فيها (٢) .

وفى هذا يقول شوقي مصورا مدى الحاجة الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد أن عم الفساد والظلم أرجاء الأرض :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم الا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جسورا مسخرة لكل طاغية فى الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبقى فى رعيته وقيصر الروم من كبر أصم عمى
يعذبان عباد الله فى شبه ويدبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم كالليث بالبهيم أو كالحوت بالبايم (٣)

يقول فى آخرى : (٤)

جاء للناس والسرائر فوضى لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح . وشرع الله والحق والصواب وراء

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٥٧ .

(٢) د . أحمد الحرفى : الاسلام فى شعر شوقي ، ص ٩٠/٨٩ .

(٣) الشوقيات : ج ١ ، ص ١٩٨ .

(٤) المرجع السابق : ص ٢٠ .

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أقال عشار الكون من بعد ما هوى بى فى الدنيا سياسة جهلاء
ومدى فى أرجائه فى ملة حنيفة أتباعها حنفاء
بناه على أساسها وكم اعتلى بأيدى الهدى بعد البوار بناء
وشيده بالأمن فالعدل شرعه يقوم عليها معشر أمناء
وعلم اهليه الحياة سعيدة فهم بالهدى فى ظلها سعداء (١)

واذن .. فلا معنى للياس من الاصلاح السياسى والاجتماعى للأمة
الاسلامية ما دام هذا الاصلاح ممكنا ، وهو ممكن - ولا شك - ولكن حين
يجىء القائد الذى يقود المسيرة نحو الحق والعدل والمساواة كما قادها
رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى هذا اغراء بالرفض والمقاومة للواقع
الآليم انتظارا ليوم الخلاص على يد بطل يخرج من صفوف المسلمين ليضع
نهاية للفساد والقوضى .

وربما كان للتركيز على منجزات الدعوة الإسلامية فى تقرير العدل
والأمن والقضاء على الظلم وانقاذ العالم من جور الحكام وجهل الساسة
ما يكشف عن معاناة الأمة الإسلامية من جور الحكام واستبدادهم وظلم
الاستعمار وجبروته وبذلك كان الشعر الدينى فى هذه الفترة وسيلة من
وسائل التعبير عن الواقع السياسى والاجتماعى للأمة الإسلامية . بل كان
وسيلة ناجحة وفعالة . لانه شد عواطف الأمة الى ماضيها ومجودها .
ثم لانه أتاح للشعراء أن يتعاملوا مع الواقع السياسى بحرية تنأى بهم عن
المراقبة والمواخظة فى وقت كانت الكلمة الصريحة سيفا مسلطا على
الرقاب .

وهناك فكرة مهمة الملح اليها « شوقى » فى مدائح النبوية : وهى
أن النبى صلى الله عليه وسلم قد واجه أعداءه بوسائله المتاحة والتي كانت
أقل مما يملك الخصم ، ولكن قوة الايمان والثقة فى الله قد جعلت من كل

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٣٠٩ .

مقاتل كتيبة قوية استطاعت أن تنسف بناء الشرك وأن تدك حصون
الباطل :

هل كُن حول محمد من قومه إلا صبي واحد ونساء
دعا قلبى فى القبائل عصبه مستضعفون قلائل أنفـاء
ردوا ببأس العزم عنه من الأذى ما لا ترد الصخر الصماء
والحق والایمان ان صبا على برد فيه كتيبة خرساء
نسفوا بناء الشرك فهى خرائب واستاصلوا الأصنام فهى هباء (١)

وتلك اشارة لها دلالتها : وهى أن نمضى الى أهدافنا بعزم واصرار
وأن نواجه أعداءنا بما نملك من وسائل ، ولا نتخاذل أو نعتذر بضعف
امكانياتنا ، فالهم هو الايمان بالله والثقة بالنفس والجهاد فى سبيل الحق
حتى النصر أو الشهادة .

كذلك كان التركيز على معانى البطولة والفداء والشجاعة والاقدام فى
حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى حياة أصحابه - رضوان الله
عليهم - من المعانى التى أوحى بها طبيعة النضال فى هذه الحقبة .

وهكذا استطاع الشعراء المحافظون أن يلفتوا أنظار المعاصرين الى
مكان القدوة فى تاريخ النبى العظيم صلى الله عليه وسلم .

ثم من الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تاريخ الاسلام
نجوماً ساطعة تستاهل التعظيم والاعجاب . ومن أكبرهم تأثيراً فى تاريخ
الاسلام : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى . . رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد أشاد بهم الشعراء المحافظون ونوهوا بما فى حياتهم من مواقف
اسلامية تستلفت أنظار المعاصرين وتضع أقدامهم على الطريق الصحيح الى
خيرى الدنيا والآخرة .

وكانت اشادة الشعراء بهؤلاء العظماء من رجال الاسلام لونا من
الاشادة بالحضارة الاسلامية لان هؤلاء الرجال من عظماء الاسلام هم الذين
أرسوا دعائم الحضارة الاسلامية واليهم يرجع الفضل فى تعريف الناس
بها من خلال الفتوحات الاسلامية التى نقلت الحضارة الاسلامية الى البلاد
المفتسوحة .



(١) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢١ . ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٠٤ ، توثيق
د . الحرفى .

فأما « أبو بكر » فقد أشاد به شوقي فذكر مجوده وبلاءه في سبيل
الاسلام وحيا حزمه وعزمه وباهى بشجاعته التي أنقذت الدين مما أحاطه
من محن ذهبت بقلوب الرجال :

وما بلاء أبى بكر بمتهم بعد الجلائل فى الأفعال والخصم
بالعزم والعزم حاط الدين فى محن أضلت العلم من كهل ومحتلم
وحدن بالراشد الفاروق عن رشد فى الموت وهو يقين غير منبهم (١)

« وللمصرى » قصيدة من تسعة ومائتى بيت تضمنت سيرة أبى بكر
منذ ملازمته للرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقه بالاسراء ومرافقته
للرسول فى الهجرة ورأيه فى صلح الحديبية ورأى النبى فى أبى بكر
وأعماله (٢) .

★★★

وأما عمر بن الخطاب فقد كان موضع إعجاب الشعراء المحافظين
وتقديرهم لأنه جسد العدالة فى الحكم ، والقوة فى الحق ، والشورى فى
الأمر ، وكان مثالا للحاكم المسلم الذى حمل أمانة الحكم فأداها كما يحب
الله ورسوله والمؤمنون . ومن ثم تعلق الشعراء بأهداب سيرته وتطلعوا
الى مثاله فى ظروف ضاقت فيها البلاد بالظلم وشقيت بالاستبداد وحكم
الفرد .

وكان مجرد ذكر « عمر » بما عرف من سيرته فى العدل والشورى
ورعايته للحق كافيا لهز الواقع الاسلامى هذا يوقظ النيام وينبه الغافلين
ويدفع المعاصرين الى استلهام العبرة من تاريخه العظيم .

والى هذا المعنى يشير « حافظ ابراهيم » فى خاتمة عمريته فيقول :

لعل فى امة الاسلام نابتة تجلو لحاضرها مرآة ماضيتها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها من الصروح وما عاناه بانيها

(١) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٢) سعد الدين الجيزاوى : اصلاء الدين فى الشعر المصرى الحديث ، ص ٢٣٦ .

وحسبها أن ترى ما كان من عمر حتى ينبه منها عين غافيتها (١).

★★★

واذ كانت الأوضاع السياسية تنوء بظلم الحكام واستبدادهم فقد كان للعدل في قلوب المسلمين شوق جعل الشعراء يستمطرونه من تاريخ «عمر» فيقول «أحمد محرم» من قصيدة له بعنوان «عدل الفاروق» : (٢)

أرى العدل دعوى يعجب الناس حسنها	ويخضعهم عنها الحديث الملفق
أكاذيب يزجها الفتى وهو عالم	إذا ما دعاها أنه ليس يصدق
فشا الظلم بين الناس واهتز أهله	وبات ضعيف القوم يؤذى ويرهق
خليا من الأعوان ينصب حقه	فيفضي ويرمى بالهوان فيطرق
رأيت ملوك الناس لا ينصفونهم	وخير الملوك المنصف المترفق
يقيمون صرح الظلم في كل أمة	إذا ملكوا والعدل بالملك أخلق

ولا شك أن هذه المقدمة قد أوجت بها الظروف الاستبدادية التي كانت تسيطر على البلاد . وهو هنا يكاد يصرخ بما يريد ثم ينتقل بعد ذلك الى رسم صورة الحاكم العادل في عمر . ثم يعود الى تصوير حال الأمم الإسلامية وما آل اليه أمرها بعد أن فقدت عمر وأمثاله (٣) فيقول :

توت أم الإسلام من بعد ما مضى	تراع بأهوال الخطوب وتصعق
تفانت موالها وطاح حماتها	كما طاح مرفض الحصى يتعلق
تحكم فيها القاسطون فأصبحت	تقاد بأسباب الهوان وتوثق

★★★

(١) ديوان : حافظ إبراهيم : ج ١ ، ص ٩٧ .

(٢) ديوان أحمد محرم : ج ٢ ، ص ٨٦ .

(٣) سعد الدين الجيزاوى : أصداء الدين في الشعر المصرى الحديث ، ص ٢٣٥ .

ويذكر شوقي « عمر » فيشيد بعدله وقوته في الحق ، كما يشيد
بجهاده في سبيل الله فيقول : (١)

بالعدل والبر طار بالعرب	وسار في الجو بهم وفي السرب
فلم يزل دعامة الاسلام	وهامة الصحابة الاعلام
سمحا جوادا في سبيل الله	ندبا عن الحق غير لاه
مجاهدا بيضه وسمره	وشهبه ودهمه وحمرة
وعنبر العباد في الجوامع	وسمر الزهاد في الصوامع

ويشيد « حافظ ابراهيم » بحرص عمر على مبدأ الشورى ورفضه
لسياسة الاستبداد وحكم الفرد فيقول :

يا رافعا راية الشورى وحارسها	جزاك ربك خيرا عن محبها
لم يلهك النزاع عن تأييد دولتها	وللمنية آلام تعانيها
درى عميد بنى الشورى بموضعها	فعاش ما عاش يبنها ويعليها
وما استبد برأى في حكومته	ان الحكومة تغرى مستبدتها (٢)

ويعجب « الرافعي » ضمن ما يعجب به من مزايا عمر بمضاء عزمته
وهمة نفسه ونصرته للحق ، وتحرره من أغلال الشهوات والأهواء ومساواته
بين الرعية فيقول :

وهل سوى نفسه قد سودته وهل	تثال الا بشق النفس آمال
راى الهدى فجلاه للورى قمرا	ملء العيون وكل الناس ضلال
وجد في نصرة الهادى ودعوته	ولا يخيب امرؤ في الحق فعال
واطلق النفس مما تبتغيه هوى	وانما شهوات النفس أغلال
ولم يكن احد يلهيه عن احد	كانه والد والناس أطفال (٣)

★★★

(١) أحمد شوقي : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٤١ .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ص ٩١ .

(٣) ديوان الرافعي : ج ١ ، ص ١٤ .

وهكذا كان « عمر » نموذجا للقائد المنتظر الذى تهفو القلوب الى عدله وشوراه وزهده وتقواه وقوته ورحمته ومساواته بين رعيته .

وبالجملة : كان عمر تجسيدا حيا لآمال الأمة فى الإصلاح السياسى والاجتماعى على النهج الاسلامى فى هذا العصر الذى اضطرت فيه آراء المصلحين .

وكان عثمان بن عفان مثالا لوسطية الاسلام واتزانه فى الجمع بين الدنيا والآخرة فلقد عمل لدينه ودنياه معا . وتمثل منهج الاسلام فى ابتغاء الدار الآخرة من غير نسيان لنصيبه من الدنيا .

وقد دافع عنه « شوقى » مؤكدا أن الاسلام لا يتعارض مع الدنيا ولا يطالب الناس بالزهد فيها فيقول :

فان تسئل ماذا أتى عثمان	مما يرد الدين والايمان
تجد دعاوى القوم لفقوها	وسلعا بالدين نفقوها
زروا على الامام ما لا يزرى	واركبوه الحسنات وزرا
واستنكروا علوه بالدور	عن دارة الثلاثة البدور
وقال قوم خالف الاترابا	وحالف الثراء والاترابا
وكرهوا التمصير والتمدينا	وزعموا الدنيا تعفى الدنيا
ويجهلوا ! ما لهم وما له ؟	طاب وطيب الحلال ماله
مال كما شاء العفاف والكرم	زكا كهدى البيت او حل الحرم
والزهد حال للقلوب والنهى	ما امر الله به ولا نهى
وهذه الدنيا يد العظيم	وسره فى ملكه العظيم
اسكنها العقل فكانت اشرفا	من كل زاه فى السماء اشرفا
احل منها ما صفا مشارعا	وحرم الآفات والمصارعا
وساقها للانبياء ترسفا	هذا سليمان وهذا يوسف

واين من شانيهما عثمان على الذي خوله الرحمن ؟ (١)

ويعجب « شوقي » ضمن من يعجب بهم من الخلفاء والراشدين
بعثمان بن عفان ويشيد بورعه وتقواه ، وينوه بفضله في جمع القرآن
الكريم ، ويشير الى حادث مقتله فيقول بعد أن يذكر عددا من عظماء
الاسلام :

او كابن عفان والقرآن في يده يحنو عليه كما تحنو على الفطم
ويجمع الآى ترتيبا وينظمها عقدا بجيد الليالى غير منقسم
(٢)
جرحان في كبد الاسلام ما التاما جرح الشهيد وجرح بالكتاب (دمي)

★★★

وكان « على ابن أبى طالب » - كرم الله وجهه - مثالا لما يرتجيه
المسلمون من قيم فاضلة ومثل عليا تتمثل في العلم والأدب ، والشجاعة
والنجدة والزهد ، والخشوع والأمانة في الحكم والعدل في القضاء وغير
ذلك من قيم الاسلام التى جسدها على امام المتقين .

يقول « عبد المطلب » يصف عليا بالعلم الزاخر ، واليقين الصادق .
والنفس العالية التى غذاها الدين فشبت على التقوى وارتفعت فوق الحطام
الفانى :

وسل أهل السلام تجد عليا امام الناس يبتدر السلام
حوى علم النبوة فى فؤاد طما بالعلم ذخارا فطاما
سقاء الحق افواق المعانى وهيمه به جبا فهاما
وزوده اليقين به فكانت افويق اليقين له قواما
ونفسا لم تلق الطعم الدنايا ولا لذت من الدنيا طعاما
غذاها الدين مد كانت فشبت على التقوى رضاعا وانقطاعا
زكت فسمت عن الدنيا طلابا واضنى جها قوما وتاما

(١) أحمد شوقي : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٥٠ .

(٢) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٦٣٢ . توثيق د. الحوفى .

أما شجاعته وبطولته :

فدع عنك المواطن والمغازي ومن سل الظبا فيها وشاما
فجبه للطفلة بها وجوها وجدع للضلال بها حثاما (١)

ويقول « شوقي » مشيدا بالامام علي :

(٢)
الزاهر العزب في علم وفي أدب والناصر الندب في حرب وفي سلم

ويقول :

أما الامام فالأغر الهادي حلمي عرين الحق والجهاد
وأزهد الناس وفي الدنيا يده وأخشع العالم وهو سيده
وجامع الآيات وهي شتى وسلة القضاء وباب الافتا
والسهد الأولى الى أشواقه اذا الظلام مد من رواقه (٣)

ولا شك أن الشعراء المحافظين كانوا متأثرين بظروف عصرهم وقضايا
أمتهم حين مدوا أبصارهم الى آفاق العظمة الاسلامية وأن هذه القضايا كانت
تلح عليهم وتعكس ظلالها على أفكارهم ومعانيهم وموضوعات شعرهم ومن
ثم رأيناهم يركزون على معاني العدل والشورى والحق والقوة والشجاعة
والاقدام والعزة والكرامة . وهي قيم كريمة ومعاني سامية تتطلع اليها
الشعوب الاسلامية في كل عصر ، ولكنها كانت في هذا العصر ضرورة أكثر
من أي وقت مضى .

واذا كان الشعراء المحافظون قد ييموا وجوههم شطر الماضي
يستعيرون من مجوده ما يرد الى المعاصرين تقتهم بأنفسهم ، ويبيت فيهم روح

(١) ديوان عبد الطلب : ص ٢٤٢ .

(٢) الشوقيات : ج ١ ص ٢٠٦ .

(٣) أحمد شوقي : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ١٣ .

الامل في استعادة ما كان لهم من ماض بعيد ، وتاريخ عظيم ، فانهم لم ينسوا عظماء عصرهم ممن جاهدوا في سبيل الحق ، وذاذوا عن حمى الاسلام وكانت حياتهم حافلة بالعلم والعمل ومواقف الاصلاح الديني والاجتماعي .

وكان الامام « محمد عبده » في مقدمة الداعين الى الاصلاح الديني والاجتماعي الذين أشاد الشعراء المحافظون بمواقفهم في الاصلاح كما أشادوا بمواقفهم في الدفاع عن الاسلام ضد خصومه من أمثال « هانوتو » و « فرح أنطون » ، اللذين هجما على الاسلام وانتقدها ووجها اليه من المطاعن ما هو منها برىء .

وكان الامام « محمد عبده » قد انبرى للرد عليهما وانتصف للاسلام انتصافا رد الحق الى نصابه ، وكان لهذه الغيرة الدينية التي أبداهها الامام في الدفاع عن الاسلام أثرها في شعراء عصره الذين أعجبوا بعلمه وخلقه وإخلاصه لدينه ، وجراته في الحق وقد ظهر في مدحهم للامام كما ظهر في رثائهم له . فيقول « شوقي » يمدح الامام « محمد عبده » في رده على « هانوتو » : (١)

محمد ما أخلفتنا ما وعدتنا	صدقت وقال الحق فيك ضمير
فأنت خضم العلم حال سكونه	وأنت خضم العلم حين تشور
وأنت أمير الحفظ والقول والنهي	إذا لم ينل تلك الثلاث أمير
ف فوق عليم القوم منك معلم	وفوق وزير القوم منك وزير
إذا جهلت يوما علينا خصومنا	فأنك من جهل الخصوم مجير
وان جردوا الأقلام جردت أثرها	يراعا له في الخافقين صرير
إذا صال لاقى ضيغم القوم ضيغما	له في نفوس الشائنين زئير
وأنت قريب في الولاء مؤمل	وأنت أبي في الخصام كبير
ويعجبني منك التقى حين لا تقى	وجددك حين الهازلون كئير

(١) د . محمد صبرى : الشوليات المجهولة ، ج ١ ، ص ٢٠٢ . وقد نشرت بالمؤيد

مر ١٩٠٠/٥/٣ .

ويقول « الرافعي » يمدح الامام محمد عبده بالقوة في الحق والقدرة
على افحام اهل الشرك :

لك اليد يخشى الظالمون يراعها وان ملت الأيدي فما فوقها يد
وأفحمت اهل الشرك حتى كأنما ملادك مما يجلب الغزى أسود (١)

ويشيد « الكاشف » بموقف الامام « محمد عبده » في رده على
« هانوتو » :

سلاما حجة الاسلام فينا ورضوانا رجاء المسلمينا
عنيت بما كتبت فكان وحيا يؤيد وحي ملهمك المبيننا
فلم تترك لمتهم مكانا يرى فيه المزاغم والظنوننا
جهادا في سبيل الله يفدى بمهجته المواطن أن تهونا (٢)

وقال « عبد المطلب » يرثي الامام ويشيد بموقفه في الرد على
« هانوتو » : (٣)

فكم من يد للدين أسدى وموطن تبين فيه للذي ضل رسله
وما نسي الأقوام موقفه الذي به رد « هانوتو » وقد ضل كيده
وكان يظن ابن الفرنسي أنه أتى بالذي لا يمكن الناس جعده

وكان الامام محمد عبده حريصا على تأكيد أن الاسلام دين العلم
والمدنية وأنه صالح لكل زمان ومكان . وأنه لا يعادى حضارة الغرب
ولا يعارضها على خط مستقيم ولكنه يتعامل معها في اطار ما دعا اليه من
الأخذ بأسباب القوة المادية التي لا تناقض روح الاسلام . وكان تفسيره
للقرآن الكريم نموذجا لفكره ومنهجه في الدعوة الى الاسلام .

وقد أشاد الشعراء المحافظون بهذا المنهج الذي يقوم على التوفيق
بين الاسلام وحضارة العصر .

(١) ديوان الرافعي : ج ٣ . ص ١٢٨ .

(٢) ديوان الكاشف : ج ١ . ص ٦٥ .

(٣) سعد الدين الجيزاوي : أصداء الدين في الشعر المصري الحديث ، ص ٢٥٨ .

فقال حافظ في رثائه للإمام محمد عبده مشيدا بهذا المنهج :
ابنت لنا التنزيل حكما وحكمة وفرقت بين النور والظلمات
ووفقت بين الدين والعلم والعجا فاطلعت نورا من ثلاث جهات (١)

وقال « الكاشف » :

وتفسر القرآن تسترعى به ابنه دينك عصرهم وتزود
وتجادل البلغاء عنهم بينما يخشى الجريء ويهمد المتوقد (٢)

وقال « نسيم » :

يا ليتهم قد غسلوك بمدمع طهر كشوبوب السحابة هام
او كفنوك بمصحف فسرته من غامض الآيات والأحكام (٣)

وقال « الرافعي » يصف عبقرية الامام في الكشف عن مكنون القرآن
وتجلية فرائده :

القائد الأفكار في ميدانها والعلم زاوية من الميدان
والمنتضى سيف الهداية بعدما قد كان في غمد من القرآن
يفرى بحديه الضلال ولم يكن حذاء غير يراعة ولسان (٤)



هكذا كان الامام محمد عبده موضع تقدير الشعراء واعجابهم وهو
ولا شك أهل لهذا التقدير والاعجاب بما امتاز به من علم وفضل وغيره على
الدين ، وجرأة على أهل الضلال والشرك ، وبما حمله من رسالة الاصلاح

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ١٤ .

(٢) ديوان الكاشف : ج ٢ ، ص ١٢٢ .

(٣) ديوان نسيم : ج ١ ، ص ٩٢ .

(٤) ديوان الرافعي : ج ٢ ، ص ٧٢ .

الدينى والاجتماعى التى أيقظت وعى الأمة ووثبت بها فى طريق النهضة والحضارة وثبات سوف يذكرها التاريخ بالعرفان كلما بعد بصاحبها الزمان .



ونستطيع فى ضوء ما تقدم أن نقول :

ان الشعراء المحافظين قد اتجهوا صوب الحضارة الاسلامية يبتعثون مجودها ويعرضون منجزاتها ، ويشيدون بمظاهرها ، ويعظمون الاسلام الذى صنعها والشريعة التى أنبتتها ، والأمة التى حملتها الى الناس ، ويتباهون بالعظماء من المسلمين الذين رباهم الاسلام فكانوا رجاله وحماة ورسل دعوته ومظهر حضارته ، وحياة مبادئه .

وكان هذا الاتجاه نحو الحضارة الاسلامية بكل مظاهرها ومقوماتها والعمل على احياء مجودها ، ونشر مفاخرها ، وتعظيم بناتها ضرورة اقتضتها - أكثر من أى وقت مضى - مرحلة النضال ضد الاستعمار الذى غرس مخالفه فى مقاتل المسلمين ، وجد فى القضاء على دينهم وتشويه حضارتهم وتراثهم يبتغى اجهاض كفاحهم واشعارهم بالهوان والضعف حتى يظلوا على ولائهم للاستعمار خاشعين من الذل .

ومن هنا كانت أهمية اليقظة الاسلامية التى نبهت الوعى الاسلامى الى حقيقة ما يراد بالمسلمين ، وكان من مظاهر هذه اليقظة الاسلامية أن اتجه الكتاب والشعراء صوب المجود الاسلامية يسترجعون صورها ، ويستحضرون ملامحها . ويستلهمون العبرة من خلالها يريدون أن يردوا الى الأمة ثقتها بنفسها ، ودينها وتاريخها ، وأن يحفزوها الى الجهاد والمقاومة وليس بالقليل ما أبدعه الشعراء المحافظون فى شعرهم من صور البطولة والكفاح والعدل والشورى والحكم الاسلامى . فقد أيقظوا بهذا الابداع الفنى أشواق الأمة وحركوا أمانيتها نحو هاتيك المعانى التى كانت أحوج ما تكون اليها فى هذه الفترة بصفة خاصة .

الفصل الثانى

التعريف بالاسلام فى مواجهة التحديات

اذا كان الشعراء المحافظون قد أشادوا بالحضارة الاسلامية وهى ثمرة من ثمرات الاسلام فان التعريف بالاسلام صانع هذه الحضارة أجدر أن يتجه اليه الشعراء . وهم اذ يفعلون ذلك ، فيبتعثون قيم الاسلام ومثله ، وينشرون فضائله ومبادئه ويواجهون قضايا العصر بمنهج انما يردون الى الحضارة الاسلامية روحها ويعيدون اليها مجدها . مجد هذا الدين الذى صنعها .

وهذا ما فعله مفكرو الاسلام فى القرن التاسع عشر الميلادى عندما بدأت المواجهة غير المتكافئة بين الشرق الاسلامى المتدثر فى فكرية القرون الوسطى والغرب المسيحى المتوثب بحضارته نحو هذا الشرق الضعيف .

ففى زمن هذا التحدى - ولا يزال قائما - هرع المفكرون من زعماء المسلمين الى مصدر قوة المسلمين ، وأساس حضارتهم وموئل عزهم ومجدهم . . هرعوا الى الاسلام يستعصون به ، ويقاومون من داخل أسواره عنف هذا التحدى للوجود الاسلامى ويؤكدون من خلاله هذا الوجود الاسلامى وقدرته على الثبات والمواجهة . واذ ذاك أخذوا ينفضون عن تراثهم أكفان البلى . . ويزيلون عن دينهم حجب الجهالة وسجف الخرافة وغشاوة البدعة ثم شرعوا يقدمونه الى الناس فى حقيقته الأولى وصورته الأصيلة التى بهرت المعاصرين من المسلمين فاستردوا يقين القدرة على تحدى الحضارة الوافنة وابعادها عن مكان الصدارة فى عصرنا الحديث .



وكان هذا الاتجاه نحو الكشف عن مزايا الاسلام والتعريف بمبادئه ونظمه رد فعل لموجة التغريب أو الاتجاه نحو الغرب والاعتماد عليه في بناء نهضتنا الحديثة ومن هنا نشأت الدعوة الى الاصلاح على اساس الاسلام ، وظهرت معها نهضة فكرية اسلامية تستهدف بعث الوعي الاسلامي من خلال التعريف بحقائق الاسلام وبيان خصائصه ومزاياه . تأكيداً لصلاحيته لبناء نهضة قوية على اساسه .

وكان السيدان « جمال الدين الأفغاني » و « محمد عبده » في مقدمة الداعين الى النهضة على اساس الدين . وكان جهادهما في سبيل الكشف عن القيم الذووية للاسلام تمكينا لهذه الدعوة واثباتاً لأهمية الدين وضرورته وأثره في رقي الانسان وسعادته وهذا ما أكد السيد « جمال الدين » في كتابه « الرد على الدهريين » .

فقد أثبت أن دين الاسلام « قد أقيم على أساس من الحكمة متين ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين . ذلك أن عروج الأمم على معارج الحق الأعلى وتدرج الشعوب في مدارج العلم الأجل ، وصعود الأجيال على مراقى الفضائل واشراف طوائف الانسان على دقائق الحقائق ونيلمهم للسعادة الحقيقية في الدارين كل ذلك مشروط بأمور لا يتم الا بها » (١) ثم ناقش هذه الأمور التي تتم بها سعادة الأمم (٢) فأكد من خلالها « أن المدنية الفاضلة التي مات الحكماء على حسرة من فقدوها لا تختط في العالم الانساني الا بالدين الاسلامي » (٣) .

وكان الامام محمد عبده يرى أن النهضة من طريق الدين أصح وأيسر من طريق التقليد للغرب . ومن ثم دعا الى تنقية الدين مما ليس منه والرجوع به الى سماحته الأولى وإلى نبعه الصافي ليكون نقطة البدء في اقامة نهضة متميزة بأصالة ما تنتمي اليه وهو الاسلام الذي جربته الأمة الاسلامية في عصورها الأولى « فأقامت عليه حضارتها التي ازدهرت في عصرها الذهبي لان مكانته في ضمير الأمة تجعله متيناً ومكيناً » ، بل هو « أمتن أساس يمكن أن يقوم عليه شامخا البناء الحضاري المنشود للعرب والمسلمين » (٤) .

(١) السيد جمال الدين الأفغاني : الرد على الدهريين ، ص ١٠٥ .

(٢) راجع : الرد على الدهريين ، من ص ١٠٦ الى ص ١١٦ .

(٣) المرجع السابق : ص ١١٦ .

(٤) د - محمد عمارة : تيارات اليقظة الاسلامية الحديثة ، ص ١٣٥ .

وكان من أعظم ما لجأ اليه الامام محمد عبده في تجلية حقائق الدين وكشف كنوزه للناس : تفسير القرآن الكريم على نحو يوقظ الاحساس الدينى فى النفوس وينمى فيها مشاعر الايمان بضرورة العودة اليه والتماس الخير والهوى فى رحابه .

وكان منهجه فى التفسير أن يقرأ الآية من القرآن « فاذا اتصلت بالعقيدة شرحها شرحا وافيا عارضا ما ورد فى القرآن فى موضوعها ، مبينا ما دخل على المسلمين فى هذه العقيدة من فساد ودخيل واذا اتصلت الآية بالأخلاق أبان أثر هذا الخلق فى صلاح الأمم وضياعه فى فسادها . واذا اتصلت بحالة اجتماعية أوضح أثر هذه الحالة الاجتماعية فى حياة الأمم مسترشدا بالواقع مستشهدا بما يجرى فى العالم . . . فهو تفسير عملى يشرح الواقع ويبين سببه ، وهو أخلاقى يدعو للعمل على مبادئ الاسلام . ويبين أنها منبع السعادة فى كل العصور وهو روحانى يدعو الى السمو بالنفس الى العالم العلوى ، وينزه الله عما دخل على العقيدة من فساد بالاشراك مع الله الأولياء وعبادة الأضرحة والتشفع بأهل القبور واقامة الموالد ونذر النذور . وهو فى كثير من مبادئه يشبه تعاليم الوهابية فى الرجوع الى الأصول الأولى للاسلام وتنقيته من البدع والخرافات والأوهام ولكنه يتقبل ما صلح من مبادئ المدنية الحديثة ويدعو الى الأخذ بها ما اتفقت مع الاسلام (١) .

وقد حاول « الامام » فى تفسيره أن يوفق بين الاسلام وقضايا العصر على النحو الذى يحقق قيام مجتمع متحضر ترتكز دعائمه على أصول الاسلام وتستشرف رغائبه الى آفاق المدنية الحديثة بما يؤكد قدرة الاسلام على العطاء المتجدد وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وأنه دين ومدنية معا وأن الذين يذهبون الى اصلاح المجتمع من طريق الدين لا يحرمونه شيئا من طيبات الحضارة الحديثة .



وكان لجهاد الامام فى الكشف عن حضارة الاسلام وتنقية الدين مما شابته من بدع العصور وجهل المتدينين أثر كبير فى دعم الاتجاه الاسلامى فى الاصلاح وتقوية شوكته فى مواجهة الدعوة الى التغريب أو الاصلاح على مبادئ الحضارة الغربية وأساليبها فى النهضة .

(١) احمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، ص ٢٢٠ .

وقد غدت الصحف الدينية هذا الاتجاه الاسلامى بما كانت تنشره من مقالات تشيد بالاسلام وتؤكد قدرته على تأسيس مدنية راقية ، وحضارة زاهرة .

ومن ذلك ما جاء فى « المنار » تحت عنوان « هل يرجع استرجاع مجد الشرق بقوة الاسلام ؟ » (١) فقد كتب صاحب « المنار » جوابا على هذا السؤال يقول : « نعم وألف نعم . . ان أصول الدين الاسلامى وتعاليمه وآدابه الصحيحة هى التى جمعت كلمة قبائل العرب وارتفعت بهم من حضيض الهمجية الى أوج الفضائل ، وأشرقت بهم على دول العالم بالسيادة والسلطان وهدتهم الى العلوم والفنون . ولا خلاف فى أن انحراف المسلمين عن جادتها هو الذى سلبهم ما كسبوا فالرجوع اليها هو الذى يؤلف بين قلوبهم ، ويجمع كلمتهم ويرجع لهم سيادتهم » .

وجاء فى « المنار » تحت عنوان « الاسلام والترقى » (٢) : « أن الاسلام جاء بتعاليم كافية لعروج الأمم الى سماء السيادة العليا ، وبلوغها مراتب السيادة القصوى لأنها أبطلت جميع الاعتقادات التى تحول بين الانسان وبين كماله كالاعتقاد بأن الانسان ناقص حقير لا يصح له أن يرفع أعماله الحسنة الى الجانب الالهى الأقدس ولا أن يطلب من مولاه الحقيقى العفو عن تقصيره وتفريطه بالتوبة الصحيحة بينه وبين ربه الرؤوف الرحيم الا بوساطة رؤساء الدين المعبر عنهم بالقديسين أو الأولياء المقربين . فأبطل الامتياز الصنفى ، وألغى هذه الوساطة والرياسة التى تهبط بالطباع وجعل الناس كلهم عبيدا لله وحده أحرارا بالنسبة لما سواه ، لا فضل لأحد على أحد الا بالعلم والعمل والكمالات المكتسبة وكما أبطل سلطة الرؤساء الروحانيين قيد سلطة الملوك والحكام بشرعية مبنية على أصول الحرية الصحيحة والعدل والمساواة التى سادت بها أوروبا فى ممالكها واعتز سلطانها ولم تقتبسها الا من الاسلام ، وستضطر أوروبا الى الأخذ بما لم تأخذ به من قواعد الاسلام كايجاب الزكاة التى هى العلاج الوحيد لمرض من أشد الأمراض الاجتماعية - وكاعطاء المرأة حقوقها التى كانت مهضومة قبل الاسلام عند جميع الأمم فى الشرق والغرب . . وقد اعترف للاسلام بمزاياه الشريفة مما ذكرنا ، وما لم نذكر جميع الناظرين فى التاريخ والباحثين فى الملل والشرائع بالانصاف من غير المسلمين حتى ان ذلك ليفيض من أنابيب أقلامهم فيما يكتبون ويجرى على سنتهم عندما ينطقون من غير روية ولا تكلف ولا مصانعة ولا تصنع (٣) .

(١) المنار : المجلد الاول ، ص ٣١٧ ، سنة ١٨٩٨ .

(٢) المرجع السابق : ١٨٩٩/٢/٤ .

(٣) المنار : السنة الاولى عدد ٤ فبراير ١٨٩٩ ، ص ٣٦٢ . مقال (الاسلام والترقى) .

وفى سبيل التعريف بمزايا الاسلام نشرت « المنار » ترجمة لكتاب « ثلاثون عاما فى الاسلام » الذى صدر سنة ١٩٠٤ للسياسى الفرنسى « ليون روش » وفيه يقول المؤلف : « .. وجدت هذا الدين الذى يعيبه الكثيرون أفضل دين عرفته فهو دين انسانى طبيعى اقتصادى أدبى . ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية الا وجدته فيه « مشروعا » بل انى عدت الى الشريعة التى يسميها (جول سيمون) الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت أخذًا من الشريعة الاسلامية ، ثم بحثت فى تأثير هذا الدين فى نفوس المسلمين . فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما ، ثم وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة والمعروف فى عالم لا يعرف الشر واللغو والكذب ، ولقد وجدت فى الاسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرا :

الأولى : فى قول القرآن : (انما المؤمنون اخوة) فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية .

والثانية : فرض الزكاة على ذى المال وتخويل الفقراء حق أخذها غصبا اذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا .

انه دين المحامد والفضائل ، ولو أنه وجد رجلا يعلمونه الناس حق العلم ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون أرقى العالمين ، وأسبقهم الى كل الميادين ، (١) .



وعلى هذا النحو من تمجيد الاسلام وبيان مزايا الشريعة مضت صحيفة « المنار » تجدد عهد « العروة الوثقى » فى نشر الوعي الاسلامى وتبصير المسلمين بحقائق دينهم ومجود أسلافهم ، وتذكى فيهم حمية الدين ، وانضمت الى هاتين الصحيفتين صحف اسلامية أخرى كانت تعنى بالحديث عن الاسلام واذاعة فضائله ، وتصحيح مفاهيمه وشرح قضايا العصر فى ضوءه ، وازهار شخصية الدين كنظام سماوى صالح لكل زمان ومكان .

(١) أنور الجدى : الاسلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى ص ٧١ .

ومن هذه الصحف :

- ١ - المؤيد : للشيخ علي يوسف وقد صدرت سنة ١٨٨٩ وكانت في ظاهرها جريدة عامة الا أنها كانت تدافع عن الاسلام وتعمل على تغذية الشعور الديني والرجوع بالاسلام الى نقاوته الأولى ومجده العظيم (١) .
- ٢ - العالم الاسلامي : التي أصدرها « مصطفى كامل » سنة ١٩٠٥ .
- ٣ - الحرمين : التي أصدرها « حسين برادة » سنة ١٩٠٦ .
- ٤ - نشيد الاسلام : التي أصدرها « السيد محمد طلعت » سنة ١٩٠٦ .
- ٥ - الجمعية الشرعية : التي أصدرها الشيخ محمود خطاب السبكي سنة ١٩١٣ .
- ٦ - السعادة الأبدية : التي أصدرها علي عبد الرحمن الحسيني سنة ١٩١٤ .
- ٧ - العالم الاسلامي : التي أصدرها الشيخ عبد العزيز جاويز سنة ١٩١٦ .
- ٨ - الحكمة : التي أصدرها السيد عبد العزيز جاب الله سنة ١٩١٨ (٢) .



وهذه هي أهم الصحف الدينية التي صدرت في هذه الفترة وتولت مهمة الدفاع عن الاسلام ضد أعدائه والطاعنين عليه ، واهتمت بإبراز مزايا الدين في مجال العقيدة والتشريع وفي ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وكانت هذه الصحف تتخذ من المناسبات الدينية فرصة للإشادة بالاسلام وبمجوده ورجاله . وكان لذلك كله أثر كبير في اذكاء العاطفة الدينية ، وتقوية الشعور الاسلامي ومؤازرة فكرة الاصلاح على

(١) عمر الدسوقي : في الادب الحديث ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) د . سعد الدين الجيزاوي - العامل الديني ص ٢٢٢ .

أساس الدين التي اتضحت قسماؤها وبرزت مزاياها من خلال ما كتبه أنصارها عن الاسلام الحق الذي يدعون الى اقامة الاصلاح والنهضة على أساسه .

وعلى طريق الدعوة الى الاسلام الصحيح قامت الجمعيات الدينية تؤدي رسالتها في نشر مبادئ الاسلام بصورة محببة تتفق ومنهج الاسلام في الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وكان من أبرز الجمعيات الدينية التي ظهرت في هذه الفترة « الجمعية الخيرية الاسلامية » التي دعا الشيخ « محمد عبده » الى تأسيسها سنة ١٨٩٣ . وجمعية « مكارم الأخلاق » التي أنشأها الشيخان « عبد الوهاب النجار » و « محمد زكي السندي » سنة ١٨٩٩ . و « الجمعية الشرعية للتعاون بين العاملين بالكتاب والسنة المحمدية » التي أنشأها الشيخ « محمود خطاب السبكي » سنة ١٩١٣ .

★★★

وكان ظهور هذه الجمعيات الدينية والصحافة التي تدافع عن الدين رد فعل لموجة من الالحاد سادت بعض المفكرين الذين شبعوا بالعلم الغربي وفتنوا به ولم يعرفوا الاسلام حق معرفته (١) .

ومن هنا كان حرص هذه الجمعيات والصحافة الدينية على ابراز حقيقة الاسلام والتصدي لمفتريات الخصوم وجهل الاتباع وتأكيد أن الاسلام أقدر على تحقيق آمال الأمة في الاصلاح والنهضة .

ومهما يكن من أمر فان تيار الاسلام الذي قاده « الأفغاني » و « محمد عبده » قد شق مجراه في وجدان الشعب المصري الذي استجاب لهذا التيار بفطرته الدينية من ناحية . ثم بفضل جهود المخلصين من دعاة هذا التيار الذين أحسنوا عرض الاسلام وفتحوا أعين الناس على كنوز الحضارة الاسلامية ، ومجود المسلمين من ناحية أخرى .

وكان لهذا التيار أثره في ايقاظ الوعي الاسلامي الذي رد الى المسلمين المعاصرين يقين القدرة على تحدي الحضارة الوافدة أزكى وأعلا وهي الحضارة الاسلامية التي قامت على أساس صحيح وهو الايمان بالله فكانت أعظم حضارة عرفها التاريخ .

(١) عمر الدسوقي : في الادب الحديث ج ٢ ص ٢٠٤ .

فاذا كنا - ونحن لا نزال على مفترق الطرق - نريد اصلاحا لانفسنا ونهضة لأممتنا ، فليكن الاسلام سبيلنا . نبني على قواعده ونشيد مبادئه ونستمد من حضارته وقيمه وتقاليده مفاهيم المجتمع الجديد .

وقد غذى شعراء الجيل المحافظ هذا الاتجاه الاسلامى بما كانوا ينشرون من شعر يبرز مزايا الاسلام ويشيد بنظامه الحضارى فى كل المجالات : فى العقيدة والشريعة وفى السياسة والاقتصاد وفى السلم والحرب أو العلاقات الدولية وفى غير ذلك من شئون الدين والدنيا .

ففى مجال العقيدة : دعا الاسلام الى توحيد الله تعالى فصيح بهذه الدعوة خطأ البشرية فى العقيدة الالهية التى انحرف بها الفلاسفة القدماء وأهل الأديان السابقة (١) . ورد الناس الى الايمان بالله واحد لا شريك له . قال تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » فارتفع بهذا التوحيد شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث لا يخضع لأحد الا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس . . . وتجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تقعدها بارادة غيره سواء أكانت ارادة بشرية ظن أنها شعبة من الارادة الالهية أو انها هى كارادة الرؤساء والمسيطرين ، أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والتسفعاء والمتكته والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلي حق الولاية على العبد فيما بينه وبين الله . . . وصار الانسان بالتوحيد عبدا لله خاصة حرا من العبودية لكل ما سواه ، (٢) .

وفى ظل عقيدة التوحيد تستلهم النفوس معانى الانفة والامزة والأجراة والاقدام والبسالة والشجاعة ، وفى ظلها يتحرر البشر تحررا كاملا وحقيقيا من العبودية للبشر وتكون هذه هى « الحضارة الانسانية » لأن حضارة الانسان تقتضى قاعدة أساسية من التحرر الحقيقى الكامل للانسان ، ومن الكرامة المطابقة لكل فرد فى المجتمع (٣) .

(١) راجع : عباس العقاد : حقائق الاسلام وابطال خصومه ، ص ٥٥ .

(٢) د . محمد نمار : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج ٢ ، ص ٤٤٢ .

(٣) سيد قطب : معالم فى الطريق ، ص ١٠٨ .

لقد افتكت عقيدة التوحيد أسر العزائم وأغلال العقول فأخذ المسلمون يطلبون من الكمال ما يستطيعون ، وأخذوا يشرفون من شرفات الايمان على أسرار الوجود فاتصلوا بمنابع العلم من الفكر والدين حتى سطعت أنوار العلم فيهم ، ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقبه الا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صدأه ، وأبرزوه للأنظار . . ولم يكد ينتهى القرن الثانى من ظهور الاسلام حتى جال المسلمون فى علوم السموات والأرض ، وصححوا الأغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصول ، (١) .

ومن وحى هذه العقيدة فى النفوس استشعر المسلمون شمائل القوة والسيادة والمجد فحرصوا على أن تكون لهم الغلبة والسيادة اعزازا للحق وتمكيناً للدين وإقراراً لمنهج الله فى الأرض وذلك هدف الحضارة الاسلامية وغايتها (٢) .

وقد أشاد « شوقي » بعقيدة التوحيد التى بنى عليها الاسلام ، وقام على أساسها نظامه واستضاءت بنورها حضارته فقال يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشيد بمزايا الاسلام فى مجال العقيدة :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحق من ملل الهوى غراء
بنيت على التوحيد وهو حقيقة نادى بها سقراط والقدماء (٣)

وقال من قصيدة له فى (نبي البر) صلى الله عليه وسلم : (٤)

نظام الدين والدنيا أتيح له يتممه
تطلع فى بنائهما على التوحيد يتممه

فالتوحيد هو الأساس الذى يقوم عليه بناء الاسلام أو هو جوهر الشريعة الاسلامية كما يقول شوقي :

يلوح حول سنا التوحيد جوهر كالحلى للسيف أو كالوشى للعلم (٥)

(١) د . محمد عمارة : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج ٣ ، ص ٢١٧ .

(٢) راجع : أبو الأعلى المودودي : الحضارة الاسلامية ، أسسها ومبادئها ، ص ٦٠ .

(٣) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٥ .

(٤) الشوقيات : ج ٢ ، ص ١٧٠ .

(٥) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٠٤ .

ومن أثر التوحيد في النفس المسلمة أنه يحررها من الخوف لغير الله الواحد فتنتلق في طريق السيادة والمجد لا يردّها عن غايتها بشر ، وتلك مزية من مزايا الاسلام . يقول شوقي :

حب السيادة من شمائل دينكم والجند روح منه والاقلام (١)
ويقول :

من عادة الاسلام يرقع عاملا ويسود المقام والفعالا (٢)
ويقول يمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

وعلمنا بناء المجد حتى اخذنا امرة الارض اغتصابا (٣)
ويقول « عبد المطلب » في نشيده عن الاسلام : (٤)

المجد سر سنائه والعلم لمع ضيائه
والعدل اصل بنائه فصل الممالك والقرون

تلك عقيدة التوحيد في الاسلام وتلك آثارها الايجابية في النفس الانسانية فماذا عن التشريع الاسلامي أو الشريعة الاسلامية بمعنى أدق ؟ لقد أكد المنصفون من مفكرى الغرب أن أية شريعة لم تتمكن من أن تعلو فوق شرع « محمد » وأن التشريع في الغرب ناقص بالنسبة للتعاليم الاسلامية وأن أهل أوروبا بجميع مفاهيمهم لم يصلوا بعد الى ما وصل اليه « محمد » وسوف لا يتقدم عليه أحد (٥) .

وقد ذكر العلامة « سانتيلانا » في كتاب « الفقه الاسلامي » المطبوع في تونس سنة ١٨٩٩ أن في الفقه الاسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني ان لم نقل ان فيه ما يكفي الانسانية كلها (٦) .

(١) لشوقيات : ج ١ ، ص ٢٣٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧١ .

(٣) المرجع السابق : ص ٧١ .

(٤) ديوان عبد المطلب : ص ٣٠٠ .

(٥) أنور الجندى : الاسلام في غزوة جديدة للكر الانساني ، ص ٩٩ .

(٦) المرجع السابق : نفس الصفحة .

ويعترف المسلمة « شيريل » عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا
- الكاثوليكي المذهب - بفضل الشريعة الاسلامية فيقول في كلمة أمام
مؤتمر الحقوقين سنة ١٩٢٧ « ان البشرية لتفخر بانتساب رجل « كمحمد »
اليها اذ انه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع سنكون
نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته بعد ألفي عام » (١) .

ويقول « هوكنج » الأمريكي أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد في
كتابه « روح السياسة العالمية » : « ان في نظام الاسلام كل استعداد داخلي
للمنمو ، بل انه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيرا من النظم الماثلة ،
وعندى أن الصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشريعة
الاسلامية وانما في انعدام الميل الى استخدامها وأننى أقرر أن الشريعة
الاسلامية (٢) .

أجل . . . لقد حوت الشريعة الاسلامية المبادئ اللازمة لقيام حضارة
زاهرة بما فجرت من ينابيع العلم والحكمة ، وبما ألهمت المسلمين من
معانى الحق والخير التى أقاموا عليها حضارتهم .

وقد أشاد « شوقي » بما فى الشريعة الاسلامية من قيم انسانية
ومدنية فاضلة (٣) .



وفى ظل هذه الشريعة التى حملتها الأمة الاسلامية الى الناس علا
الحق وسما الفضل وساد العدل ، وتلاقت آمال البشرية فى نظام تطمئن
اليه النفوس لأن :

فيه ما تشتهى العزائم ان هم ذووها ويشتهى الأذكىاء (٤)



(١) أنور الجندى : الاسلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى ، ص ٩٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠١ .

(٣) راجع الفصل الاول من هذا الباب ، ص ١٨٥ / ١٨٦ .

(٤) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ١٨٥ .

ولقد كان من مزايا هذا النظام أو من مزايا الشريعة الإسلامية أنها جمعت بين الدين والدنيا ، ووفقت بين مطالب الروح ومطالب الجسد في آن واحد يقول شوقي - يمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

**نظام الدين والدنيا أتيح له يتممه (١)
تطلع في بناءهما على التوحيد يدعمه**

ويقول مصورا ابتهاج الكون بمولد النبي - صلى الله عليه وسلم :

الروح والملا والملائك حونه للدين والدنيا به بشراء (٢)

ويقول منوها بعظمة الشريعة الإسلامية التي أقام المسلمون على قواعدها أعظم حضارة جمعت بين الدين والدنيا :

**ظلموا شريعتك التي نلنا بها ما لم ينل في رومة الفقهاء
مشت الحضارة في سناها واهتدى في الدين والدنيا بها السعاء (٣)**

ويقول مشيدا بكمال الشريعة الإسلامية واشتمالها على ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم :

**خطت للدين والدنيا علومهما يا قارىء اللوح بل يا لاس القلم
أحطت بينهما بالسرا وانكشفت لك الخزائن من علم ومن حكم (٤)**

★★★

ومن مزايا الشريعة الإسلامية أنها عامة شاملة للناس جميعا ، ليست لجنس أو وطن أو زمن وإنما هي عامة شاملة لكل زمان ومكان . أنها تخاطب الانسان من حيث هو انسان دون نظر الى جنسه أو لونه أو وطنه أو زمانه أو مكانه ، وفي هذا ما يدل على عظمة الشريعة الإسلامية ووفائها بحاجة الانسانية مهما تطور بها الزمان أو تغير بها المكان .

(١) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٦١١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٩٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦٠٥ .

(٤) المرجع السابق : ص ٦٢٥ .

وقد نوه الشعراء بهذه الخصوصية التي امتازت بها الشريعة
الاسلامية فقال « شوقي » مشيدا بعالمية الاسلام :

نور السبيل يسانس العالمون بها تكفلت بشباب الدهر والهزم
يجرى الزمان وأحكام الزمان على حكم لها نافذ في الخلق مرتسم (١)

ويقول مادحا رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

أنت الذي نظم البرية دينه ماذا يقول وينظم الشعراء ؟ (٢)

ويباهي بحاجة الناس الى التشريع الاسلامي في كل عصر بما يؤكد
عالمية الاسلام وعموم رسالته فيقول :

يرجع الناس والعصور الى ما سن والجاحدون والأعداء (٣)

ويتوسل الى الله برسول العالمين - صلى الله عليه وسلم فيقول :

فالطف لأجل رسول العالمين بنا ولا تزدد قومه خسفا ولا تسم (٤)

ويقول « عبد المطلب » يمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
ويشير الى عموم رسالته :

قلب جرى فيه أن الله حملة عبء البرية من عرب ومن عجم (٥)

ويقول « محرم » مشيدا بالاسلام :

ملا الزمان هدى وأشرق حكمة للعالمين ورحمة وسلاما (٦)

(١) المرجع السابق : ص ٦٣٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٠٥ .

(٣) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٤) المرجع السابق : ص ٦٣٤ .

(٥) ديوان عبد المطلب : ص ٢٦٠ .

(٦) سعد الدين الجيزاوي : اصفاء الدين في الشعر المصري الحديث ، ص ٣٥٠ .

وهذه الخصوصية التي تميزت بها الشريعة الإسلامية تنسجم مع طبيعة الدين الخاتم الذي جمع الله فيه ما تفرق في الأديان السابقة . وجعله متمما لها ومهيما عليها .

★★★

« والتشريع حين يكون عاما تقتضى الحكمة فيه أن يكون قائما على معيار يسهل على الناس جميعا ، الأقوياء والضعفاء ، في جميع الأزمان والأوطان ، كذلك اقتضت رحمة الخالق بعباده في دعوتهم الى الاسلام الذي أريد له أن يكون دين الانسانية ومختتم رسالات السماء - اقتضت هذه الرحمة الراحمة أن يكون التشريع في شريعة هذا الدين مقدرًا على ما يحتمل الضعفاء لا الأقوياء » (١) .

ومن هنا كان « اليسر والسماحة أوضح سمات الشريعة الإسلامية بل ذلك هو عنوانها الذي تعرف به ، ووجهها المشرق الذي تطلع على الناس بجلالها وعظمتها فيه ، وليس هذا القول عن فرض وادعاء بل هو حقيقة من حقائق الاسلام تأخذ مكانها واضحا بارزا في نصوص شريعته حتى لكانها حكم مسلم من أحكامها التي يجب اتباعها والعمل بها (٢) . يقول الله تعالى : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » (٣) ويقول تعالى : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » (٤) ويقول سبحانه : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٥) ويقول جل شأنه : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » (٦) .

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبين من صحابته بعث بهما الى اليمن « يسرا ولا تعسرا » ، ويقول : « بعثت بالحنيفية السمحاء » ويقول : « ان هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق .. وانه لن يشاد الدين أحد الا غلبه » ويقول : « ان هذا الدين ذلول لا يركب الا ذلولا » . ومما يدخل في هذا الباب ويحسب عليه في يسر الشريعة وسماحتها - هذا الوضوح المشرق الذي صيغت فيه أحكام هذه الشريعة وحملت الى الناس به .

(١) عبد الكريم الخطيب : التعريف بالاسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته ،

ص ٢١٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٠٩ .

(٣) سورة الحج : الآية : ٧٨ .

(٤) سورة النساء : آية ٨٢ .

(٥) سورة البقرة : آية ١٨٥ .

(٦) سورة المائدة : آية : ٦ .

وحسب هذه الأحكام وضاعة واشراقا أن يحملها كلام الله ، وأن يتلقاها رسول الله في هذا الكلام الكريم الذي أصبح قرآن المسلمين ، يتعبدون بتلاوته ، وترتيل آياته ! وانه لكى يكون للتشريع - أى تشريع سماوى أو أرضى - الأمر المرجو منه فى مجتمعه ، المدعو الى التزامه ، والتعامل به - ينبغى أن يكون واضح العبارة ، محدد المعنى ، بعيدا عن الرمز والتعمية ، مجانباً المسالك الوعرة والطرق المعوجة ، آخذاً الناس اليه من أقرب طريق وأعدله ، وأيسره ، والاتاه الناس فى دروبه ، وضلوا فى مسالكه ، وتقطعت بهم الأسباب دون أن يقفوا على حقائق التشريع وأن يدركوا مقاصده ومرامييه ، الأمر الذى لا يجعل لهذا التشريع أثرا فى نزعات الناس وفى سلوكهم ، وان يكن له من أثر ، فهو الحيرة والبلبلة والاضطراب والتشريع الاسلامى الذى يحمل نصوصه القرآن الكريم والسنة المطهرة ، يمثل أكمل وأدق تشريع عرفتة الحياة فى وضوح المعنى وضبطه وأحكامه (١) .

★★★

وقد أشاد « شوقى » بيسر الشريعة وسماحتها ، كما أشاد بالقرآن الكريم ونوه ببلاغته وفصاحته . فقال فى همزيتة النبوية : (٢)

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء
وقال :

والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء (٣)

وقال يشيد بالقرآن الكريم - لسان هذه الشريعة - الذى أعجز الفصحاء والبلغاء وأزرى ببيانهم :

الذكر آية ربك الكبرى التى	فيها لبغى المعجزات غناء
صدر البيان له اذا التقت اللغى	وتقدم البلقاء والفصحاء
أزرى بمنطق اهله وبيانهم	وحى يقصر دونه البلقاء
دين يشيد آية فى آية	لبناته السورات والأضواء
الحق فيه هو الأساس وكيف لا	والله جل جلاله البناء (٤)

(١) عبد الكريم الخطيب : التعريف بالاسلام فى مواجهة العصر الحديث وتحدياته ، ص ٢٢٠ .

(٢) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢١ .

(٣) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٠٢ ، توثيق د. الحرفى .

(٤) المرجع السابق : ص ٦٠٠ .

ويقول :

جاء النبيون بالآيات فانصرفت
آياته كلما طال المدى جدد
يكاد في لفظة منه مشرفة
وجئتنا بحكيم غير منعزم
يزينهن جلال العتق والقدم
يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم (١)

وقال يصف الشريعة بالبيان والأحكام :

بشرع هام فيه النام
كضوء الصبح بينه
بيان جل موحيه
حكيم الذكر بين الكثر
س هاشمه وأعجمه
وكالبيان محكمه
وعلم عز ملهمه
ب مظهره وميسمه (٢)

وقال يصف الحديث النبوي الذي اكتسب من بلاغة القرآن الكريم
ومن بركته :

أما حديثك في العقول فمشرع
هو صبغة الفرقان نفحة قدسه
جرت الفصاحة من ينابيع النهر
والعلم والحكم الفوالى الما
والسين من سوراته والبرا
من دوحه وتفجر الانشاء (٣)

ومن مزايا الشريعة الاسلامية فيما يتصل بسياسة الحكم . أنها
انفردت بنظام سياسى تتحقق في ظله العدالة والحرية والمساواة ، وتضامن
به الحقوق وتطمئن اليه النفوس ، ذلك لانه يقوم على أصول ثابتة أهمها :

١ - أن الحاكم الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى ، وليس البشر
الا أمناء عن الله عز وجل ينفذون حكمه ويطبقون منهجه . . ومن ثم . .
فالحكومة الاسلامية هي الحكومة المنفذة لمنهج الله وشريعته والحاكم المسلم
هو الذى يحكم بما أنزل الله . قال تعالى : « فاحكم بينهم بما أنزل الله

(١) المرجع السابق : ص ٦٢٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦١٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦١ .

ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . . « (١) وقال سبحانه : « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك . . « (٢) .

★★★

وطاعة المسلمين لحاكمهم في الأرض مرهونة بطاعته لله إذ الطاعة لولى الأمر في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » مستمدة من طاعة الله والرسول لأن ولى الأمر في الاسلام لا يطاع لذاته ، وإنما يطاع لاذعانه هو لسلطان الله ، واعترافه له بالحاكمية ثم لقيامه على شريعة الله ورسوله . ومن اعترافه بحاكمية الله وحده ثم تنفيذه لهذه الشريعة ، يستمد حق الطاعة . فإذا انحرف عن هذه أو تلك سقطت طاعته ولم يجب لأمره النفاذ (٣) .

٢ - الشورى فى الأمر . قال تعالى « وشاورهم فى الأمر » وقال جل شأنه « وأمرهم شورى بينهم » . فالحاكم المسلم يجب ألا يستبد بأمر المسلمين وألا يقطع فى شأنهم ولا أن يعقد معاهدة تلزم المسلمين بأى التزام دون مشورتهم وأخذ آرائهم ، فان فعل كان للأمة حق الغاء كل ما استبد به من دونهم وتمزيق كل معاهدة لم يكن لهم رأى فيها « (٤) .

والشورى فى الاسلام أوسع مدى من دائرة الحكم لأنها قاعدة حياة الأمة الاسلامية . فقد ورد الأمر بالشورى فى القرآن الكريم واصفا اياها بأنها الشورى فى (الأمر) وفى هذه الكلمة من العموم والاطلاق ما يجعلها تشمل كل شئون الجماعة المسلمة (٥) وأيا ما كان نظام الشورى أو أسلوب ممارستها فانها الضمان لتحقيق العدل وسلامة التصرف فى شئون الدولة ولكن بشرط أن تمارس دورها فى الحكم ولا تكون شعارا خادعا كما هى فى معظم النظم السياسية المعاصرة .

(١) سورة المائدة : آية : ٤٨ .

(٢) سورة المائدة : آية : ٤٩ .

(٣) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، ص ١٠٦ .

(٤) د . زينب رضوان : النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى : أصولها وبنائها من القرآن والسنة ، ص ١٢٦ .

(٥) المرجع السابق : ص ١٢٦ .

٣ - العدل . تنفيذاً لقوله تعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (١) وقوله تعالى : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » (٢) وقوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٣) .

★★★

وهذا هو العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه الحب والبغض ، ولا تغير قواعده المودة والشنآن . العدل الذى لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ، ولا بالتباغض بين الأقوام . . . وتلك قمة فى العدل لا يبلغها أى قانون دولى الى هذه اللحظة ولا أى قانون داخلى بل لا يقاربها كذلك . . . والمهم فى عدالة الاسلام أنها لم تكن مجرد نظريات ، بل أخذت طريقها الى واقع الحياة فحفظ الواقع التاريخى منها أمثلة متواترة (٤) .

وهذه العدالة تقتضى التثبت من الحكم قبل الفصل فى أمر ما حتى يجنب نفسه مزالق الخطأ التى توقعه فى أحداث الظلم ببعض الناس (٥) .

هذه هى الخطوط العامة التى ترسم سياسة الحكم فى الاسلام تتفرع منها خطوط أخرى تكمل صورة الحكم الاسلامى وتؤكد تفردة بين الأنظمة المعاصرة بتحقيق العدالة والسلام النفسى للمجتمع الاسلامى .

وقيمة النظرية الاسلامية فى الحكم لا تكمن فى « المصطلحات » التى قد تتفق أو تختلف مع المصطلحات السياسية المعاصرة ولكنها تكمن على وجه التحديد فى الممارسة العملية وفى التطبيق الفعلى لهذه النظرية التى جربتها الأمة الاسلامية فى عصور حضارتها الأولى فجنت ثمار ذلك عدلاً وأماناً .

وقد أشاد الشعراء المحافظون بنظام الحكم فى الاسلام فقال شوقي يصف ملامح الحكومة الاسلامية ، ويمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسى دعائم النظام السياسى بهذه المبادئ :

الله فوق الخلق فيها وحده لا سوية فيها ولا أمراء

(١) سورة المائدة : آية : ٥٨ .

(٢) سورة المائدة : آية : ٤٢ .

(٣) سورة المائدة : آية : ٨ .

(٤) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٥) د . زينب رضوان : النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى ، ص ١٢٥ .

فرسمت بعدك للعباد حكومة والناس تحت لوائها أكفأ
والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء (١)

ويسترجع « حافظ إبراهيم » صورة الحكم الاسلامى كما تجسدت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه - عدلا لا تؤثر فيه القرابة ولا الحساب، ومساواة بين الرعية لا تيشى الضعفاء ، ولا تطمع الأقوياء ، وشورى فى الأمر لم يرجع عنها الى آخر لحظة فى حياته .

فيقول فى عدله المطلق :

فلا الحساب فى حق يجادلها ولا القرابة فى بطل يحايبها (٢)

ويحكى مقالة رسول كسرى فى عدل « عمر » :

أمنت لما أقيمت العدل بينهم فمنت نوم قرير العين هانئها (٣)

ويقول عن مساواته - رضى الله عنه - بين المتخاصمين فى مجلس القضاة :

فما القوى قويا رغم عزته عند الخصومة والفروق قاضيا
وما الضعيف ضعيفا بعد حجتة وان تخاصم واليها وراعيها (٤)

★★★

وقد رأينا فيما سبق كيف تغنى الشعراء المحافظون بالحكم الاسلامى وتخيلوا ملامحه فى خليفة المسلمين السلطان «عبد الحميد» (٥) .
حلال ، ولكنه فى نفس الوقت يضع الثروة العامة فى خدمة مجموع المسلمين
أما عن مزايا الشريعة الاسلامية فيما يتصل بسياسة المال - فان الاسلام يجيز للمسلم أن يكون ثروته الخاصة ما دامت آتية عن طريق

(١) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٠٢ ، توثيق د. الحوفى .

(٢) ديوان : حافظ إبراهيم : ج ١ ، ص ٨٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦٠ .

(٤) المرجع السابق : ص ٨٣ .

(٥) راجع : الباب الأول ص ١٨ / ١٩ .

والى ذلك يشير القرآن الكريم « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » والمقصود بذلك ألا يكون المال حكرا على الأغنياء فقط بما يؤكد مفهوم الوظيفة الاجتماعية للمال فى الاسلام تحقيقا للعدالة الاجتماعية التى نادى بها الاسلام (١) .

ان المال فى الحقيقة : هو مال الله . والناس مستخلفون فيه ، وليست ملكيتهم له الا ملكية ظاهرية أو ملكية تصرف وانتفاع . قال تعالى « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (٢) وقال سبحانه : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه .. » (٣) .

واذا كان المال مملوكا ملكية مطلقة لله تعالى فانه قد أوجده لجميع عباده القادر منهم والعاجز على حد سواء ولهذا يقول الله تعالى : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٤) ويعنى ذلك أن القادرين من عباد الله انما يعملون فى أموالهم ، وأموال العاجزين منهم عن العمل ، ولهذا فان من حق هؤلاء العجزة أن يحصلوا على جزء مما أنتجه القادرون لأنهم يشتركون معهم فيما يعملون فيه (٥) .

وهذا ليس معناه شيوعية المال ولكن معناه أن طبيعة الملكية الفردية فى الاسلام تختلف عن الملكية الفردية فى النظام الرأسمالى من حيث ان الجماعة حقا فى مال الفرد يقوم الى جانب حقه الخاص ولا يصادره . وانها محوطة بمجموعة من المبادئ المحددة لطبيعة الملكية ووسائل الانفاق (٦) .

والزكاة هى الحد الأدنى لحق الجماعة فى مال الفرد ، يؤخذ من أغنيائهم ويرد على فقرائهم تطهيرا لنفوس الأغنياء من الشح والأنانية ، ولأموالهم من حقوق الفقراء فيها وتقريبا للفوارق الطبقيّة التى يكرهها الاسلام ، لما وراءها من أحقاد وأضغان تحطم أركان المجتمع ، ولما فيها من أثره وجشع وقسوة تفسد النفس والضمير ولما فيها من اضطراب المحتاجين . اما الى السرقة والنصب ، وأما الى الذل وبيع الشرف والكرامة وكلها منحدرات يتجافى الاسلام بالجماعة عنها (٧) .

(١) خالد محمد خالد - الأهرام فى ٢٩/٣/١٩٨٥ .

(٢) سورة النور : آية : ٣٣ .

(٣) سورة الحديد : آية : ٧ .

(٤) سورة المعارج : آية : ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) د . عبد الهادى النجدر : الاسلام والاقتصاد : ص ١٨٥ .

(٦) راجع د . زينب رضوان : المرجع السابق ، ص ٧٩ ، وما بعدها .

(٧) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام . ص ١٥٤ .

من أجل ذلك شرعت الزكاة فريضة مالية اجتماعية تحقق نوعا من التوازن الاقتصادي والتقارب الطبقي ، وتعالج - الى جانب وسائل أخرى - مشكلة الفقر في المجتمع وترسم أساس التكافل الاجتماعي بين الناس . فاذا كان التكافل الاجتماعي يعنى أن للفرد في المجتمع حقوقا يجب معها على القوامين على هذا المجتمع أن يعطوا كل ذي حق حقه وأن يدفعوا الضرر عن الضعفاء وأن يسدوا خلل العاجزين والا تأكلت لبنات المجتمع وانهارت بنيانه . . اذا كان هذا هو مفهوم التكافل الاجتماعي فان الزكاة تعتبر من هذه الناحية أول مؤسس للتكافل الاجتماعي في التاريخ (١) .

وقد دعا الشعراء المحافظون الى الزكاة انطلاقا من هذه المفاهيم الاسلامية فأكدوا على فرضيتها وبينوا أثرها الاجتماعي والنفسي (٢) بما يدل على حكمة الاسلام في مشروعيتها .

على أن الفقير مهما يكن حقه في مال الغني فلا ينبغي أن يقعد عن العمل مطمئنا الى نصيبه من الزكاة ، لأن الاسلام يكره القاعدين من المؤمنين - غير أولى الضرر - عن السعي وطلب الرزق بقدر ما يحرص على كرامة المسلم أن تهان بذل السؤال .

لذلك حث الاسلام على العمل طلبا للكسب ، وتعففا عن المسألة . فاذا عجز عن العمل أو طلبه فلم يجده كان له من الزكاة ما يحفظ حياته ويسد حاجته .

« فهذه الاعانة من الزكاة هي وقاية اجتماعية أخيرة وضمانة للعاجز الذي يبذل طوقه ثم لا يجد دون الكفاية ، أو يجد مجرد الكفاف . وفي هذا يجمع الاسلام بين الحرص على أن يعمل كل فرد بما في طاقته ، وألا يرتكن على الاعانة الاجتماعية فيتبطل ، والحرص على أن يعين المحتاج بما يسد خلته ، ويرفع عنه ثقل الضرورة ووطأة الحاجة ويسر له الحياة الكريمة (٣) .

وقد أشاد «شوقي» بدعوة الاسلام الى العمل ودعا الى الاقتداء برسول الله - عليهم السلام - الذين كانوا يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله . فيقول (٤) :

(١) د . عبد الهادي النجار : الاسلام والاقتصاد ، ص ١٥٢ .

(٢) راجع : الباب الثاني : ص ١٥٤ .

(٣) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الاسلام ، ص ١٥٥ .

(٤) أحمد شوقي : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

كان رسول الله في شبابه	لا يبدع الرزق وطرق بابه
أى رسول أو نبي قبله	لم يطلب الرزق ويغ سبله ؟
موسى الكليم استوجر استجارا	وكان عيسى فى الصبا نجارا
من أحسن الأمثال فيما أحسب	الخبز لا يعطى ولكن يكسب
والرزق لا يحرمه من سعى	فضيحا عليه أو موسعا
لا تال لا سعي ولا تكلان	لا ينفع التوكل الكسلان
كان قبيل البعث رب مال	وتاجرا مير الأعمال
يضرب فى حزن الفلا وسهله	بمال عمه ومال أهله
مبارك الرحلة والاقامة	مستحب الجـد والاستقامة
والرزق بين الناس بحر جار	شراعه يرفع للتجار
مبارك الرحلة والاقامة	واكسب فاهل الكسب من احبابه



وهذه الدعوة الى العمل وطلب الرزق تدل على حرص الاسلام على حماية المجتمع من آفة البطالة ، وحماية الكرامة الانسانية .



وأما عن مزايا الشريعة الاسلامية فيما يتصل بالعلاقات الدولية - أو - السلام والحرب . فان الاسلام قد بنى علاقاته الانسانية على أساس السلام ومد يده بالموودة والاخاء والرحمة لكل البشر . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » (١) وقال جل شأنه : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٢) وقال سبحانه : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٣) .

(١) سورة البقرة : آية : ٢٠٨ .

(٢) سورة الحجرات : آية : ١٣ .

(٣) سورة الانبياء : آية : ١٠٧ .

بيد أن الناس قد مردوا على العدوان والظلم والافتئات على حق الآخرين في الحياة الحرة الكريمة التي تصان فيها الأعراض والدماء والعقائد . وهذا النوع من الناس لا ترده السماحة الى الصواب واحترام حرية الآخرين في الحياة والعقيدة ولكن ترده القوة التي تكسر شرته ، والعنف الذي يذل كبرياءه ، ويطوى سلطانه ويرفع عن أعين الناس ومشاعرهم ضواغله ومؤثراته . على نحو ما يقول شوقي :

والشر ان تلقه بالخير ضقت به ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم (١)

أو ما يقول « عبد المطلب » (٢) :

والناس ان ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب اجدى على الدنيا من السلم

ذلك منطق العقل والأخلاق ، وذلك ما يقوله هداة الوطنية والشرف « حين ينكرون على المرء أن ينكص عن الجهاد في سبيل وطنه وكرامته وعرضه ، ويعيبون عليه أن سالم من يقاتلونه في سبيل حريته وحرية بلاده » (٣) .

وذلك ما فعله الاسلام حين رفع راية الجهاد واستل سيفه في وجه العدوان على الحياة والعقيدة وحرية الانسان .

فحق السيف - كما استخلصه الاسلام - « مرادف لحق الحياة ، وكلما أوجبه الاسلام فانما أوجبه لانه مضطر اليه أو مضطر الى التخلي عن حقه في الحياة وحقه في حرية الدعوة والاعتقاد . فان لم يكن درءا للعدوان والافتئات على حق الحياة وحق الحرية . فالاسلام في كلمتين : هو دين السلام » (٤) .

وهذا ما يؤكد تاريخ الحروب الاسلامية في صدر الدعوة اذا ثبت : « أن المسلمين لم يحاربوا قط في صدر الدعوة الا مدافعين لمن يصدون الدعوة بالموعظة الحسنة من ذوى السلطان ، وكذلك كانت وقائعهم مع مشركي الجزيرة العربية ، كما كانت وقائعهم مع الفرس والروم » (٥) .

(١) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٦٢٨ ، توثيق د . الحوفي .

(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٦٣ .

(٣) عباس العقاد : ما يقال عن الاسلام ، ص ١٣٠ .

(٤) عباس العقاد : حقائق الاسلام واباطيل خصومه ، ص ٢٣١ / ٢٣٢ .

(٥) عباس العقاد : ما يقال عن الاسلام ، ص ١٢٩ .

ان الاسلام لا يرفع السيف - ابتداء - وانما يدعو الناس الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . فان سالموه ولم يقفوا في وجهه ، ولم يحولوا بينه وبين أن يصل الى الناس وهم آمنون أحرار من كل قيد سياسى أو اجتماعى أو فكرى أو عقلى يقل ارادتهم عن حرية الاختيار لما يدينون به . . فهم وما يختارون : لأنه « لا اكراه فى الدين » ولكن بعد أن يتحرر الناس من أغلال السلطة وقيود العبودية البشرية التى تحرمهم حرية الاختيار .

فكما أن الاسلام لا يكره أحدا على الدين فانه لا يقبل من أحد أن يكره أحدا على رفضه أو معاداته أو تجاهله والا فلا معنى لحرية العقيدة فى الاسلام ، لأن الاكراه على قبول الدين كالاكراه على رفض الدين كلاهما يناقض حرية العقيدة .

ومن ثم . كان القتال لتحطيم القوى المادية والمعنوية التى تقف فى طريق الاسلام ، وتحول بينه وبين الوصول الأمن الى ضمير الفرد ضرورة تفرضها حرية العقيدة التى أقرها الاسلام . ولا صلة لهذا القتال باكراه الناس على الدين لان ازالة العوائق والمؤثرات الخارجية والداخلية من طريق الاسلام حتى يصل الى الناس وهم أحرار من كل قيد . هو تأكيد لحرية العقيدة لا لاكراه الناس عليها فكيف يقال - بعد ذلك - ان الاسلام قد انتشر بالسيف ؟ أو أن المسلمين الفاتحين قد أكرهوا الأمم المغلوبة على الدخول فى الدين ؟ ان السبب الصحيح لانتشار الاسلام وسيادة مبادئه : أنه كان أفضل نظام اجتماعى وسياسى تمنحنت به العصر (١) وليس السيف هو الذى جعل للاسلام مكانة فى معترك الحياة بل أن بساطة النبى التامة وانكاره الكلى لذاته واحترامه الدقيق لعهوده ، واخلاصه الشديد لأصدقائه وأتباعه ، وشجاعته وبسالته ، وثقته الكاملة بالله . . هذه - لا السيف - هى التى جرفت كل شىء أمام المسلمين الأولين (٢) .

لقد أتى المسلمون بعقائد سهلة ملائمة للفطرة وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذى عجز عنه المسيحيون الذين غاصروهم (٣) .

واذن : فان الاسلام قد انتشر بقوة الذوويه التى تتمثل فى أصول الاسلام ومبادئه وأحكامه وشريعته التى تنفست البشرية من خلالها عبير الحضارة والكرامة الانسانية .

(١) عمر أبو النصر : محمد بن عبد الله وآراء مشاهير كتاب القرب فى رسالته ونبوته

والاسلام . ص ١٣١ .

(٢) أنور الجندى : الاسلام فى محوزة جديدة للفكر الانسانى . ص ٩١ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٤ .

وقد دافع الشعر المحافظ عن الحروب الإسلامية مؤكدا أنها كانت في مجموعها دفعا للعدوان والظلم ، أو دفاعا عن الحق الذي جاءوا به إلى الناس ولكنهم حاربوه ، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يغز قوما إلا بعد أن استنفذ كل الوسائل السلمية التي من شأنها أن تحقق الدماء . ويا طالما صبر النبي على الأذى رجاء أن يفى القوم إلى الحق الذي جاء به ولكنهم تمادوا في الضلال والبغى ، فكانت الحروب لدفع الحيف ، . . كما يقول - شوقي . ولم تكن - قط - للاكراه على اعتناق الإسلام كما يقول الجاهلون من أعداء الإسلام .

يقول شوقي - مفندا مزاعم الجاهلين من أعداء الإسلام حول القتال في الإسلام :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جملوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذي حسب تكفل السيف بالجهال والعم (١)

فالذين سالموا الإسلام سالمهم ، والذين قعدوا له كل مرصد يصدون دعوته ويفتنون المؤمنين به . تكفل السيف بتأديبهم . . لقد طال صبر الإسلام عليهم حتى بلغوا نهاية التمرد ، فلم يكن بد من الحرب تأديبا للطفاة وتأميننا لمسيرة الحق .

يقول شوقي :

وصبر الداعي على البلاء وما يلاقيه من الأيلاء
فما مقال الجاهل المنفند تأسس الإسلام بالهنند ؟
كل غزاة للنبي حقه لم يعد في حرب قریش حقه
ليس سواء كلها العوان لا يستوى الدفاع والعدوان
هم بلغوا نهاية التمرد وطردها الإسلام كل مطرد
وصادروا الأموال معتدينا وناصبوا محمدا والدينا
وهادنوا ثم بغوا فناهلوا ونقضوا ما أبرم التعاهد
فكانت الحرب لدفع الحيف قد يؤخذ السلم بعد السيف (٢)

(١) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٥٠ .

(٢) أحمد شوقي : ديوان دول العرب وعظماء الإسلام ، ص ٢٧ / ٢٩ .

ان الحرب لم تكن - قط - هدفا للمسلمين . ولم تكن قط - بغيا
ولا عدوانا ولا مغنا . وانما كانت وسيلة لاقرار السلام ، وارضاء الحق
واعلاء كلمة الدين .

كم من غزاة للنبي كريمة فيها رضا للحق او اعلاء
كانت لجند الله فيها شدة في اثرها للعالمين وخاله
خربوا الضلالة ضربة ذهبت بها فعلى الجهالة والضلالة عفاه
دعموا على الحرب السلام وظالما حقنت دماء في الزمان دماء (١)

ويبرىء « عبد المطلب » سيوف المسلمين من أغراض الدنيا ، وهوى
النفوس فيقول :

في الله ما جردوا منها وما غمدوا في الله ما سفكوا من انفس ودم
(٢)
لم يحملوها لدنيا قل ما جمعوا منها، ولا عن هوى في النفس محتكم

وجملة القول : أن الاسلام لا يبدأ أحدا بعدوان وانما يمد يده بالسلام
الذى يؤمن وجوده ، ويفتح الأبواب المغلقة لدعوته ومتى ظفر الاسلام بهذا
الحق : حق الوجود ، وحق البلاغ للناس فلا قتال . بل سلام ورحمة حتى
وان بقى الناس على عقيدتهم مخالفين للاسلام لانه « لا اكراه في الدين » .

أما اذا اعتصم الأعداء بالقوة ، وظاهروا على اخراج الاسلام واعنات
أهله فان شريعة الاسلام - بل كل شريعة تؤمن بكرامة الانسان - تؤكد
حق المسلم في الدفاع عن نفسه وعقيدته .

ولم تكن غزوات النبي - صلى الله عليه وسلم - الا ردا لعدوان أو
ازالة للعوائق التي اعترضت طريق الاسلام وهو يدعو الناس الى الله
بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد دافع « شوقي » عن الحرب في الاسلام « ودحض زعم الزاعمين
بان الاسلام قد انتشر بحد السيف ، وقوة الغزاة ، لا على الحجة والبرهان

(١) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٦٠٤ ، توثيق د. الحرفى .

(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٦٣ .

وقبول العقل ، وأبان أن القتال لم يكن إلا لرد عدوان المعتدين وتنحية
روس الشر (١) ، هذا هو موقف الشريعة الإسلامية من قضية الحرب
والسلام أو العلاقات الدولية تتجلى فيه طبيعة هذا الدين في الاعتدال بين
القوة والرحمة ، والحرب والسلام بحسب ما تمليه طبيعة المواقف الدولية .

مستبد على قسوى ، حلیم عن ضعيف ، وهكذا الاسلام (٢)

★★★

ومن منطلق الاحساس بمزايا الاسلام وعظمة مبادئه ، وصلاحيته -
بل ضرورته - لبناء نهضة حضارية متينة . أخذ الشعراء المحافظون يهتفون
بالاسلام ويدعون الى التمسك به ، واحياء منهجه ، مؤكدين أنه السبيل
الوحيد لاستعادة المجد الغارب وحماية الحق المستباح .

★★★

وكان ايمان الشعراء المحافظين بعظمة الاسلام وأصالة حضارته
دافعا لهم الى الحفاظ على تراث الاسلام وحمايته من محاولات الهدم التي
استهدفت القضاء عليه تمهيدا للقضاء على الاسلام ذاته وكانت الدعوة
الى العامة هي أخطر هذه المحاولات التي تعرض لها تراثنا العربي في هذه
الفترة .

وترجع بداية هذه الدعوة الاستعمارية الى سنة ١٨٨٠ عندما ظهر
كتاب « قواعد العربية العامة في مصر » للمؤلف الألماني « ولهم سبيتا » -
مدير دار الكتب المصرية - حاملا جرثومة الدعوة الى العامة والى اتخاذ
الحروف اللاتينية لكتابة العامة - تلك الحروف التي نودى باستخدامها
فيما بعد لكتابة العربية الفصحى (٤) .

وفي سنة ١٨٩٠ وضع « كارل فولرس » الألماني كتاب عن « اللهجة
العربية الحديثة في مصر » ندد فيها بجمود العربية الفصحى ، وشبهاها
باللاتينية الكلاسيكية وشبه العلاقة التي بينها وبين اللهجة المصرية بالعلاقة
التي بين اللاتينية الكلاسيكية والاطالية الحديثة (٥) .

(١) سعد الدين الجيزاوى : اصلاء الدين في الشعر المصرى الحديث . ص ٢٢٥ .

(٢) الشوقيات : ج ٣ ، ص ١٤٣ .

(٣) راجع ديوانى احمد مكرم : ج ١ ص ١١٣ ، والكاشف : ج ١ ص ٩١ .

(٤) راجع : د . نفوسة زكريا : تاريخ الدعوة الى العامة والرها في مصر ، ص ١٨ .

(٥) د . نفوسة زكريا : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

وفي سنة ١٨٩٣ ألقى السير « ويليام ولكوكس » خطبة بنادى الأزيكية نصح فيها المصريين باتخاذ العامية أداة للتعبير الأدبي اقتداء بالأمم الأخرى واستشهد بالأمة الانجليزية وقال : انها أفادت فائدة كبيرة منذ هجرت اللاتينية التي كانت لغة الكتابة والعلم يوما ما ، وكان هذا الرجل من أشد أعداء اللغة الفصحى وقد بذل غاية جهده لمحاربتها والقضاء عليها (١) .

وفي سنة ١٩٠١ وضع « سلدن ولور » القاضى الانجليزى كتابا فى اللغة الانجليزية عن العامية المصرية دعا فيه الى اتخاذ العامية لغة أدبية وكانت له وسائله الخاصة فى دعم تلك الدعوة التى صادفت هوى فى نفسه فاستغلها ليحقق هدفا من أهداف الاستعمار البريطانى ، وهو فصل المسلمين والعرب عن ماضيهم وتفتيت وحدتهم اللغوية بالقضاء على العربية الفصحى (٢) .

ثم دخلت هذه الدعوة مرحلة جديدة وخطيرة باجتذاب نفر من دعاة الشيوعية والتفرقة الاسلامية . أخذوا يدعون الى تمصير اللغة العربية زاعمين أن اللغة الفصحى « تبعثر وطنيتنا المصرية ، وتجعلها شائعة فى القومية العربية فالمتعمق فى اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطال « بغداد » بدلا من أن يشرب الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر ، فنظره متجه أبدا نحو الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية ، وليس من مصلحة الأمة العربية أن ينزع شبابها الى الشرق » (٣) .

ولا شك أن هذه الدعوة الى تمصير اللغة العربية أو الى العامية خطر محقق على الاسلام من طريق اللغة القرآنية التى نزل بها القرآن ، وسجل بها تاريخ الاسلام وتراثه ، كما أنها خطر محقق على المسلمين لأنها تمزق وحدتهم الفكرية والروحية ، وتعصب بتراثهم الضخم وحضارتهم المجيدة ، وكان لهذا الاحساس بالخطر أثره فى الدعوة الى اللغة الفصحى وحمايتها من الضياع ، وبرز فى هذه المعركة من الكتاب عبد الله النديم (٤) ومحمد المويلحي ، وابراهيم اليازجى ، وشهدت الساحة الأدبية تكوين جمعيات من أدباء مصر لنشر الفصحى والدود عنها ومقاومة طغيان اللغة العامية (٥) .

(١) عمر الدسوقي : فى الأدب الحديث ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

(٢) د . نفوسة زكريا : المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٣) عمر الدسوقي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

(٤) راجع فى ذلك : ١ - عبد الله النديم : بين الفصحى والعامية ، د . نفوسة زكريا .

٢ - مختارات المنفلوطى : مقال (اللغة والعصر) ص ٨١/٧٩ .

(٥) عمر الدسوقي : فى الأدب الحديث ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

وانتظم الشعراء المحافظون في صفوف المقاومة ضد محاولات الهدم التي تعرضت لها اللغة الفصحى على يد أعدائها والمتربصين بها في الداخل والخارج ولم يكتف المحافظون بما قدموه للفصحى من خدمات تجلت في تمكنهم من آدابها القديمة وفي قيامهم بأحيائها في نتاجهم الغزير ، وإنما تصدوا للدفاع عنها في قصائدهم وكتاباتهم . فنظم « حافظ ابراهيم » قصيدته على لسان اللغة العربية سنة ١٩٠٣ عقب الضجة التي أحدثها كتاب « ولور » الذي حمل على العربية واتهمها بالضعف والعجز عن أداء حاجات العصر . فدافع « حافظ » في قصيدته هذه عن الاتهامات التي وجهت الى العربية مشيدا بمجودها الغابرة ، وبحماتها المخلصين مستحشا أبناءها على مواصلة جهودهم لأحيائها مبينا ما تنطوي عليه الدعوة الى العامية من خطر (١) يقول فيها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن أي به وعظمت
فكيف اضيق اليوم عن وصف آله وتنسيق اسمه لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

ثم يقول منددا بالمصريين الذين رددوا دعوة العامية . وبالأجانب الذين بثوها وروجوها لها ، مبينا حقيقة هذه العامية المتعددة اللهجات المتقلبة الأحوال (٢) :

أرى كل يوم بالجرائد مزلفا من القبر يدنني بغير أناة
واسمع للكتاب في مصر ضجة فأعلم ان الصائحين نعاتي
أيهجرني قومي - عفا الله عنهم - الى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعي في مسيل فوات
فجأت كتوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات (٣)

ويقول شوقي مدافعا عن الفصحى بأنها لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأنها قادرة على التعبير مهما اختلفت العصور وتطورت ، وتقدم العمران وازدهر ولكن هذه الطواعية والاقتدار لا يأتيانها إلا بنصرة أبنائها وحفاظهم على مجدها وتراثها :

(١) د . نفوسه زكريا : تاريخ الدعوة الى العامية وأثرها في مصر ، ص ٣٦٢ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٥٥ .

ان للفصحى زماما ويندا تجنب السهل وتقتاد الصعابا
لغة الذكر لسان المجتبي كيف تعييا بالمنادين جوابا
كل عصر دارها ان صادفت منزلا رحبا واهلا وجنابا
اتت بالعمران روضا يانعا وادعها تجر ينابيع عذابا

ويرفض شوقي ترقية الفصحى بكلمات دخيلة مؤكدا قدرتها على النهوض بأعباء الحضارة مهما ارتقت ، ضاربا المثل بحضارة الأندلس التي نهضت اللغة بأعبائها معبرة عنها ، لم تقصر فى الدلالة على شئ منها ، ولم نستعن بغيرها من اللغات فى أضواء هذه الحضارة فيقول :

لا تجئها بالمتاع المقتنى سرقا من كل قوم ونهابا
سل بها أندلسا هل قصرت دون مضمار العلا حين أهابا
غرسى فى كل ترب أعجم فزكت أصلا كما طابت نصابا
ومشت مشيتها لم ترتكب غير رجليها ولم تحجل غرابا (١)

وقال يشيد بفضل اللغة العربية ، وتراثها ، ويحث الشبيبة على الحفاظ عليها :

ظلت تعين المصلحين الضاد وظل للعلم بها اعتقاد
هذا لسان القوم يا بنيا على أساس ثابت مبني
أودية تنفى الخيال فسحة جرت عليها للجمال مسحة
تنزلها أوانس المعاني بين معين اللفظ والخيال
لسانك الأول فى الكتاب ولغة الصبوة والعتاب
فاجر على محاسن اللسان تجل فى مواطن الاحسان (٢)

وقال ينصح الترك بتعلم اللغة العربية لتكون وسيلة للقربى بين العرب والترك :

(١) الشوقيات : ج ٢ ، ص ١٦ .

(٢) أحمد شوقي : ديوان دول العرب وعلماء الاسلام ، ص ١٠ .

شمل اللغات لدى الأقوام ملتئم فانها أوثق الأسباب واللمم (١)
فقربوا بيننا فيها وبينكم فانها أوثق الأسباب واللمم (٣)

★★★

ويعد « الرافعى » فى طليعة حماية العربية الفصحى الذين نافحوا
عنها بكل ما أوتوا من بيان ، ومن ذلك قصيدته (اللغة العربية والشرق) (٢)
وفيهما يعرض « الرافعى » لتهاون أبناء اللغة العربية فى حمايتها ، وينكر
عليهم انصرافهم عنها ، وإيثارهم لغيرها من اللغة الأجنبية ، على حين أن
لغتهم ينبوع ثر ، ولها تاريخ عريق فى الثقافة والأدب ، وهى كالذهب
لا يعتريه صدأ (٣) فيقول :

ام يكيد لها من نسلها العقب ولا نقيصة الا ما جنى النسب
كانت لهم سنيا فى كل مكرومة وهم لنكتبها من دهرها سبب

ثم يلتفت الى طلاب الثقافة الغربية على حساب اللغة العربية وآدابها
فيقول :

أترك الغرب يلهينا بزخرفه ومشرق الشمس يبكينا وينتخب
وعندنا نهر عذب لشاربه فكيف نتركه فى البحر ينسرب (٤)
وأياها لغة تنسى امرا لغة فانها لعنة من فى تنسكب
فهل نضيع ما أبقى الزمان لنا وننفض الكف لا مجد ولا حسب
انا اذا سبة فى الشرق فاضحة والشرق منا وان كنا به ، خرب
هيهات ينفعنا هذا الصياح فما يجدى الجبان اذا روعته الصغب

ثم يفخر باللغة العربية وبصفاء معدنها فيقول :

اذا اللغات ازدهرت يوما فقد ضمنت للعرب اى فخر بينها الكتب
وفى المعادن ما تمضى بروثقه يد الصدا غير أن لا يصدا الذهب

(١) الشوليات : ج ١ ، ص ٢٨١ .

(٢) ديوان الرافعى : ج ٢ ، ص ١٤ .

(٣) د . أحمد الحوفى : القومية العربية فى الشعر الحديث ، ص ٢٨ .

(٤) لعله يعنى (بالانسراب فى البحر) طفيان اللغة الأجنبية أو طفيان العامة على

الفصحى .

ويأسف الشاعر « أحمد الزين » لضياع اللغة العربية بين أهلها
فيقول :

أولى فأولى بدمع مسيل لغة أمست بحظ من الأيام منكود
قد أقفر الربع منها بعد ما نعمت في ناضر سابغ الأفياء مسود
وظل مشرعها يشفى الصدا حقا فما له اليوم أمسى غير مورود (١)

ويعرض « النشار » لهذه القضية فينحسر على ما آلت إليه اللغة
العربية لغة الكتاب العزيز من ضعف وخذلان بسبب تهاون أبنائها في
الحفاظ عليها فيقول :

أبكي وحق الشرق أن يبكي عني أنا جزيناها العقوق جهارا
تكلت بنيتها الأولين ولم تجد منا على آثارهم أنصارا
وكانما هي في البلاد غريبة تبكي الطلول وتندب الآثارا

ثم يشيد باللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم بلسانها فسمت
مكانتها وعلا قدرها ، ولكننا أضعناها بتقصيرنا في حمايتها :

أم ولا كالأمهات كريمة ولدت معدا في العلا ونزارا
وأتى الكتاب على جلاله قدره بلسانها فسمت بذاك فخارا
فإذا سمعت ثم بلاغة وإذا رأيت رأيت ثم وقارا
هذه الأم التي ضاعت بنا ظلما فكنا بعدها فجارا
وليس من نكد الزمان وبؤسه أن لا يقيّل لها البنون عشارا

ثم يقول على لسان اللغة معاتبا أبنائها :

أخلفتوا ظني وختتم ذمتي وخذلتمو الأعوان والأنصارا
أبني هل شرط الوفاء لديكمو أن تنبنوا الفاظي استكبارا (٢)

(١) أحمد الزين : ديوان الطوف الدالية ، ص ٢٠ .

(٢) محمد حمدي النشار : ديوان ثمرات الأفكار ، ج ٣ ، ص ٧١ .

ويطالب « المصري » أولى الأمر في مصر بالحفاظ على لغة القرآن والاعتصام بالدين فيقول من قصيدة له :

وحرروا لغة القرآن واعتصموا بالدين في كل أمر يوجب الفزعا (١)

★★★

بهذه المعاني دافع الشعراء المحافظون عن اللغة العربية لغة القرآن الكريم التي استطاعت في ظل عالمية الاسلام أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر ، وأن تنهض بتبعات الحضارة الاسلامية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الانسانية (٢) .

وكان جهاد المحافظين في دعم الفصحى وحمايتها من الضياع صورة من صور الدفاع عن الحضارة الاسلامية بكل مقوماتها الدينية والتراثية واللغوية ، وكان تعزيز الحضارة الاسلامية وابرازها في مكان الصدارة واثبات قدرتها على العطاء المتجدد رد فعل لمحاولات التغريب أو الاتجاه نحو الغرب والاعتماد عليه في بناء النهضة واصلاح الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية في مصر .

ونخلص مما تقدم الى :

١ - أن التحدى الحضارى بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى فى هذه الفترة قد دفع المفكرين من أصحاب الاتجاه الاسلامى ومن ورائهم شعراء الجيل المحافظ الى ابراز قسَمات الحضارة الاسلامية من خلال المفاهيم والمبادئ التى جاء بها الاسلام فى كل شئون الحياة الدينية والدنيوية تأكيداً لقدرة الاسلام على تحدى الحضارة الوافدة بحضارة اذكى وأعلى .

٢ - ان التحدى الحضارى لا يزال قائماً . ومن هنا فإن الحاجة الى عرض الاسلام والتعريف بخصائصه ومزاياه بصورة تليق بمكانته وتحبب الى الناس منهجه أشد من أى وقت مضى .

(١) ديوان : عبد الحليم المصرى : ج ٣ ، ص ٢٤ .

(٢) راجع : أحمد السايح : مستقبل الحضارة الاسلامية ، ص ١٧ .

وهذا واجب إسلامي عام ينبغي أن ينشط له المسلمون كافة ، ودعاة
الإسلام من علمائه ومفكريه خاصة .

٣ - أن « أحمد شوقي » كان أطول الشعراء نفسا ، وأغزرهم معنى ،
وأقدرهم على التعبير عن مبادئ الإسلام والاشادة بحضارته والتعريف
بفضائله ومزاياه .

البَابُ الرَّابِعُ

الدراسة الفنية



ويشتمل على فصلين

الفصل الأول :

الشكل الفني للقصيدة الإسلامية في الشعر
المحافظ في مصر

الفصل الثاني :

المضمون الإسلامي في الشعر المحافظ في مصر

الفصل الأول

الشكل الفني للقصيدة الإسلامية في الشعر المحافظ

تمهيد حول علاقة الشكل بالمضمون :

لا سبيل الى الفصل بين الشكل والمضمون في العمل الأدبي ، ولا يمكن أن يقوم أحدهما بغير الآخر لانهما كل واحد ، وليست الصورة التعبيرية الا ثمرة للانفعال بالتجربة الشعورية ، وليست القيمة الشعورية الا ما استطاعت الألفاظ أن تصوره وأن تنقله الى مشاعر الآخرين (١) .

ومعنى ذلك أن مادة النموذج الأدبي وصورته لا تفرقان فهما كل واحد ، وهو كل ما يتألف من خصائص جمالية مختلفة قد يردّها النظر السريع الى الخارج أو الشكل ولكننا اذا أمعنا النظر وجدناها ترد الى الداخل والمضمون فهي تنطوي فيه أو قل تنمو فيه كما تنمو الشجرة من ساق ضئيلة وتتشعب الى فروع وأغصان كثيرة (٢) .

واذا كان النقاد يفصلون اللفظ أو الشكل ، عن المعنى أو المضمون في دراساتهم فان ذلك لا يعنى أنهما منفصلان في وجودهما الخارجي بمعنى أن لكل واحد منهما وجودا مستقلا عن الآخر ، ولكنهم اضطروا الى ذلك الفصل لغايات تعليمية حتى يفرد اللفظ بنعوته الذوقية التي يفضل بها غيره من الألفاظ التي قد تستعمل في معناه ويفرد كذلك المعنى الذي يصوره الأديب بصفاته التي يمتاز بها من غيره من معاني الآخرين (٣) .

(١) سيد قطب : النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ، ص ١٩ .

(٢) د . شوقي خفيف : في النقد الأدبي ، ص ١٦٤ .

(٣) د . بدوي طهانه : قضايا النقد الأدبي ، ص ١٧٣ .

وتأسيسا على ذلك : فائنا بين يدي هذه الدراسة الفنية ينبغي أن تتفق على أمرين :

أولهما : أن أى مضمون فنى لا يمكن أن يقوم منفصلا عن شكله الفنى (١) .

ثانيهما : أن الفصل بين الشكل والمضمون هنا إنما يتم فى إطار الدراسة الفنية أو النقدية لما مر من نماذج الشعر الإسلامى المحافظ ، فهو فصل « مؤقت » يستهدف التفسير للقيم الفنية فى هذا الشعر ، ونحن مضطرون الى هذا الفصل « المؤقت » لهذا السبب .

ومن ثم فسوف أتناول بالدراسة فى هذا الفصل الشكل الفنى للقصيدة الإسلامية فى الشعر المحافظ من حيث :

١ - الصياغة .

٢ - بناء القصيدة .

أولا - الصياغة :

(١) الألفاظ :

حينما نرجع النظر فيما بين أيدينا من نصوص الشعر الإسلامى المحافظ نرى أن هذا الشعر المحافظ قد تميز بجزالة الألفاظ ووصانيتها وهذا أمر طبيعى يتفق مع رسالة الشعر المحافظ التى استهدفت بعث الشعر العربى وأحياءه والمحافظة على مادته الأدبية ، وصورته الفنية التى كان عليها فى عصور الازدهار والقوة .

وكان هذا الاتجاه الذى راده البارودى تعبيرا أدبيا عن روح الفترة النضالية التى عبأت فيها الأمة الإسلامية كل مقوماتها الحضارية فى مواجهة الحضارة الأوروبية الغازية بتقاليدها الاجتماعية والثقافية التى حاولت أن ترحزح تقاليدنا الأصيلة عن مكانها فى نفوس أبنائنا الذين اعتزوا بتراثهم فحافظوا عليه ، واسترابوا فى كل دخيل حديث حتى « أصبح كل حديث متخلف عنوانا للترف الزائف والعقيدة المدخولة والعربية المشوبة وأصبح

(١) د . محمد العزب : ظواهر التمرد الفنى فى الشعر المعاصر ، ص ٧٠ .

كل قديم قريب من الاسلام في صدره الأول عنوانا للصحة والمتانة وعصمة من الضعف والركاكة .. حتى رأينا من غلاة هذا المذهب في الجيل الماضي يعنى جيل المحافظين - من كان يسخر بالمعري وأبناء عصره ويرجع باللغة النقية والفصاحة الشعرية الى ما قبل ذلك بعصور ، (١) .

وبذلك صار الاتجاه المحافظ علامة على الفصاحة اللغوية والبلاغة الاسلوبية والصياغة الفنية الأصلية التي عرفها القدماء باسم « عمود الشعر » ، وتلك هي السمة الفنية العامة للشعر المحافظ في كل أغراضه وفنونه ، صورته هي صورة الشعر القديم ، ومادة بنائه هي مادة بناء الشعر القديم وأسلوبه هو أسلوب الشعر القديم في كل عناصره ومقوماته الفنية .

بيد أن ذلك لم يكن ليمنع الشعراء من تلوين أسلوبهم وتشكيل مادتهم الأدبية وفق ما تمليه طبيعة التجربة والموضوع الشعري من لوازم الأداء الفني المتميز في ألفاظه وعباراته وصوره وموسيقاه والشعر الاسلامي مثل صادق لهذا التميز الفني ويتضح ذلك من ملاحظة ما تقدم من نماذج الشعر الاسلامي وما سوف أقدمه منها وقد لاحظت فيما يتصل بالألفاظ :

١ - كثرة الألفاظ الاسلامية او المتصلة بالاسلام ومنها :

(١) ألفاظ تتصل بأركان الاسلام كالحج مثلا بما فيه من احرام وطواف وسعى بين الصفا والمروة ورمي للجمار ووقوف بعرفة الى غير ذلك من مناسك الحج المعروفة كقول « حافظ ابراهيم » من قصيدة له في تهنئة الخديوى عباس بقدمه من الحج سنة ١٩٠٩ مطلعها :

منى نلتها يا لابس المجد معلما أدينا ودنيا ؟ زادك الله أنعما

ثم يقول بعد أبيات :

رميت فسلدت الجمار فلم تكن جمارا على ابليس بل كن اسهما
وبين الصفا والمروة ازددت عزة بسعيك يا عباس لله مسلما

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٥٢ .

وطفت وكم طافت بسدتك المتى وكم أمسك الراجى بها وتحرمها
ولما استلمت الركن حاجت شجونه فلو أنه استطاع الكلام تكلمها (١)

بيد أن حافظا - هنا - لم يرتفع الى مستوى الشعيرة الدينية
بما تلقيه فى نفس المؤمن من معانى الخشوع والتقوى والتجرد من أهواء
النفس بل هبط الى درك المديح الشخصى . ووازن بين ما يفعله المسلمون
تعظيمهم لشعائر الله وما يفعله المتزلفون للخديو طمعا فى نواله .

(ب) ألفاظ ترتبط بعالم الغيب والملا الأعلى : كالروح والملائكة ،
والعرش وسدرة المنتهى والوحي واللوح والقلم كقول شوقى :

الروح والملا الملائك حوله للدين والدنيا به شراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهى والمنتهى والسدرة العصماء
والوحي يقطر سلسلا من سلسل واللوح والقلم البديع روا (٢)

★★★

(ج) ألفاظ تتصل بأوصاف النبى - صلى الله عليه وسلم - فى
القرآن الكريم : من مثل (العائل) « اليتيم » « الأمل » كقول شوقى :

وارسل عائلا منكم يتيما دنا من ذى الجلال فكان قابا (٣)

وقوله :

يا أيها الأمل حسبك رتبة فى العلم أن دانت بك العلماء (٤)

★★★

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٥٢ .

(٢) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٥٩٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦٠٩ .

(٤) المرجع السابق : ص ٦٠٠ .

(د) ألفاظ ترتبط بفجر الدعوة الإسلامية : كالأصنام والضلال والجهالة - كقول شوقي يشيد بجهاد الأبطال من رجال الإسلام الذين عاصروا بداية الدعوة وشاركوا في نصرتها :

ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها فعلى الجهالة والضلال عفاء (١)
نسفوا بناء الشرك فهو خرائب واستأصلوا الأصنام فهي هباء

وكأسماء الغزوات والمواقع التي شهدها الأبطال في بداية الدعوة كغزو بدر واحد والأحزاب وحنين وغيرها كما يقول « عبد المطلب » :

وسل صهوات الخيل كم وطئوا بها نواصى حصن للضلال وخربوا
وسل عنهم بدرا ، وسل أحدا وسل عنهم عصب الأحزاب يوم تحزبوا
ويوم حنين اذ تركن هوازنا لأشلائها الطير الحواجل تنهب (٢)

(هـ) أسماء مقتبسة من التاريخ الإسلامى : كأسماء الخلفاء الراشدين ، والقواد الفاتحين وعظماء الإسلام ممن ورد ذكرهم في « ديوان دول العرب وعظماء الإسلام » لشوقي . وفي « العمرية » « لحافظ » وفي « العلوية » « لعبد المطلب » ، وتلك سمة من سمات الشعر الإسلامى وهى الالتفات الى المجود الإسلامية والتأثر بالتاريخ الإسلامى .



(و) ألفاظ تتصل بنظام الإسلام ومزايا الشريعة كالشورى والبيعة واليسر ، والبر ، كقول شوقي :

والدين يسر ، والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء (٣)
والبر عندك ذمة وفريضة لا منة ممنونة وجبا



-
- (١) المرجع السابق : ص ٦٠٤ .
(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٧ .
(٣) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٦٠٢ .

٢ - أن ألفاظ الشعر الاسلامى تتبع العاطفة وتتأثر بالموضوع
الشعرى فبينما نراها ناثرة نابضة ، جزلة فخمة ، رصينة متينة ، قوية
الايقاع ، واضحة النبرة اذا بنا نراها سهلة سلسة ، هادئة رقيقة . فمن
اللون الاول قول « محرم » فى الحرب الطرابلسية : (١)

رويدا بنى روما فللحرب فتية تهيج القلب اطراهم واللهاذم
اولئك أبطال الخلافة تحتمى بأسياها ان داهمتها العظام
هم المانعوها ان يقسم فيئها وأن تستبى بيضاتها والمخارم
اندعن للباغى ونعطيه حكمه وفى الترك مقدام وفى العرب حازم
هما اخوا العز الذى دون شأوه تخر الصياصى خشعا والمخارم

★★★

فها هنا نرى ألفاظا جزلة رصينة تتميز بالاستطالة وتكثر فيها
الحروف القوية التى تناسب المعانى العنيفة مثل : تهيج - القلب - اللهاذم
- أبطال - داهمتها - العظام - المانعوها - بيضاتها - مقدام - الصياصى
- المخارم .

فهذه الألفاظ فخمة لها من قوة الايقاع ، وعنف الدلالة ما يناسب
موقف الحرب .

★★★

ولقد يكثر هذا اللون من الألفاظ القوية ، فى قصائد الحرب ومواقف
الحماسة ، والحث على النضال ، واستثارة الهمم لمقاومة الاحتلال ، وتعبئة
الشعور الاسلامى للدفاع عن الاسلام والمسلمين .

★★★

ومن اللون الثانى ، ذى الرقة والسلاسة قول « شوقى » فى مدح
النبي صلى الله عليه وسلم :

نظام الدين والدنيا أتيج له يتممه

(١) لأحمد محرم ثمانى قصائد فى مناسبات مختلفة من هذه الحرب . راجع :

أ - ديوان محرم ج ٣ : ١٨ - ٣٩ .

ب - د - محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ج ١ ص ٣٦ .

تطلع في بنائهما على التوحيد يدعمه
يشرع هام فيه النسا من هاشمه وأعجمه
كفوء الصبح بينه وكالبنيان محكمه
بيان جل موحيه وعلم عز ملهمه (١)

ومنه قول « حافظ ابراهيم » في رثاء الامام « محمد عبده » :

سلام على الاسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا على البر والتقوى ، على الحسنات

ألفاظ سهلة - سلسلة ، عذبة ، رقيقة ، لها من الدلالة ما يشيع
جوا روحيا خاشعا يناسب جلال الموقف ومكانة الفقيه . مثل : سلام
- الاسلام - الدين - العلم - البر - التقوى - الحسنات الخ .

وكثيرا ما نجد هذا اللون من الألفاظ الرقيقة والكلمات العذبة ذوات
الايقاع الهادي ، في قصائد الرثاء لعظماء الاسلام وفي مواقف الضراعة
والتوسل والشكوى وغيرها من موضوعات الشعر التي تنبع من ينبوع
الأنين .

★★★

٣ - أن بعض الألفاظ قد جاء غير دقيق في موضعه ، ومن أمثلة ذلك :

كلمة (حابي) بمعنى : خص . في قول شوقي :

يريد الخالق الرزق اشتراكا وإن يك خص أقواما وحابي (٢)

فهى كلمة غير لائقة فضلا عن عدم الحاجة اليها لوجود كلمة « خص »
قبلها .

★★★

وكلمة (نابلة) بمعنى : سجية شريفة . في قول « حافظ ابراهيم »
في « العمريه » :

(١) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٦١١ ، توثيق د. الحولى :

(٢) الشوقيات : ج ٢ ، ص ٩٠ .

فى كل واحدة منهم نابلة من الطبائع تنلو نفس واعيا (١)

فهى لفظة غير شعرية فضلا عن أنها تحتل معنى ضاربة النبل ،
وهو معنى بعيد عن سياق البيت (٢) .

وكلمة (حائط) فى قول « المعرى » فى « البكرية » :

وما الحق الا حائط بين قوة وضعف وليس العدل الا تقاضيا

فهى كلمة غير دقيقة فى تصوير المعنى المقصود (٣) .

وكلمة (حظيرة) فى قول شوقى :

والعرش يزهو والحظيرة تزدهى والمنتهى والسدرة العصماء (٤)

لأن الحظيرة . جرين التمر ، والمحيط بالشئ خشبا أو نصبا .
ومكان الغنم وان جاء فى معانيها المعجمية . (حظيرة القدس . هى الجنة) (٥)
الا أن عدم اضافتها فى البيت يسرع بالذهن الى قضاها الشائع بين
الناس (٦) .

وكلمة « الفقراء » فى قول شوقى :

قلو أن انسانا تخير ملة ما اختار الا دينك الفقراء (٧)

يريد أن يقول : ان الفقراء يجدون لأنفسهم فى عدم الاسلام ونظامه
الشامل مكانا يحفظ لهم كرامتهم وحقوقهم جنبا الى جنب مع الأغنياء حيث
يتساوى الكل فى حق الحياة . وهذا العدل الاجتماعى من مزايا الاسلام
ولا شك فى ذلك .

ولكن كلمة الفقراء هنا ، توحى الى الذهن بمران غير محببة ، منها
تحيز الاسلام للفقراء على حساب الأغنياء ، بما يعانى ذلك من تشجيع
على الفقر والبطالة .

(١) ديوان حافظ : ج ١ ، ص ٩٧ .

(٢) راجع : سعد الدين الجيزاوى وأصداء الدين ، ص ٣٦٨ .

(٣) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٤) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٥٩٧ .

(٥) د - أحمد الحوفى : الاسلام فى شعر شوقى ، ص ٥٤٦ .

(٦) على النجدى ناصف : الدين والأخلاق فى شعر شوقى ، ص ١١٤ .

(٧) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٠٣ .

وكلمة (الكل) فى قول شوقى :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء (١)

فهى من أشبه الكلمات بكلام العامة وأجدرها ألا تتجاوز حدود ما يدور بينهم من أحاديث ومساجلات ، ومن اللغويين من ينكر اقترانها بالألف واللام لأنها لم تسمع مقرونة بهما فيما أثر عن العرب من نصوص (٢) .

بيد أن هذه المأخذ الفنية لا تشكل ظاهرة عامة ولكنها من الندرة بحيث لا تنال شيئاً من بلاغة الجيل المحافظ وقدرته على اختيار اللفظ المعبر .

(ب) العبارات :

والحديث عن « العبارة » فى العمل الأدبى يتصل بالحديث عن « اللفظ المعبر » فالعبارة مجموعة ألفاظ منسقة على نحو معين لأداء معنى ذهنى أو شعورى ، والألفاظ لا تستطيع أن تعطى دلالتها كاملة إلا فى هذا النسق وتستمد العبارة دلالتها - فى العمل الأدبى - من مفردات الدلالة اللغوية للألفاظ ومن الدلالة المعنوية الناشئة من اجتماع الألفاظ وترتيبها فى نسق معين. ثم من الإيقاع الموسيقى الناشئ من مجموعة إيقاعات الألفاظ متناغماً بعضها مع بعض ثم من الصور والظلال التى تشعها الألفاظ متناسقة فى العبارة (٣) ومعنى ذلك أننا حين نقوم العبارة فى الشعر الاسلامى المحافظ ينبغى أن نقومها بمعيارين :

أولهما : معيار الدلالة اللغوية للألفاظ . من حيث ما تدل عليه فى القاموس .

ثانيهما : معيار النسق التعبيري للألفاظ . من حيث ما تدل عليه مجتمعة من معانٍ ذهنية وشعورية .

(١) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٠٣ .

(٢) على النجدي ناصف : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٣) سيد قطب : النقد الأدبى ، أصوله ومناهجه ، ص ٤١ .

فأما من حيث الدلالة اللغوية للألفاظ فإن أقل ما يقال في جيل شارك في بعث الشعر العربي وأحياء قيمه الفنية الأصيلة أنه استوعب مفردات اللغة بدلالاتها القاموسية ، وإيقاعها الموسيقي ، وظلها الذي تلقى في الخيال .

وإذا كان هذا الجيل يرى في بعث التراث أحياء لمجد الإسلام ، ودعماً لفكرة الجامعة الإسلامية ، فقد أقبل على التراث اللغوي يستوعبه ويحيط بمفرداته ويتمرس بأساليبه . حتى تحقق له من القدرة البيانية ما لم يتحقق لغيره من الأجيال منذ العصر العباسي حتى الآن .

★★★

وإذا كان المحافظون قد تبعوا البارودي في منهجه من حيث المحافظة على الأطار التقليدي للقصيدة العربية مشاركين بذلك في حركة البعث الأدبي التي قادها البارودي فإنهم قد زادوا عليه أو تميزوا عنه بتيسير ألفاظ اللغة والاقتراب بها من ذوق الجماهير التي تقرأ شعرهم وتتأثر به لأنه يحكى آمالهم وأمانيتهم ويعالج قضاياهم ومشكلاتهم السياسية والاجتماعية والدينية .

ومعنى ذلك أن المحافظين لم يقفوا عند حدود البعث والأحياء أو عند مرحلة البارودي كما ذهب إلى ذلك الدكتور « أحمد هيكل » (١) بل تجاوزوها - فيما يبدو لي - إلى مرحلة الطلاقة البيانية التي تتميز بوضوح العبارة وصفائها ودقة الألفاظ وإيحائها ، وقد جاء شعرهم محققاً لكلتا المرحلتين : مرحلة الأحياء والبعث ومرحلة التيسير أو الطلاقة البيانية .

وأما من حيث النسق التعبيري الذي تنشأ عنه الصور والظلال والمعاني الذهنية والشعور فحسبنا أن نسوق مثلاً يوضح إلى أي مدى كانت حساسية المحافظين الأسلوبية . وإلى أي مدى كانت قدرتهم التعبيرية عن تجاربهم الشعورية الإسلامية .

يقول شوقي في قصيدته (نهج البردة) يستشفع بالنبي - صلى الله عليه وسلم :

ان جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم

(١) د. أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث في مصر ، ص ١٤٢ .

ألقى رجائي إذا عز المجير على مفرج الكرب في الدارين والفهم
إذا خففت جناح الذل أسأله عز الشفاعة لم أسأل سوى أم
وان تقدم ذو تقوى بصالحة قدمت بين يديه عبرة الندم
لزمت باب أمير الأنبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يفتنم (١)

★★★

فالموقف الشعوري الذي تفجرت عنه هذه الأبيات هو موقف
الضراعة والالاباة والأمل في مغفرة الله وشفاعة النبي - صلى الله عليه
وسلم - وهذا الموقف الشعوري يناسبه اللفظ الخاشع ، والتعبير اللين
الرقيق ، والجملة الخيرية التي توحى بالاستعطاف . وتشعر بالانكسار
والخضوع وهو ما نلاحظه في قول الشاعر : لي أمل في الله - ألقى رجائي
.. على مفرج الكرب - خففت جناح الذل - أسأله عز الشفاعة - قدمت
.. عبرة الندم - لزمت باب أمير الأنبياء - حيث جاءت العبارة رقيقة
تنساب في سهولة ويسر من خلال ألفاظ عذبة رقيقة لا التواء فيها
ولا غموض ولا غرابة ولا ابتذال - تتألف في تواد ويأخذ بعضها بحجز
بعض في اتساق محكم وتركيب متين .

★★★

وهاك لونا آخر من ألوان الشعر الاسلامي المحافظ قد اتسق فيه
التعبير مع الشعور فجاء محققا للصدق الفني الذي تميز به الشعر
الاسلامي .

يقول : عبد المطلب ، في : الحرب بين الترك وايطاليا بطرابلس
الغرب ، (٢) :

بني أمنا أين الخميس المدرب وأين القوال والحساب المدرب ؟
إذا اهتز في نصر الحنيف تساقطت نفوس العدا من حده تتحلب
وأين قلوب يشهد الصقر أنها غداة الوغى منه أشد وأصلب
وأين الحلوم الراجحات إذا عرا سنى الرشد من ليل الحوادث غيب

(١) ديوان شولي : ج ١ ، ص ٦٢١ .

(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٥ .

وَأَيْنَ الْوَجْوهَ الصَّبِيحِ وَالذَّهْرَ سَاهِمٌ وَبَيْضَ الظُّبَا بِالْهَامِ تَلْهُو وَتَلْعَبُ
وَأَيْنَ الْعَطَاءِ الْجَمِّ فِي كُلِّ عَسْرَةٍ يَمُرُّ بِهَا عَامٌ مِنَ الْمَحَلِّ أَشْهَبُ
خَلِيلٌ مَالِي إِنْ تَذَكَّرْتُ بَرْقَةً بِجَنْبِي نِيرَانُ الْأَسَى تَتَلْهَبُ
نَعَمْ رَاعِنِي مِنْ نَحْوِ بَرْقَةٍ صَارَخَ يَهَيْبُ بِأَنْصَارِ الْهَلَالِ إِلَّا أَرْكَبُوا
دَعَا صَارَخَ الْإِسْلَامُ يَا لِبْنِي الْهَدَى أَغَارَ الْعَدَا أَيْنَ الْحَسَامِ الْمَشْطَبُ

والجو النفسي الذي أطلقته الأبيات هو التعاطف مع المجاهدين في طرابلس ضد العدوان الإيطالي ، واستثارة الهمم الإسلامية لمواجهة هذا العدوان .

وهذه التجربة الشعرية تقتضي نوعاً من التعبير يتسم بقوة اللفظ، وجهارة الصوت وفخامة العبارة وجلجلة الإيقاع ، وقد نجد الشاعر في تخير ألفاظه ، وتنسيق عباراته بالقدر الذي يوائم عاطفته ، ويؤدي معانيه، نلاحظ ذلك من خلال الاستفهام البلاغي المستنفر الهمم في قوله : أَيْنَ الخميس المدرب - أَيْنَ العوالي والجسام المدرب - أَيْنَ قلوب - أَيْنَ الحلوم الراجحات - أَيْنَ الوجوه الصبح - أَيْنَ العطاء الجم - أَيْنَ الحسام المشطب .

كما نلاحظه في هذا التعبير المثير للعاطفة الإسلامية في قوله : يَا لِبْنِي أَمْنَا - أَنْصَارُ الْهَلَالِ - صَارَخَ الْإِسْلَامُ - يَا لِبْنِي الْهَدَى - أَغَارَ الْعَدَايَا وربما كان لتنوع الأسلوب بين الخبر والانشاء في هذه الأبيات دلالة في الإيحاء بعاطفة الشاعر الهائجة المستثارة بالعدوان الإيطالي على طرابلس .

فإذا نحن أرفقنا أسماعنا إلى الإيقاع الصوتي للأبيات أدركنا مدى التوفيق الذي أصابه الشاعر في الالتحام بتجربته والتعبير عنها لفظاً ومعنى وإيقاعاً ، فالقصيدة من البحر الطويل الذي يناسب مواقف الحماسة ويوائم العاطفة الثائرة .

وبالجملة فالقصيدة في نسقها التعبيري نموذج لطريقة القدماء في النظم من حيث متانة الأسر وقوة السبك ، وائتلاف أجزاء الكلام ، ومناسبة الألفاظ للمعاني وخلو العبارة مما يخل بجمالها على نحو ما بين علماء

البلاغة . وليس هذا بغريب على « عبد المطلب » الذي كان ينسج على منوال القدماء ويستعير أساليبهم للتعبير عن مشاعره الذوقية .

★★★

ومثل هذا الصديق الفنى فى نقل التجربة بعبارات معادلة لحرارة العاطفة وقوة الشعور تجده فى قول « شوقى » فى « الحرب العثمانية اليونانية » : (١)

كان الوغى نار ، كان جنودنا مجوس اذا ما يمموا النار قربوا
كان الوغى نار ، كان الردى قرى كان وراء النار حاتم بادب
كان الوغى نار ، كان بنى الوغى فراش له فى ملمس النار مارب

★★★

فها هنا نلاحظ المواءمة بين الصياغة والعاطفة - حيث جاءت العبارة موحية بجو المعركة ملائمة لموضوع الحرب . كما يظهر ذلك فى تشبيه الوغى بالنار ، وفى تصوير المحاربين مقبلين على الحرب فى رضا وسرعة ، وتلبية لدافع العقيدة ورغبة فى المثوبة بالمجوس الذين يقبلون على نارهم المعبودة ويقربون لها القرابين (٢) وفى هذا احياء بشجاعة الجنود ، واخلاصهم للعقيدة .

وفى تسمية المقاتلين بـ « بنى الوغى » ما يدل على شجاعتهم ورباطهم الدائم فى سبيل الله . . . وهكذا تمضى العبارة مواكبة للعاطفة ملائمة للموضوع محققة للصديق الفنى الذى يتطابق فيه الشعور مع التعبير .

وأساس البناء فى هذه العبارة هو اللفظة الجزلة المشحونة بقوة الايقاع المعبر عن العاطفة الصادقة .

ولا شك أن قدرة الشاعر على التقاط اللفظة المعبرة بدلالاتها اللغوية وإيقاعها الصوتى ووضعها فى جوها الملائم لطبيعتها هو من سمات التعبير الجيد .

(١) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(٢) د . أحمد الحوتى : أضواء على الأدب الحديث ، ص ١٨٦ .

وتستطيع فى ضوء ما تقدم من نماذج الصياغة الفنية للقصيدة
الاسلامية أن تقول : ان العبارة فى الشعر الاسلامى المحافظ كانت الصوت
الخارجى للشعور الداخلى بحيث كانت اذا قوى الشعور واشتدت العاطفة
وكان الموضوع ذا صبغة حماسية كمواقف الجهاد والاشادة بالبطولة
والأبطال . جاءت العبارة فخمة البناء متينة التركيب ، رصينة الألفاظ ،
عالية النبرة .

فاذا رقت العاطفة وسما الشعور ، وتنبهت فى النفس أحاسيس
الايمان ومعانى الخشوع والتقوى . رق الأسلوب ، ولان التعبير ، وسالت
الألفاظ فى سهولة ويسر ، وعذوبة وسلاسة ، وأكثر ما يلقانا ذلك فى
مواقف التوسل والضراعة أو مدائح النبى - صلى الله عليه وسلم - أو
رثاء العظماء من رجال الاسلام أو تهانى الخلفاء ومدائحهم . واذ ذاك
تنساب الألفاظ الى معانيها فى رفق ولين . وتنسأل العبارات على اللسان
انسىالا هادىء النبرات رقيق النغمات .



واذن . . فقد كان للشعراء المحافظين قدرة على تصريف القول على
مقتضى المعانى الذهنية والشعورية التى أوحى بها التجربة الشعورية .

ولعل هذا ما أشار اليه البارودى فى تقريره لديوانه حافظ
ابراهيم ، بقوله : (١)

لبق بتصريف الكلام يسوقه ما شاء بين سهولة واعزاز

بيد أن قدرة المحافظين على تصريف الكلام بين السهولة والجزالة
والرقة والمتانة لا تعنى أن شعرهم كله كان نسقا من الصياغة العالية
والتعبير الجيد لم يترد فى مهاوى التعبير المباشر ولم يهبط الى درك المآخذ
الفنية والأخطاء اللغوية . فالواقع أننا قد لاحظنا شيئا من ذلك ولكنها
- مع ذلك - ملاحظات تبقى فى حجمها الطبعى لا تغير شيئا من الخصائص
العامة للشعر المحافظ .



(١) ديوان البارودى : ج ٢ ، ص ١٦١ .

ومن أمثلة التعبير المباشر الذى - لا شك - يفقد الشعر كثيرا من خصائصه الفنية قول « حافظ إبراهيم » من قصيدة له فى ملجأ لرعاية الأطفال سنة ١٩١١ يصف أحد المنفقين فى سبيل الخير وقد تعرض لمحنة ولكنه نجا بسبب المعروف وفضل الزكاة :

وهو من معشر أغاثوا ذوى البؤس وقاموا فى الله خير القيام
وأقاموا للبر دارا فكانت خير ورد يؤمه كل ظامى
قد نجا المنعم الجواد من الموت بفضل الزكاة والانعام
ورأينا شخص المروءة والبر تبدى فى شخص ذاك الهمام
وعلمنا أن الزكاة سبيل الله قبل الصلاة قبل الصيام
خصها الله فى الكتاب بذكر فهم ركن الأركان فى الاسلام
بدأت مبدأ اليقين وظلت لحياة الشعوب خير قوام
لو وفى بالزكاة من جمع الدنيا واهوى على اقتناء الحطام
ما شكا الجوع معدم أو تصدى لركوب الشرور والآثام (١)

أو قوله : فى الحث على تعصيد مشروع الجامعة وبيان أثرها فى حياتنا : (٢)

هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا حد القراءة فى صحف وفى كتب
من المداوى اذا ما علة عرضت من المدافع عن عرض وعن نشب
ومن يروض مياه النيل ان جمعت وأنذرت مصر بالويلات والحرب
ومن يوكل بالقسطاس بينكم حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
ومن يطل على الأفلاك يرصدها بين المناطق عن بعد وعن كتب
يبيت ينبئنا عما تنم به سرائر الغيب عن شفاة الحجب

فها هنا يتجه التعبير الى المباشر ويكاد يقترب من النثر فى تقرير الحقائق . بيد أننا لا نكاد نجد ذلك فى غير قصائد المناسبات والمواقف

(١) ديوان حافظ إبراهيم : ج ١ ، ص ٢٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .

المحفلية التي جرت الشعراء الى عدة ظواهر : « من أهمها عدم تعبير الشعر في كثير من الأحيان عن تجارب صادقة ، ومن أهمها أيضا تشكّل أسلوب الشعر بما يلائم المحافل ومجامع الجماهير ومواقف خطابهم . ومن هنا كثر عند الشعراء المحافظين التعبير المباشر الذي يجعل الشعر أحيانا قريبا من النثر فيفسد عليه كثيرا من قيمه الفنية لأن ما أمكن أن يقال نثرا فمن الأفضل أن يقال شعرا » (١) .

وقد تلقانا مثل هذه الظواهر الأسلوبية التي تسم التعبير بسمّة المباشرة التقريرية في موضوعات الشعر الاجتماعي الذي يهتم برصد الظواهر الاجتماعية ويعنى باصلاحها عن طريق النقد أو التوجيه واسداء النصيحة .

كما قد يلقانا هذا اللون من التعبير المباشر في بعض القصائد السياسية التي نخلو من حرارة العاطفة وتتجه نحو التقرير بعيدا عن الإيحاء والتأثير .

★★★

والى جانب هذه المآخذ الفنية . فهناك بعض أخطاء لغوية يمكن ان أشير الى بعض منها فيما يلي :

١ - حذف الفاء من جواب الشرط وهو جملة اسمية في قول « شوقي » :

ان جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم

٢ - زيادة هاء السكت بعد كلمة (ويلتا) في حالة الوصل والمشهور أنها لا تزداد الا في الوقف (٢) وفي قول شوقي : (٣)

يا ويلتاه لنفسي راعها ودهي مسودة الصحف في مبيضة اللهم

٣ - استعمال كلمة (المضعوف) بمعنى الضعيف في قول «حافظ» في « العمريه » :

كف خفت مضعوفا دعساك به وكم اخفت قويا ينثنى تيهها

(١) د . أحمد ميكل : تطور الأدب الحديث في مصر ، ص ١٤٤ .

(٢) راجع : أ - د . أحمد الحوفي : الإسلام في شعر شوقي ، ص ٢٤٦ .

ب - علي النجدي ناصف : الدين والأخلاق في شعر شوقي ، ص ١٦٠ .

(٣) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٤٣ .

والقياس : (مضعف) كقولهم : أبعد الله فهو مسعود . والقياس
(مسعد) بفتح العين (١) .

٤ - استعمال كلمة (مكاييد) مهموزة في قول الكاشف من قصيدة
له يمدح بها السلطان عبد الحميد :

وأرضيتنا عن ذلك الدهر إذا غفرنا له الذنب الذي ليس يغفر
وانسيتنا ذكرى مكائده التي تصرمن العيش الذي يتمرر

فقد همز عين الجمع هنا كما في صحائف ورسائل ، والصرفيون
لا يجيزون ذلك لأن الياء في (مكاييد) أصلية وفي صحائف ورسائل
حرف زائد (٢) .

★★★

على أنى أعود فأؤكد أن هذه الأخطاء اللغوية نادرة لا تمثل ظاهرة
جديرة بالدراسة فضلا عن إمكان توجيهها أو التماسي المبررات الفنية لها .

★★★

ومهما يكن من أمر فثمة ملاحظات عامة ينبغي أن أشير إليها في
إطار هذه الدراسة الأسلوبية للشعر الإسلامي المحافظ :

أولها : أن العبارة في الشعر الإسلامي المحافظ قد تأثرت بالثقافة
الإسلامية وبخاصة القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للثقافة
الإسلامية ، وللتشريع الإسلامي . وقد ظهر أثر ذلك في اقتباس الشعراء
لألفاظ القرآن الكريم . ولا غرابة في ذلك لأن الروح الدينية هو عماد
الأفكار التي تضمنها هذا الشعر فلا بد أن يعبر عنها بألفاظ من الدين
نفسه ولا بد أن يكون كتاب الله هو النبع الأول للشعراء يستمدون منه
ألفاظه ويتأثرون بعباراته ويقتدون بأسوبه الرصين (٣) .

(١) ديوان حافظ إبراهيم : ج ١ ، ص ٨٢ .

(٢) راجع : محمود غنيم : أحمد الكاشف (بحث) ضمن كتاب - خمسة من شعراء

الوطنية - ص ١٨١ .

(٣) سالم الحمداني : التيار الديني في الشعر العراقي الحديث ، ص ٤٩٩ . رسالة

- غير منشورة - بكلية الآداب - جامعة عين شمس .

ومن ذلك قول « عبد المطلب » فى « حرب طرابلس » :

ففتح المؤمنون وكان حقنا على الرحمن نصر المؤمنين (١)

أو قوله فى « الحرب بين الترك وإيطاليا » (٢) :

عموا اذ دعاهم واستحبوا العمى على الهدى فتردوا فى الضلال
وكبكبوا ومنه قول «حافظ ابراهيم» فى «تحية الأسطول العثمانى» (٣) :

(قتل الانسان ما أكفره) طاول الخالق فى الكون وسامى

أو قوله فى رثاء مصطفى كامل (٤) :

نعم الجزاء ونعم ما بلغته فى منزلك ونعم عقبى الدار

ومنه قول « الرافعى » من قصيدة له « فى الشقاء » (٥) :

وكم زلزلت دورهم (فخر عليهم السقف)

ومنه قول « الكاشف » ينعى على أهل مراکش جهلهم وعدم صبرهم على
السلطان عبد الحفيظ . :

**أبعد مخلوعكم عبد العزيز نرى عبد الحفيظ على كرسىه قلقا
ان عبتموه فقد عبتم أخاه وان يسرق فان أخاه قبله سرقا (٦)**

الى غير ذلك من مواضع الاقتباس التى ان دلت على شىء فانما تدل
على سيطرة النزعة الدينية على شعراء هذا الجيل وعلى تأثيرهم بالثقافة
الاسلامية ، وارتباطهم بالعبارة القرآنية .

★★★

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٩٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٦ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٦٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٥) ديوان الرافعى : ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٦) ديوان الكاشف : ج ٢ ، ص ١٥٦ .

ثانيها : أن المحافظة على طريقة القدماء فى صياغة الشعر والارتباط بتقليدهم الفنية ومادتهم الأدبية قد أدت - فى بعض الأحيان - الى تشابه الأساليب والعبارات بين الشعراء المحافظين بسبب الاسراف فى تقليد القدماء من ناحية ثم بسبب الأصول الفنية المشتركة بين هؤلاء القدماء من ناحية أخرى .

وقد لاحظ «طه حسين» هذا التشابه بين أسلوب الشعراء المحافظين فأنكر عليهم ذلك ونعى عليهم عدم التمايز بألفاظهم وأساليبهم وآرائهم وشخصياتهم وأنهم لم يستقلوا عن القدماء من فحول الشعراء (١) .

ثالثها : أن الشعراء المحافظين مع تمسكهم بمذهب القدماء فى صياغة الشعر قد سلكوا فى تقليدهم للقدماء مسالك شتى : فمنهم من امتد بصره الى شعراء البادية واصطنع أسلوبهم فى التعبير ، ومنهم من أغرم بشاعر أو أكثر من شعراء العصر العباسى . فبعد المطلب مثلا كان يبغي القدوة بين الشعراء الجاهليين والمخضرمين ومن أخذ بأسلوبهم فى الجدة والجزالة (٢) وكان متأثرا أشد التأثير بشعراء البادية وكان متميزا بين معاصريه بهذه الخاصية (٣) على حين كان حافظ وشوقى ينسجان على طريقة العباسيين وبتأثيراتهم فى النظم والأسلوب . فالتقليد للقدماء هو القاسم المشترك بين الشعراء المحافظين ولكنهم فى إطار هذا التقليد القديم تتعدد منازعهم فى كثير من الأحيان .

رابعها : أن الشعراء المحافظين قد يسروا أساليب اللغة واقتربوا بشعرهم من المستوى الثقافى العام لدى جماهير الشعب فى مصر لأنهم كانوا يخاطبون عواطف الشعب الوطنية والقومية والدينية ويعبرون عن آماله وأمانيه ومن ثم عبروا عنه باللغة التى لا تمتنع ولا تتأبى عليه وبالأسلوب الذى لا ينأى عن ادراكه ، ولا يبتعد عن ذوقه . ولم يكن الشعراء على درجة واحدة فى الاقتراب بشعرهم من المستوى الثقافى للشعب فى لغته القريبة وأسلوبه السهل ، ومعانيه الواضحة ، فمنهم من اقترب بشعره من مستوى ثقافة الشعب اقترابا أدناه منه على نمو ما كان من « حافظ ابراهيم » الذى جاء شعره الى لغة الشعب أقرب ، ومن أجل ذلك قلت فيه البادرة من الخيال الخصب ، وأجذب من المعانى البعيدة ،

(١) راجع : د. طه حسين . حافظ أو شوقى ، ص ١٢١ .

(٢) راجع : عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل المائى ، ص ٤٧ .

(٣) سعد الدين الجيزاوى : اصداؤنا الذين فى الشعر المصرى الحديث ، ص ٢٧٠ .

والصور الغريبة ، ومنهم من نأى بشعره في لغته وأسلوبه ومعانيه وصوره عن المستوى الثقافي للشعب على نحو ما كان من الشيخ « محمد عبد المطلب » الذي جاء شعره في لغة بدوية جزلة اللفظ وأسلوب متين محكم البناء ، وفي معان أقرب الى الشعر القديم منه الى معاني الحياة التي يعيشها الناس . ومنهم من توسط فلم يقترب كل الاقتراب ولم يبتعد كل الابتعاد على نحو ما كان من « اسماعيل صبرى » و « أحمد شوقي » اللذين جاء شعرهما في لغة وأسلوب يرتفع قليلا ولا يبتعد في الارتفاع عن لغة الشعب وأسلوبه .

ولكنهم مع تفاوتهم في الاقتراب بلغة الشعر وأسلوبه من المستوى الثقافي للشعب كانوا جميعا محافظين على الشكل التقليدي في صياغة الشعر ، هذا الشكل التقليدي في صياغة الشعر . هذا الشكل الذي أخذ يستهويهم منذ بدأ احياء التراث الأدبي للأمة العربية يقدم للشعراء أمثلة الشعر القديم ونماذجه في هذه الصياغة التقليدية ، ومنذ بدأ البارودي يقوم بدوره العظيم في بعث الشعر في مصر على أساس من الصياغة التقليدية في قصيدة الشجر القديم . فمضى هذا الجيل من الشعراء يتبع البارودي ويتأثر خطاه في النهوض بالشعر في شكله التقليدي من فصاحة اللفظ وسلامة العبارة واحكام الصياغة . ولكنهم يمتازون عن البارودي بالركة المتناهي في اللفظ والسهولة المفرطة في الصياغة والقراءة الدانية في الصور والمعاني والكثرة الغالبة في الأغراض التي تمس جوانب الحياة .

ومن هنا استقل جيل المحافظين بمنهج في الشعر متميز عن منهج البارودي وان كان قد مضى يتبعه على التقليد ويتأثر خطاه « (١) » .

(ج) المحسنات البديعية :

عنى الشعراء المحافظون بتجويد أسلوبهم واتقان صياغتهم حتى جاء شعرهم مثلا لروعة البيان واشراق الديباجة ، ووضوح الفكرة ، ونصاعة الأسلوب وصفاء العبارة ، وكانت المحسنات البديعية من بين عناصر الجمال في صياغتهم الفنية ، وخصائصهم الأسلوبية . ولكنها مع ذلك لم تكن هدفا مقصودا لهم بل كانت تجيء عفوية غير متكلفة ، طبيعية في التعبير لم تفسدها الصنعة . ثم ان الشعراء لم يجدوا بأنفسهم حاجة الى هذه المحسنات البديعية والتلفيق اللفظية بعد أن صحح البارودي مسار

(١) د. عبد اللطيف خليف : التيارات الجديدة في الشعر العربي الحديث في مصر ،

الشعر العربي وخلصه من قيود البديع والصنعة التي كبته طوال العصر العثماني ، وبعد أن أصلح الامام محمد عبده بمقالاته في الوقائع المصرية وفي غيرها أسلوب الكتابة الأدبية وحرره من بقايا طريقة القاضي الفاضل . ثم بعد أن زاد الاتصال بين الشرق والغرب وسرى تيار الثقافة الغربية بين أبناء هذا الجيل فانعكس ذلك بدوره على أسلوب الكتابة ولغة الأدب والشعر .

وكذلك بعد أن نما الوعي الاسلامي وقوى تيار الحركة القومية فوجه أنظار الشعراء الى العناية باظهار مزايا الاسلام وبعث مجوده واحياء التراث العربي والاسلامي وبعد أن شغل الشعراء بتصوير أحداث الأمة الاسلامية ، ورسم أبعادها الوطنية والقومية والدينية .

بعد ذلك كله . . وبسبب ذلك كله سقطت المحسنات اللفظية من شعر المحافظين وسلم الشعر الاسلامي من قيودها ولم يجد الشعراء بأنفسهم حاجة اليها وفي نحو ذلك يقول العقاد : « سلم الشعر العربي في مصر من سخافة التلفيقات اللفظية وركاكة الابتذال ثم اتجه الى الفحولة والجزالة منذ نيف وستين سنة على مقربة من العصر الذي جاشت فيه الحركة القومية ونشبت الثورة العرابية وبدأت فيه العقول والطبائع تعرف ظواهر الجمود والاسفاف وان لم تنته الى العرفان بحقائق النهضة وبواعث اليقظة الكاملة .

وكان فضل هذه السلامة يرجع الى امرين : أحدهما أدبي قريب من الشعر والشعراء وهو سريان الشعر القديم - شعر الفحول المطبوعين المشهود لهم بالسبق والأستاذية - بين أيدي المتأدين والقراء على اثر ظهور الطباعة وانتشار آثارها في البلاد الشرقية .

ويتصل بهذه اليقظة الأدبية من بعض أطرافها يقظة القراء المطلعين على الكتب الأدبية والأنماط الحديثة في شعر اللغات الحية التي كانت معروفة يومئذ بين خاصة المصريين .

أما الأمر الآخر الذي أعان على تجديد الفحولة في الشعر العربي بمصر فهو ديني يتصل بالأدب والشعر من طريق دائر ولكنه ظاهر . . وتفصيل ذلك : أنه لما شاعت النهضة في الشرق كله شاع معها الأسف بين المسلمين على ما أصابهم من الضعف والهزيمة بعد القوة والسيادة . ثم شاع بينهم اليقين بأن لا مؤئل لهم ولا أمل في تجديد سلطانهم ومنعتهم الا بالرجوع الى الاسلام في أيامه الأولى أيام الجدة والغلبة والفطرة السليمة من البدع والمحدثات وعوارض العصور الأخيرة وفضول الأعاجم والمقتدين .

يهم . فأصبح كل حديث متخلف عنوانا للترف والعقيدة المدخولة والعربية المشوبة وأصبح كل قديم قريب من الاسلام فى صدره الأول عنوانا للصحة والمتانة وعصمة من الضعف والركاكة ، وعاد طلاب المعارف الدينية الى ما كان عليه خلفاء الدولة الأموية والعباسيين حيث كانوا يطلبون لأبنائهم الفصاحة فى البادية ويقرنون بين سلامة لغة القرآن وسلامة العربية على حال البداوة . ومن هذه الوجهة سقطت المحسنات اللفظية والبدع المتأخرة عند أناس لم يسقطوها من وجهة الذوق الأدبى والملكة الفنية . ولا كان ميسرا لهم أن يسقطوها من وجهة الذوق والفن لو اعتمدوا عليها دون الاعتماد على الغيرة الدينية والنصرة البدوية ، (١) .

فان وجد شئ من المحسنات البديعية فى شعر المحافظين فهو - على قلته - أصيل فى التعبير لا تكلف فيه ولا اقتسار ، ولا يذهب بهدف الشاعر بل يخدم هذا الهدف ويزيد جمال المعنى ، (٢) .

وذلك كالجناس فى قول « شوقى » فى الهزمية النبوية : (٣)

واذا بنيت فخير زوج عشرة واذا ابتليت فدونك الآباء

وفى قول « عبد المطلب » فى ظل البردة : (٤)

أغرى بك الشوق بعد الشيب والهزم سار طوى البيد من نجد الى الهزم

وكالطباق فى قول « حافظ » من قصيدة له فى تحية الهجرة : (٥)

يسراه برهان من الله ساطع هدى ويمناه الكتاب المظهر

وفى قول « عبد المطلب » فى العلوية : (٦)

وصلناكم بها وقطعتموها فكان الحزم أن تردوا الحماما

(١) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ، ص ٤٤/٤٣ .

(٢) راجع : د . أحمد بدوى : أسس النقد الأدبى عند العرب ، ص ٤٧٦ .

(٣) ديوان شوقى ، ج ١ ، ص ٥٩٧ .

(٤) ديوان عبد المطلب : ص ٢١٨ .

(٥) ديوان حافظ ابراهيم ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٦) ديوان عبد المطلب : ص ٢٣٠ .

وفى قول « شوقى » ، فى قصيدته السابقة :

واذا أخلت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء

وكالترصيع (وهو السجع فى البيت الواحد) فى قول عبد المطلب
فى قصيدته السابقة :

المجد محتده واليمن مولده والحمد موده ، معنى اسمه العلم

وفى قول « شوقى » يصف الامام على - كرم الله وجهه - الشوقيات:
ج ١ ص ٢٠٦ :

الزاهر العذب فى علم وفى أدب والناصر النذب فى حرب وفى سلم

وفى قول « حافظ » يصف نفسية عمر - رضى الله عنه : (١)

لا الكبر يسكنها ، لا الظلم يصحبها لا الحق يعرفها ، لا الحرص يغويها

وكحسن النسق (وهو المهارة فى استعمال الفاء فى عطف كلمات
كثيرة يرتب بعضها على بعض) فى قول شوقى فى قصيدته (نبي البر
والتقوى) : (٢)

فلما جاء صدرته وكان القرب أعظمه
دنا فرأى فخر فكا ن من قوسين مجثمه

وكالتضمن فى قول شوقى :

يصعد مثل (النجم) فيها موفيا وينزل (الكهف) بها مستخفيا
عالج فى (المعارج) (الاسراء) وبدل (الطور) ارتقى حراء
باب على (الاخلاص) والايمان وطالت (السجدة) (للرحمن)
و (الكافرون) فى (قريش) و (البلد) (لم يكن) الأمر لهم على خلد

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ص ٨٧ .

(٢) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦١٦ .

حتى أتى (الفتح) وجاء النصر واستقبل (النبا) العظيم (العصر)
وهبط (النور) وحيا ونزل (الفرقان) فيه محيا (١)

وهكذا ...

وكالاقتباس من القرآن الكريم ، وقد مرت أمثلة له عند الحديث عن
تأثر أسلوب الشعر الاسلامى بالفاظ القرآن الكريم .
وكحسن التعليل فى قول « الكاشف » (٢) : من قصيدة له بعنوان :
(زلزال فى دار الخلافة) :

قالوا لى الأرض فى دار الخلافة قد	أصابها يوم عيد النصر زلزال
فقلت مبتسما لا تهرعوا فزعا	فعندى السر ان صبح الذى قالوا
ملك أحاطت بسامى عرشه فتن	كم هددته بما يخشى وأهوال
وكاد يسقط من خوف فادركه	خليفة عادل للخير فعال
حتى استقرت رواسى العرش واتحدت	ملك عثمان أعصاب وأوصال
فكيف فى العيد لا يهتز من طرب	ولا يتيه على الدنيا ويختال
مال الرعايا لدى استقباله فرحا	به فمال سرورا مثلما مالوا

★★★

وهكذا نرى أن وجود المحسنات البديعية لم يفسد شيئا من جمال
الشعر ، بل زاده جمالا بما أضفاه على اللفظ من تنغيم وموسيقى ، وعلى
المعنى من إيضاح للفكرة وتضخيم للشعور . وذلك لأنه جاء طبيعيا غير
متكلف .

(د) الموسيقى الشعرية :

موسيقى الشعر عنصر هام من عناصر الصياغة له تأثيره فى النفس
لأنه يساعد على أن تصل اليها الأفكار والمشاعر فى صورة صوتية تانس

(١) دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ١٦ .

(٢) محمود غنيم : خمسة من شعراء الوطنية ، ص ٢٠٧ .

بها وتتفتح لها ، وتجد فيها من المتعة ما لا تجده في الكلام العادي المجرد من هذه الموسيقى . ومنذ أن كان الشعر كانت الموسيقى عنصرا جوهريا فيه حتى لقد قيل : « ان الشعر موسيقى ذات أفكار » (١) .

وهذا اللون من الموسيقى يعتمد على ظواهر واضحة في الصياغة من حركة الوزن وإيقاع القافية ويمكن للأذن أن تدركه وتتابع حركاته وسكناته ويسمى ذلك بـ « الموسيقى الظاهرة » . كما يعتمد على لون آخر من الإيقاع الخفي الذي يأتي من مجموعة الدلالات والإيحاءات الفكرية والشعورية التي تتعاون عليها الألفاظ ونسق التعبير والخواطر والصور ، ويسمى ذلك بالموسيقى الداخلية (٢) .

فماذا كان موقف شعرائنا المحافظين من موسيقى الشعر بنوعيهما الخارجي والداخلي ؟

أما من ناحية الموسيقى الخارجية - الوزن والقافية - فإن شعراءنا المحافظين لم يخرجوا في أوزانهم عن دائرة الأوزان العربية المألوفة . بل توقفوا عند البحور التقليدية للقصيدة العربية (٣) .

وقد أحصى الدكتور « إبراهيم أنيس » في كتابه « موسيقى الشعر » البحور التي استخدمها زعماء الاتجاه المحافظ فذكر أن ديوان البارودي قد اشتمل على ما يقرب من ٣٠٠٠ من الأبيات موزعة حسب النسب الآتية :

طويل ٣٩٪ كامل ٢٠٪ بسيط ١٥٪ خفيف ٦٪ سريع ٥٪ وافر ٤٪ منسرح ٢٪ ، وكل من المتقارب والمخلع ١٪ ولم يرد في الديوان من الرجز والرمل إلا أبيات قليلة جدا . أما باقي الديوان فهو على قلته قد جاء من المجزوءات وأشباهاها كمجزوء الكامل ، ومجزوء الخفيف ، ومجزوء المتقارب ومن الهزج والمجتث . . ثم يعلق على ذلك بقوله :

وهكذا نرى أن البارودي كان يتتبع فحول الشعراء من الأقدمين ، وينسج على منوال قصائدهم ، ولهذا أشبهت نسب الأوزان في شعره ما كان عليه في عصور الجاهليين وصدر الإسلام (٤) .

(١) د . عز الدين اسماعيل . البلاغة . ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٦ .

(٣) راجع : د . طه وادي : « شعر ناجي » الموقف والأداة ، ص ٢٧ .

(٤) د . إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص ١٩٩ .

ثم انتقل بعد ذلك الى شاعر النيل « حافظ ابراهيم » فذكر أن في ديوانه ما يقرب من ٥٦٠٠ بيت موزعة حسب النسب الآتية :

الكامل ١٨٪ كل من الطويل والخفيف ١٥٪ البسيط ١٤٪ مجزوء الكامل ١٠٪ الرمل ٧٪ الوافر ٦٪ المتقارب ٥٪ السريع ٤٪ المجتث ٣٪ .
وقد جاء بالديوان عدة أبيات من المديد ومخلع البسيط ونحو ذلك من البحور النادرة (١) .

ثم نظر في شعر شوقي فرأى أن الشوقيات بأجزائها الأربعة قد اجتمع فيها ما يقرب من ١٢٠٠٠ بيت وزعت حسب النسب الآتية :

الكامل ٥٧٪ الخفيف ١١٪ كل من الوافر والبسيط ٩٪ الرمل ٨٪ الطويل ٧٪ مجزوء الكامل ٦٪ المتقارب ٥٪ الرجز ٤٪ كل من السريع ومجزوء الرجز ٢٪ وكل من الهزج والمقتضب ومجزوء الرمل ١٪ .

وقد جاءت بالشوقيات قطعة واحدة من وزن مخترع هو نفس الوزن الذي اخترعه البارودي وعدتها سبعون بيتا (٢) .

★★★

ومن هذه النسب المثوية لاستخدام المحافظين للبحور التقليدية وبخاصة البحور الطويلة يتضح أنهم قد آثروا النهج القديم في أوزانهم وعزفوا على الأوتار نفسها التي عزف عليها الشعراء قبلهم . فلم يخرجوا عن دائرة البحور التي حددها الخليل واستقاها من أشعار العرب ولم يصنعوا ما سبقهم اليه أصحاب الموشحات الذين خرجوا على أوزان الشعر في كثير من الأحيان خروجاً جعل من الصعب على العلماء وضع ضوابط لأوزانهم (٣) .

فاذا انتقلنا الى القافية رأينا شعراءنا المحافظين يلتزمون في أغلب شعرهم قافية واحدة وإن كانوا في بعض الأحيان قد أحدثوا تنوعاً في قوافيهم فنظموا على نمط الموشحات والمزدوج والمربع وغيرها من الأشكال التي تحافظ على الوزن وتسمح بتنوع القافية .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٠٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٠١ .

(٣) محمد عبد المحسن طه بدر : « التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث » .

ص ٢٤٥ . رسالة ماجستير - غير منشورة - بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٥٧ .

فمن « الموشحات » موشح « صقر قریش » لشوقي ومطلعه : (١)

من لنضو يتنزي السا برح الشوق به في الغلس
حن للبان وناجي العلما أين شرق الأرض من اندلس

بلبل علمه البين البيان باب في جبل الشجون ارتبكا
في سماء الليل مخلوع العنان ضاقت الأرض عليه شبكا
كلما استوحش في ظل الجنان جن فاستضعك من حيث بكى

ارتدى برنسه والثما وخطا خطوة شيخ مرعس
ويرى ذا حلب ان جثما فان ارتد بدا ذا قعس

ومن « المزدوج » وهو ما تتغير فيه القافية مع كل بيت ويكون للشطر
الأول ما للشطر الثاني من قافية (٢) كما في ديوان « دول العرب وعظماء
الاسلام » لـ « شوقي » ، وقد مرت أمثلة كثيرة منه .

ومن « المربع » وهو ما تجيء فيه ثلاثة أشطر على قافية والشطر
الرابع على قافية غير أن الشطر الرابع يلتزم قافيته بعد كل رابع ثلاثة (٣)
ومنه قول شوقي في « تحية الترك » (٤) ومطلعها :

بحمد الله رب العالمينا وحمدك يا أمير المؤمنين
لقينا في عدوك ما لقينا لقينا الفتح والنصر البينا

(١) الشوقيات : ج ٢ ، ص ١٢١ .

(٢) كامل السيد شامين : اللباب في العروض والقافية ، ص ١٤٨ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٥٠ .

(٤) الشوقيات ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

هم شهروا أذى وشهت حربا فكنت أجل اقداما وضربا
أخلت حدودهم شرقا وغربا وظهرت المواقع والحصونا

★★★

ومنه قول « حافظ ابراهيم » (نشيد الشباب المسلمين) : (١)

اعيدوا مجدنا دنيا ودينا وذودوا عن تراث المسلمين
فمن يغزو لغير الله فينا ونحن بنو الغزاة الفاتحين

★★★

ملكنا الأمر فوق الأرض دهرا وخلصنا على الأيام ذكرى
أتى « عمر » فأسى عدل « كسرى » كذلك كان عهد الراشدين

ومن قول « المصرى » فى الحرب الطرابلسية : (٢)

ومهلا أمة الطليان مهلا ازاد بنيك حلم الترك جهلا
ستمسح أرضكم جبلا سهلا ويخفق سعيكم بين الأنعام

★★★

إذا لم تقصروا فالمسلمونا على أخوانهم متساقطونا
وانا لا محالة ظافرونا عليكم بالكلام وبالحيام

★★★

بيد أن هذا التنويع فى القافية - فضلا عن قلته - لا يعنى أن الشعراء
المحافظين قد جددوا فى قوافيهم فمما لا شك فيه أن شعرنا العربى قد
عرف ألوانا من التنويع فى القوافى . ولكن الجديد هنا هو رد هذه الألوان

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢١٥ .

(٢) ديوان المصرى : ج ٢ ، ص ٨٦ .

الى الحياة من جديد واستخدامها فى موضوعات اسلامية . وبذلك يمكن القول بأن الشعراء المحافظين لم يتجاوزوا أفق التقليد للقدماء فى قوافيهم كما أنهم لم يتجاوزوه فى أوزانهم .



هذا من حيث الموسيقى الظاهرة ، وأما من حيث الموسيقى الخفية فإن الشعراء المحافظين قد نجحوا الى حد بعيد فى التعبير عن عواطفهم الاسلامية بأشكالها السياسية والاجتماعية والحضارية تعبيرا صادقا أدى فيه اللفظ - بمدلوله اللغوى وحسه الموسيقى ، وطاقته الشعورية - دوره فى نقل احساس الشاعر وفكره الى الملتقى ، حتى لتحس وأنت تستمع الى القصيدة أو تقرؤها أنك أمام بناء فنى متكامل قد وضع فيه كل شئ فى موضعه فى دقة واحكام على يد فنان ماهر يدرك أسرار الجمال ويعرف مواطنه فتشعر كأنك أمام لحن موسيقى متناسق النغم ينساب الى النفس فيأخذ بمجامعها . وهذا التناسق الفنى متنوع بحسب المعنى الذى يريد الشاعر أن يعبر عنه ، (١) .

وهذا التناسق الفنى فى شعر المحافظين قد جعل الكثير منه صالحا للغناء ولعل أصدق مثل لهذه الظاهرة الفنية هو قصائد « شوقى » فى مدح النبى - صلى الله عليه وسلم - من مثل « نهج البردة » - الهمزية النبوية - ذكرى المولد - فقد تغنى بها المغنون بعد تلحينها وكان لذلك أثره فى اذاعتها وانتشارها بين أقطار العالم العربى والاسلامى .

واذا كانت هذه القصائد مجلى لحقائق الاسلام وعظمة مبادئه من خلال شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما عرف من أخلاقه وشيئله . فإن اذاعة هذه القصائد يعد لونا من ألوان الدعوة الى الاسلام بأسلوب فنى محبب . وهذا ما ينبغى أن يتجه اليه الفن الاسلامى فى كل صوره وأشكاله استعلاء برسالة الفن فى ترقية الذوق وتربية الاحساس والضمير .

(هـ) الصور الخيالية :

الفن فى مفهومه العام - قديما كان أو حديثا - هو تصوير الحياة المادية والشعورية فالرسام يصور بالألوان ، والمثال بالحجر ، والشاعر

(١) محمد ابراهيم الجيوشى : شاعر العربية والاسلام أحمد محرم ، ص ٢٥٩ .

بالكلمات ، والشعر في أحد تعاريفه المعاصرة هو التفكير بالصورة ، والصور الشعرية هي جوهر التعبير الفني في القصيدة العربية (١) أو هي التعبير الذي ينقل شعور الشاعر أو أفكاره معتمدا على التجسيد لا على التصريح ولا على التجريد . ذلك أن الصورة الشعرية تنقل إلى القارئ عاطفة الشاعر وتجربته وتنقل كذلك فكرته التي انفعل بها وهي لهذا وسيلة من وسائله في استعمال اللغة على الوجه الذي يكفل نقل مشاعره وأفكاره فيؤثر في نفوس قرائه (٢) .

وهذه الصور الشعرية وليدة الخيال الذي يستمد صورته من المعلومات وأنواع التجارب وانعكاسات الحياة في النفس (٣) .

فإذا نحن بحثنا عن الصور الشعرية التي نتجها الخيال المحافظ فيما سقناه من شعر إسلامي . وجدنا أثر العاطفة الدينية في توجيه الخيال نحو القيم والمعاني الإسلامية ورأينا الخيال يخلق في أجواء هذه المعاني الإسلامية ويسترفد مضامينها ، ويجسد حقيقتها ، ويستلهم روحها . وبذلك كان الخيال عنصرا هاما من عناصر التعبير عن العاطفة الإسلامية وعن الأفكار والخواطر الدينية في أشكالها السياسية والاجتماعية والحضارية .

وبعرضنا لنماذج الشعر الإسلامي المحافظ رأينا نوعين من الصور الخيالية : أحدهما : صور كاملة مؤلفة من صور جزئية مترابطة ترسم مشهدا عاما . كقول « شوقي » في وصف الفتح الإسلامي لمصر .

ما كانت الفسطاط الا حائطا	ياوى الضعيف لركنه والمرهق
وبه تلوذ الطير في طلب الكرى	وبيت قيصر وهو منه مؤرق
عمرو على شطب الحصر معصب	بقلادة الله العلي مطوق
يدعو له الخاخام في صلواته	موسى ويسال فيه عيسى البطرق (٤)

(١) راجع : عبد العزيز القالح (شوقي وحافظ وأوليات التجديد في القصيدة العربية) مقال بمجلة الفصول المجلد الثالث ، العدد الثاني ، ص ٢١٠ ، سنة ١٩٨٣ .

(٢) د . أحمد العوفي : الإسلام في شعر شوقي ، ص ٢٧٣ .

(٣) د . سعد الدين الجيزاوي : العامل الديني في الشعر المصري الحديث ، ص ٥٤٤ .

(٤) ديوان شوقي ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

وهذه الأبيات تصور الحكم الاسلامى العادل المصلح ممثلا فى فاتح مصر ، وحاكمها الأول عمرو بن العاص لكن شوقى لم يسلك الى الفكرة تعبيرا مباشرا ، وانما سلك اليها التصوير فجعل الفسطاط حصنا يلجأ اليه الضعفاء والمستعبدون فيجدون فيه أمنهم الذى فقدوه ، وحریتهم التى حرّموا منها ، والحكم العادل الذى كانوا يفتقدونه على أنه الصورة فتخيل الطيور تلوذ بالفسطاط تطلب الاطمئنان لتنام لأن عسف الروم كان يفزعها ويطاردها كما يفزع القبط ويطاردهم فلا تستطيع الاستقرار فى مكان . ثم صور عمرا جليلا مهيبا فى مظهره المتقشف فهو يجلس على حصير ولا يلبس تاجا ، ولكن الاسلام يكسبه جلالا أعظم من جلال التاج ويحليه بقلادة أفخم من قلائد الملوك . وفى البيت الأخير تكملة للتصوير ، اذ جعل اليهود والنصارى راضين عن حكمه فرحين بعدله وتسامحه ، يدعون له فى صلواتهم ويشهدون موسى وعيسى على ما ينعمون به من عدل وحرية واطمئنان (١) .

ومن الصور الكلية التى ترسم مشهدا عاما قول « عبد المطلب » وقد نفذ بخياله الى الماضى فاستحضر صورة « على بن أبى طالب » فى غزوة أحد وقد غشيتة الحيرة وأصابته اللهفة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أشاع المشركون فى المسلمين أن « محمدا » قد قتل وينطلق على فى طهفة المستغرب يبحث عن رسول الله هنا وهناك . فلما لم يجده اندفع نحو الأعداء فى عزم طارت له حلومهم ، وخارت به قواهم ، وطاحوا فى مصارعهم خطاما . يقول عبد المطلب يصف هذا المشهد : (٢)

أتى الشهداء مفقدا أخاه	لعل الموت عاجله اختراها
أخى ! بابى ! يخيم ؟ يفر ؟ حاشا	أخى فى الخطب جينا أو خياما
أم اجترأت عليه يد العوادي	فنالت اجترأ واجتراما
فبئس العيش بعدك يا ابن أمى	سئمت العيش والدنيا ساما
وحطم غمده وهوى اليهم	هوى الباز يعقبط الحماما
فطاروا عن مواقفهم شعاعا	وطاحوا فى مصارعهم خطاما
والفى ثم احمد فى رحابها	بجند الكفر يصطلم اصطاما

★★★

(١) د . أحمد الحوفى : الاسلام فى شعر شوقى ، ص ٢٧٧ .

(٢) ديوان عبد المطلب ، ص ٢٣٠ .

فهنا يرسم الشاعر بالكلمات صورة نفسية للامام علي - كرم الله وجهه - يجسد فيها مشاعره حين افتقد « محمدا » - صلى الله عليه وسلم .

★★★

ومن الصور الكلية في شعر المحافظين تلك الصورة التي رسمها « محرم » لشخصية الجريح في قصيدة « في الحرب الطرابلسية الايطالية » اذ يقول :

فزع الدجى لأنينه المتردد وبدا الصباح له بوجه اربد
ملقى على عارى الصعيد ملحب في الحرب يلتحف النجيع ويرتدى
عكفت عليه الطير تحسب انما طاحت به ايدى الردى وكان قد
باتت مناسرها تمزق لحمه حيا وبات يقول هل من منجد ؟ (١)

فهذه الكلية تتألف من صور جزئية عديدة تجمع بين المرئى المسموع والساكن والمتحرك ، وفيها يرسم الشاعر صورة مأساوية تنتزع الاشفاق من قلوب المسلمين لجريح مزق أنينه مسكون الليل ، وقد ألقى بالعراء مضرجا بالدماء بعد أن نفذت اليه قذيفة . مالت بمنكبه ، وطارت بيده فبدأ فى أعين الطير جسدا ميتا يستقبل مناسرها تمزق لحمه حيا وهو يستغيث ولا مغيث !!

وهى صورة منتزعة من ميدان الحرب الطرابلسية تعبر عن شخصية الجريح تعبيرا مثيرا لهمم المسلمين ، ومخركا لسكونهم ، وهذا ما قصد اليه الشاعر حين استعان بالصورة فى توصيل عاطفته الى جماهير المسلمين .

وهذا هو النوع الأول من الصور الخيالية فى الشعر الاسلامى المحافظ .

ثانيهما : هو الصور الجزئية التي تتمثل فى التشبيه والاستعارة والكناية .

فمن التشبيه قول شوقي فى وصف الحديث النبوى :

أما حديثك فى القلوب فمشرع والعلم والحكم القوائى الماء

(١) ديوان محرم : ج ٢ ، ص ٢٠ .

فكما أن الظمان يستطيب مشروع الماء ، بل يجد فيه حياته نجد المسلمين يستطيبون الحديث النبوي ويجدون فيه رشادهم ، وانقاذهم من الضلال ، وكما أن المشرع يقدم لوارديه ماء يحيى . ترى الحديث النبوي يكفل لوارديه حياة العقل والوجدان (١) .

ومنه قول « محرم » :

هل الدين الا معقل نحتنى به اذا دلف العاذي الينا فاسرعا ؟ (٢)

ومن الاستعارة : قول حافظ ابراهيم في اسلام عمر بن الخطاب : (٣)

ويوم اسلمت عز الحق وارتفعت عن كاهل الدين اثقال يعانيها

او قوله في « العمريه » ايضا :

فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها طعم المنية مرا عن مراهمها

ومنها قول « شوقي » يصف الشريعة الاسلامية :

مشت الحضارة في سناها واهتدى في الدين والدنيا بها السعداء

ومن الكناية قول « محرم » يستنفر أمة الاسلام : (٤)

يا امة خاطر الكرى اجفانها هبى فقد اودت بك الاحلام

ومنها قول « شوقي » يمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
الشوقيات ج ١ ص ٣٦ :

واذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندى وللقلوب بسكاء

(١) راجع : د . احمد الحوفى : الاسلام في شعر شوقي ، ص ٢٧٨ .

(٢) ديوان محرم : ج ١ ، ص ١١١ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٨٠ .

(٤) ديوان محرم : ج ١ ، ص ٨٥ .

وقول « حافظ » في « العصرية » :

فقال مهبط وحى الله مبتسما وفى ابتسامته معنى يواسيها
قد فر شيطانها ، لما رأى عمرا ان الشياطين تخشى بأس مخزيها

وهذا النوع من الصور الجزئية شائع فى شعر المحافظين نكتفى فى
الإشارة إليه بما تقدم لنذكر بعد ذلك أهم ما نلاحظه على الصورة الشعرية
عند المحافظين :

أولا : أن الصورة فى الشعر المحافظ وسيلة من وسائل التعبير عن
الفكر والشعور وأنها تعتمد بوجه عام على الخيال التفسيري الذى يدرك
القيمة أو المغزى الروحى ويفسر المناظر بعرض الأجزاء أو الصفات التى
تتركز فيها هذه القيمة الروحية ، وهذا النوع من الخيال هو الغالب فى
أدبنا العربى (١) .

ثانيا : أن التراث العربى القديم كان مصدرا مهما من مصادر الصورة
فى الشعر الإسلامى المحافظ . ويبدو ذلك فى تأثر المحافظين بصورة القدماء
كالتشبيه بالأسد شجاعة ، وبالبدر ضياء فى قول شوقي يمدح النبى -
صلى الله عليه وسلم .

والليث دونك بأسا عند وثبته اذا مشيت الى شاكى السلاح كهى

وقوله :

كان وجهك تحت النقع بدر دجى يضى ملتثما أو غير ملتئم

أو فى قول « الكاشف » يمدح السلطان عبد الحميد فيصفه بالغيث
كرما ، وباليث شجاعة فيقول :

يا أيها الغيث الهطول المطر الخيرات والمغنى عن الأمطار
يا أيها الليث الذى بزثيره ذابت جوانح كل ليث ضار (١)

(١) راجع : عمر دقاق : الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر ، ص ٥٢٩ .

أو في قول « حافظ إبراهيم » يدعو على « مولى المغيرة بن شعبة -
قاتل عمر بن الخطاب » بانقطاع الخير والرحمة فيصطنع أسلوب القدماء
ويستعير صورهم في الدعاء فيقول :

مولى المغيرة ، لا جادتك غادية من رحمة الله جادت غواديها



ثالثا : تميزت الصورة في الشعر المحافظ بغلبة الجانب الفكري
ووضوح النزعة العقلية والاعتماد على الأطراف الواضحة والحدود الظاهرة .
وهذه الظاهرة ناجمة عن حرص الشاعر المحافظ في هذه المرحلة من
حياة قومه على الوعي الكامل . ومن ثم فهو غالبا ما يجنح لتركيز صورته
وتسليط أنوار ذهنه الباهر عليها ليجعلها جلية مستقيمة محدودة في إطار
التطابق المنطقي . ومن هنا كان عنصر الاثارة في صور المحافظين محدودا
في أغلب الأحيان (١) .

ثانيا - بناء القصيدة :

سلك الشعراء المحافظون في بناء القصيدة الإسلامية - غالبا -
مسلك القدماء في بناء قصائدهم على أساس من وحدة الوزن ووحدة القافية
مع تعدد الأغراض وتنوع الموضوعات في القصيدة ، وهذا المسلك القديم
في بناء القصيدة يرجع الى أن القصيدة العربية القديمة كانت تدور عند
نشأتها حول ما يشغل الرجل البدوي وينبع من حياته مثل وصف الأطلال
والناقة والرحلة ومنازل الأحبة وحيوان الصحراء ونباته . حتى اذا ظهر
المدح والتكسب بالشعر لم يشأ الشاعر العربي المفطور الذي كان يقول
الشعر أصلا للعبارة عما في نفسه أن يتخلى عن هذا الغرض الشعري
الأصيل لكي يقرض قصيدته كلها في المدح ولذلك أخذ يجمع في قصائده
بين الغرض الشعري القديم والغرض النفعي الطاريء ، أي يجمع بين حديثه
عن الأطلال والناقة والصحراء والحببية ومدح من يريد أن يستدر عطاءه ،
وهكذا تكونت القصيدة العربية ذات الأغراض المتباينة المتتابعة ، وأصبحت
هذه الظاهرة تقليدا شعريا ثابتا عند العرب ، (٢) .

(١) ديوان الكاشف : ج ١ .

(٢) راجع : عمر دقاق : الاتجاه القومي في الشعر المعاصر ص ٥٣٩ .

(٣) د محمد مندور : الشعر المعري بعد شوقي ، الحلقة الأولى ، ص ١٩ .

ثم مضى الزمن والنمط الموروث للقصيدة العربية فى بنائها الفنى نموذج يحتكم اليه الشعراء . حتى إذا كان العصر الحديث ، وكان البعث الأدبى الذى اقترن بالبعث الإسلامى وبالحركة الوطنية ، وظهر البارودى رائدا للشعر الحديث ، باعثا لنهضته مجددا لشبابه كاشفا عن عناصره الأصلية ، وصورته الموروثة ، وتبعه فى ذلك جيل من الشعراء ارتضوا نهجه ، وحافظوا على طريقته : طريقة القدماء فى صياغة الشعر – أقول حتى إذا كان ذلك كذلك : عادت الى القصيدة العربية فى العصر الحديث خصائصها الفنية الموروثة من حيث الصياغة والبناء التقليدى الذى يقوم على تعدد الموضوعات فى القصيدة الواحدة ، وهذا ما لمسناه فى القصيدة الإسلامية فى الشعر المحافظ .

فالقصيدة الإسلامية غالبا ما ينقصها التنامى العضوى الذى يتجه بالتجربة نحو النضج النفسى والذهنى كلما أوغلنا فى قراءة القصيدة . ولعل أكبر دليل على ذلك أننا فى أثناء الدراسة الموضوعية كنا نقتطع من القصيدة بعض أبياتها التى تناسب موضوعنا ونترك البعض الآخر دون أن تضرب القصيدة أو تفقد شيئا من قيمتها الأصلية .

وربما كان أجدى للتدليل على هذه الظاهرة الفنية فى بناء القصيدة الإسلامية أن نسوق نموذجا من هذه القصائد التى نهجت النهج التقليدى فى بنائها الفنى ، فهذه مثلاً قصيدة « نهج البردة » « لشوقى » ، وهى قصيدة من تسعين ومائة بيت قالها شوقى سنة ١٩١٠ تذكارا لحج الخديو عباس . وجعل موضوعها الأساسى مدح النبى – صلى الله عليه وسلم – فكيف سار شوقى فى بناء قصيدته وكيف اتخذ طريقه الى موضوعى الأساسى الذى دارت حوله القصيدة ؟

لقد بدأ « شوقى » قصيدته بالغزل على طريقة القدماء ثم انتقل الى الحديث عن النفس وخصائصها وعن الزهد وأثر الأخلاق الفاضلة ثم أخذ فى مدح النبى – صلى الله عليه وسلم – فألم بطرف من معالم حياته وبعض صفاته ومعجزاته ، ثم عاد الى التاريخ فتحدث عن نزول الوحي وتحدث عن القرآن والحديث ثم عاد الى مولده وما صاحبه من خوارق . ثم انتقل الى الحديث عن فساد المجتمع قبل البعثة ، وعن الوثنية وعن جور الحكام من فرس وروم وعن ظلم الأقوياء للضعفاء ثم تناول الاسراء والمعراج وتكلم عن الهجرة ومسيرتها ، ثم رجع الى الحديث عن أخلاق الرسول – صلى الله عليه وسلم – ثم تحدث عن أثر دعوته ورد على دعوى انتشار الاسلام بالسيف ثم عاد الى الاشادة بشجاعة الرسول وجهاده وجهاد أصحابه ، وأشاد بالشرعية الإسلامية وآثارها ، ونوه بمجد المسلمين لما عمئوا بها ،

وَألم ببعض عظماء المسلمين من خلفاء وملوك ، وعلماء ، ثم ختم بالشفاعة والتوسل (١) وبذلك فقدت القصيدة تماسكها الفكري ، ووحدةها الموضوعية ، وبدأت أفكارا مستقلة لا ارتباط بينها ، كنهج القصيدة العربية القديمة التي اضطلع المحافظون وبعث تقاليدها الفنية .

بيد أن المحافظين إلى جانب ما اضطلعوا به من بعث القيم الفنية في الشعر العربي ، بما في ذلك بناء القصيدة على النسق الموروث قد حققوا نوعا من التجديد في بناء القصيدة الإسلامية ، ويتمثل ذلك في وحدة الموضوع كما يتمثل في التخلص من المقدمات الغزلية التي كان الشعراء يبدأون بها قصائدهم ، فبعد أن كانت القصيدة تشتمل على عدة موضوعات يستقل بعضها عن بعض أصبحت تشتمل على موضوع واحد يعالجه الشاعر على قدر ثقافته والمأمة بموضوعه . وادراكه لجوانبه المختلفة . وبعد أن كان الشاعر يبدأ قصيدته - على عادة القدماء بمقدمة غزلية أخذ يدخل إلى قصيدته دخولا مباشرا . ويظهر ذلك في قصائد الشعر السياسي والاجتماعي التي كانت صدى لعامل الدين وللعاطفة الإسلامية كتلك التي أنشئت بهدف الرد على المتهجمين على الإسلام أو المعتدين على الوطن أو التي أنشئت بهدف الدعوة إلى البر والاحسان ورعاية الأطفال والمشردين وملاجئ الأيتام . أو الدعوة إلى الحجاب والتصوف أو غير ذلك من ألوان الشعر السياسي والاجتماعي ، الذي تقدمت به القصيدة المحافظة خطوة في طريق الوحدة البنائية .

ونستطيع أن نضرب مثلا على ذلك قصيدة « شوقي » في حادثة دنشواي (٢) فقد تحدث فيها شوقي عن كل ما يتصل بهذه المأساة ، تحدث عن الشهداء وعن أبناء دنشواي وما لاقوه من ظلم وتنكيل . فقال :

يا دنشواي على رباك سلام	ذهبت بانس ربوعك الأيام
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا	هيئات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم في اللحد أهلة	ومضى عليهم في القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها	وبأي حال أصبح الأيتام
عشرون بيتا أقفرت وانتابها	بعد البشاشة وحشة وظلام
يا ليت شعري في البروج حدائم	أم في البروج منية وحمام

(١) راجع : أحمد الحوفي : الإسلام في شعر شوقي ، ص ٨٤/٨٣ .

(٢) ديوان شوقي : ج ٢ ، ص ٥٤٥ .

نـيرون لو ادركت عهد كرومر لعرفت كيف تنفيذ الأحكام
 نوحى حمائم دنشواى وروعى شعبا بوادى النيل ليس ينام
 ان نامت الأحياء حالت بينه سحر وبين فراشه الأحلام
 متوجع يتمثل اليوم الذى ضجت لشدة هوله الأقوام
 السوط يعمل والمشائق أربع متوحشات والجنود قيام
 والمستشار الى الفطائع ناظر تدمى جلود حوله وعظام
 فى كل ناحية وكل محلة جزعا من الملاء الأسيف زحام
 وعلى وجوه الثاكليين كآبة وعلى وجوه الثاكلات رغام

★★★

فيها هنا نرى وصلا بين الأبيات فى موضوع واحد هو دنشواى ومعنى
 ذلك : أن التجديد قد مس - الى حد ما - بنية القصيدة الإسلامية فلم تعد
 مفككة الأوصال بل أصبح يشدها خيط شعورى ينسج أبياتها حول
 موضوع واحد .

★★★

الفصل الثانى

المضمون الاسلامى فى الشعر المحافظ فى مصر

يتناول هذا الفصل المضمون الاسلامى فى الشعر المحافظ فى مصر
من حيث :

• **اولا : الأفكار والمعانى**

• **ثانيا : العاطفة**

• **ثالثا : الموضوعات**

اولا - الأفكار والمعانى :

تمهيد :

إذا استعرضنا نماذج الشعر الاسلامى المحافظ فسوف نجد أن أهم القضايا الاسلامية التى شغلت أذهان الشعراء المحافظين فى هذه الفترة هى:

١ - الدعوة الى القوة

٢ - الدعوة الى الوحدة

٣ - إبراز مزايا الاسلام والاشادة بحضارته ومجوده

٤ - الدعوة الى مكارم الأخلاق ومحاربة الفساد والانحلال

وسوف نحاول فيما يلى أن نلم بأهم الأفكار والمعانى التى تناولها الشعراء فى اطار هذه القضايا الاسلامية الكبرى

١ - الدعوة الى القوة :

لا شك أن الدعوة الى القوة واعداد العدة للدفاع عن الحق ورد العدوان وحماية الحرمات هي دعوة دينية أساسها : هو قول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (١) وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » .

ومن منطلق هذه الدعوة الاسلامية تناول الشعراء المحافظون كثيرا من المعانى التى تدور فى اطار الدعوة الى القوة ، ومن هذه المعانى :

(أ) الاشادة بالقوة وبيان أثرها فى حماية الحق وحفظ الملك وازهاق العدو ومن ذلك قول شوقى من قصيدة له فى (الأسطول العثماني) يخاطب أمير المؤمنين السلطان « محمد رشاد » سنة ١٩١٠ :

ولقد يداس الذئب فى فلواته	ويهاب بين قيوده الضرغام
زدهم أمير المؤمنين من القوى	ان القوى عز لهم وقوام
الملك والدولت ما يبنى القنا	والعلم لا ما ترفع الأحلام
والحق ليس وان علا بهؤيد	حتى يحوط جانبيه حسام
خط النبي براحيته خندقا	ومشى يحيط به قنا وسهام (٢)

★★★

(ب) ومنها الحث على طلب القوة وابتغاء السيادة والمجد . ومن ذلك قول « حافظ ابراهيم » من قصيدة له فى استقبال الطيار العثماني فتحى بك سنة ١٩١٤ :

فى العالم العلوى والسفلى أحكام تدار	خلق الضعيف لخدمة الـ
فتقسو يرهبك القو	ى وهمن يلازمك الصغار
فى الأرض ما تبغون من	عز وآمال كبار

(١) الأنفال : ٦٠ .

(٢) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٥٣٣ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٧٦ .

فيها الحديد وفيه بأ س يوم يمتهن النمار
فيها الكنوز الحافلا ت لمن تبصر واستنار
منها استمد قواه من قهر الممالك واستعار
وبما احتوت رد الحصي ف الرأي غارة من اغار

وكقول شوقي :

حب السيادة من شمائل ديتكم والجند روح منه والاقدام (١)

★★★

(ج) ومنها التحريض على الجهاد واستنهاض الهمم لحماية المحارم
ومن ذلك قول « أحمد محرم » :

يا لقومي ، جاهدوا ، لا تهنوا وسيأتي الله بالنصر المبين
إنجدوا مصر اذا ما فزعت وأهابت بالكمالة الباسلين
احفظوها ان مصرا ان تضع ضاع في الدنيا تراث المسلمين (٢)

★★★

ولقد تتضح معاني القوة في هذه الأبيات من خلال الألفاظ التي
تشيع فيها روح القوة وتتوالت حولها خواطر الشجاعة والبأس من مثل :

جاهدوا - لا تهنوا - انجدوا - الكمالة الباسلين .

★★★

(د) ومنها الاشادة بمجود السابقين ولوم العصريين على تقصيرهم
واثارة حميتهم للسير في طريق المجد الذي بناه الأولون ، ومن ذلك قول
شوقي يخاطب المسلمين :

(١) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ٥٣٥ .

(٢) ديوان محرم : ج ٢ ، ص ١٨٠ .

هذا هلالكم تكفل بالهدى
سرت الحضارة حقبة في ضبوته
وبنى له العرب الأجاود دولة
رفعوا له فوق السماك دعائما

وقول نسيم :

وحسبك أن الشرق في كل أمة
تخرج منه الفاتحون لأرضه
وكان قديما مهبط المجد والعلی
وكان طليقا أزهر اللون وجهه
له النصر والتأييد في كل غارة
وكم بات مختالا بكل مملك
وكم كان للشمس المضيئة مطلقا
وكم صال والهيحاء قان نجيعها

هل تعلمون مع الهلال ضلالا
ومشى الزمان بنوره مختالا
كالشمس عرشا والنجوم رجالا
من علمهم ومن البيان طوالا

مآثره مشهورة ومنأقبه
فماجت به بطحاؤه وسياسبه
ومصعد غطريف ترجى مواهبه
وللغرب وجه أصفر اللون شاحبه
إذا زحفت يوم الصدام كتابه
تسير على هام العباد مواكبه
وأفق معال لا تغيب كواكبه
بكل صقيل لا تفل مضاربته (١)

★★★

وقول « الرافعي » يلوم بني الشرق على تقصيرهم وضياع مجدهم :

بني الشرق أين الذي بيننا
لقد غابت الشمس عن أرضكم
ألا رحم الله دهرا مضى
وحيا ليالى كتابها
فملكا ثقیل اذا ما كبأ

وبين رجال العلا من نسب
الى حيث لو شئت لم تغب
وما كاد يبسم حتى انتخب
رعاة على من نأى واقترب
وعرشا تقيم اذا ما انقلب (٢)

★★★

(١) ديوان نسيم : ج ١ ، ص ١٣ .
(٢) ديوان الرافعي : ج ١ ، ص ٣٦ .

فهذا التمجيد للماضى والتقريع للحاضر من شأنه أن يقهر الهزيمة
فى النفوس وأن يطلق الطاقات الكامنة فى أعماق الأمة لتمضى فى طريق
السيادة والغلب .

★★★

(هـ) ومن معانى القوة فى الشعر الاسلامى المحافظ . الدعوة الى
دعم الخلافة العثمانية ومؤازراتها ضد أعدائها ،- وتعبئة الشعور الاسلامى
لمساندتها باعتبارها حامية الاسلام . ومن ذلك ما يقوله « عبد المطلب »
فى الحرب بين تركيا وايطاليا فى طرابلس الغرب : (١)

بنى أمنا أين الخميس المدرب	وأين العوالى والحساب المنرب
إذا اهتز فى نصر الحفيف تساقطت	نفوس العدا من حده تتحلب
بنى مصر هذا الدين يدعو فأقبلوا	على الله فى تأييده وتقربوا
بنى مصر قد رام الخلافة معشر	تنادوا على غدر بها وتألبوا
بنى مصر هذا موقف العزم فانهضوا	سراعا الى احرازه وتألبوا
إذا ما تنادى المسلمون فانما	لنجدتنا كل الممالك ترقب
وكم فى سبيل الله من أريحية	لمصر بها رب الخلافة يشعب (٢)

ويقول شوقى يخاطب الشعوب الاسلامية التى تجمعها الرابطة
العثمانية :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة	تعاونوا بينكم يا قوم عثمان
كونوا الجدار الذى يقوى الجدار به	فانه قد جعل الاسلام بنيانا (٣)

★★★

فهذه التعبئة العامة للمسلمين ودعوتهم الى التعاون فيما بينهم لمؤازرة

(١) ديوان عبدالمطلب : ص ٢٥ .

(٢) ديوان عبدالمطلب : ص ٣١ .

(٣) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٤٥ .

الخلافة العثمانية في حروبها الإسلامية هي دعوة إلى القوة في مواجهة العداء
للإسلام ، والتصدي للعدوان على شعوبه الآمنة في طرابلس وغيرها :

(و) ومن معاني القوة تصوير شجاعة المقاتلين وبسالتهم في ميادين
القتال ووصف عدتهم وأسلحتهم :

استمع إلى « عبد المطلب » يصف جنود الإسلام الذين دكوا حصون
الضلال وأذلوا جنود الشرك في ساحة الموت فيقول :

وسل صهوات الخيل كم وطئوا بها	نواصي حصن للضلال وخربوا
وسل عنهم بدرا ، وسل أحدا وسل	بهم عصب الأحزاب يوم تغربوا
ويوم حين اذ تركز هوازنا	لأشلائها الطير الحواجل تنهب
بكل كمي يشتهي الموت في الوغى	يلد لعينيه الختمام ويعذب
كان له عند المنيّة حاجة	يطاردها مستبسلا وهي تهرب
اولئك حزب الله أساء دينه	بهم عصب الطاغوت تشقى وتعطب
(أ)	
ويقول من قصيدة أخرى :	

ومعشر أسلموا لله أنفسهم	تبينوا الربح في بيع وفي سلم
لله ما أرخصوا من أنفس ذهبت	في الله غالية الأقدار والقيم
ألقوا على الدهر من آياتهم عبرا	وساوروا الموت فاستخذي لباسهم
سل نسج داود اذ هم يخطرون به	في كل مصطرخ عال ومصطدم
وسل شبا البيض كم شبوا لها لها	على الطواغيت في أيامها الدهم
والخيل تعلم كم دكت سنايبها	مما بنى الكفر من دار ومن أجم
في كل يوم « كبدر » جراً يومه	على العدا كل ماض بالردى خنم

(١) ديوان عبدالمطلب : ص ٢٧ .

ويقول « نسيم » يصف شجاعة المقاتلين من جنود الاسلام :

يمشون للحرب والهيحاء مسعرة كأنهم من حنايا البيض في ظل
بيض مواض على الأعداء مرهفة كالبرق في ومض والرعد في زجل
وأدرع مثل ظهر الصل لاوية أيدي الفوارس بالخطبة الذبل (١)



بمثل هذه الأفكار صب الشعراء معاني القوة في أوعية من الألفاظ
المناسبة والكلمات الموحية .

٢ - الدعوة الى الوحدة :

وقد نبعت هذه الدعوة من ينبوع الاسلام الذي دعا المسلمين الى
الوحدة وحذرهم من الفرقة ونهاهم عن التنازع .

ثم قويت هذه الدعوة بفعل ما مر بالأمة من أحداث وما أحاط بها
من خطر كان التجمع لمواجهة ضرورة يفرضها الخوف على الاسلام
والمسلمين .

ومن هنا نشأت فكرة الجامعة الاسلامية أو الوحدة الاسلامية في
مواجهة التحزب المسيحي ضد الاسلام والمسلمين .

وكان إيمان الشعراء المحافظين بالجامعة الاسلامية ، وبالخلافة
العثمانية رمزا لهذه الرابطة الدينية من أهم مظاهر الوحدة الاسلامية في
هذا العصر .

وقد ظهر أثر هذه الوحدة بين الشعوب الاسلامية في كثير من
المواقف منها :

١ - الحروب العثمانية في اليونان وطرابلس والبلقان . فقد أظهرت
هذه الحروب عطف المسلمين ومؤازرتهم لآخوانهم المجاهدين في ميادين
القتال (٢) .

(١) ديوان نسيم : ج ١ ، ص ١٢٩ .

(٢) راجع في هذا البحث : الفصل الأول من الباب الأول ، ص ٣٣ وما بعدها .

٢ - مشروع سكة حديد الحجاز الذى تحمس له المسلمون وتعاونوا على اتمامه وشاركوا فيه بأموالهم ، وكان هذا المشروع عوناً على التقريب بين المسلمين وتشجيعاً لهم على أداء فريضة الحج حيث يلتقى المسلمون من كل جنس ولون فى مؤتمر اسلامى عام تتجدد به أواصر المودة وتقوى عوامل الوحدة بينهم (١) .

٣ - صدور الدستور العثمانى . الذى أثلج صدور المسلمين فأعلنوا فرحتهم به وشاركوا العثمانيين فرحتهم وزاد تقديرهم للسلطان عبد الحميد الذى أصدر هذا الدستور .
وفى ذلك يقول شوقى :

بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميا
لما رآها بلا ركن تداركها بعد الخليفة بالشورى ، وناديا
الى أن يقول :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب حياك من يبعث الموتى ويحييا
نلت الذى لم ينله بالقنا أحد فاهتف (لأنورها) واحمد نيازا
ما بين آمالك اللاتى ظفرت بها وبين (مصر) معان أنت تدريها (٢)

★★★

وكان لمناسبة صدور الدستور العثمانى أثر عميق فى شعور المصريين الذين تجاوزت آمالهم مع شعب عثمان فانطلقوا يهتفون بهذا الدستور الذى أعاد الأمن والسلام الى ربوع البلاد وكان الاجماع على الفرحة به لدى المسلمين فى مصر ومشاركتهم العثمانيين فى حثهم بهذه المناسبة دليلاً على وحدة المشاعر والآمال بين المسلمين .

ومن الشعراء الذين شاركوا فى الفرحة الاسلامية بهذه المناسبة شوقى (٣) وحافظ ابراهيم (٤) وأحمد محرم (٥) والكاشف (٦)

(١) راجع فى هذا البحث : الفصل الاول من الباب الاول ، ص ٢١ .

(٢) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٣) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٤) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٤٨ .

(٥) ديوان محرم : ج ٢ ، ص ٤ .

(٦) ديوان الكاشف : ج ٢ ، ص ٢٧ .

وعبد المطلب (١) وعلى القاياتي (٢) وعبد الحليم المصرى (٣) .

واذن . . فقد كانت هذه المناسبات مظهرا لوحدة الشعور الاسلامى
بين المسلمين .

★★★

وكان التحذير من خطر الانقسام والفرقة لونا من ألوان الدعوة الى
الوحدة أكد عليه الشعراء فى ثنايا قصائدهم .

ومن ذلك ما يقوله شوقى مخاطب الخارجين على الصف
الاسلامى : (٤)

أيها النافرون عودوا إلينا ولجوا الباب انه الاسلام
غرض أنتم وفى الدهور سهم يوم لا تدفع السهام السهام

أو ما يقوله مبینا أثر الانقسام فى تقويض ملك المسلمين وضياع
هيبتهم : (٥)

حتى اذا انقسموا تقوض ملكهم والملك ان بطل التعاون زالا
لو ان ابطال الحروب تفرقوا غلب الجبان على القنا الأبطالا

ويقول « نسيم » ينعى على المسلمين تفرقهم وتقطع أرحامهم : (٦)

لله ما للمسلمين تشعبوا فى ملكهم وتقسموا أقساما
قطعوا الأواصر واستحلوا قطعها أبد الأبيد وشققوا الأرحاما
وتفرقوا فرقا وكانوا قبلها أقوى العناصر ألفة ووثاما

-
- (١) ديوان عبد المطلب : ص ٦٣ .
(٢) وطنيتى : للغاياتى : ص ٥٥ .
(٣) ديوان المصرى : ج ١ ، ص ٤٣ .
(٤) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٤٢ .
(٥) السابق ، ص ١٨٧ .
(٦) ديوان نسيم : ج ٢ ، ص ٥٧ .

ويقول خافظ إبراهيم محذرا من عاقبة الانقسام :

هلاك الفرد منشؤه توان وموت الشعب منشؤه انقسام
وانا قد وئنا وانقسمنا فلا سعى هناك ولا وئام
فساء مقامنا في أرض (مصر) وطاب لغيرنا فيها المقام

ويمثل هذه المعانى عالج الشعراء فكرة الوحدة الاسلامية مستهدفين
جمع الشمل الاسلامي في مواجهة الخطر الصليبي على بلاد الاسلام .

٣ - ابراز مزايا الاسلام والاشادة بحضارته ومجوده :

وكان ابراز مزايا الاسلام وتمجيد حضارته ، وتعظيم عظمائه من بين
القضايا التي شغلت أذهان الشعراء المحافظين في مواجهة العصر وتحدياته
فاتجهوا الى تجلية حقائق الاسلام والكشف عن محاسنه ليواجهوا بهذه
المجود الأصيلة حضارة الغرب الوافدة ، وليردوا الى المسلمين ثقتهم بأنفسهم
وقدرتهم على النهوض بأعباء الحضارة من خلال تراثهم العظيم .

ثم ليردوا الى القيم الاسلامية جلالها بعد أن كادت تهتز في نفوس
المسلمين المعاصرين ولا سيما الشباب منهم ، وبخاصة أولئك الذين تربوا
على أساليب الحضارة الأوروبية فتمردوا على القيم الدينية والتقاليد الاجتماعية
وارتفعت أصواتهم بالدعوة الى الاصلاح والنهضة على أساس الحضارة
الغربية . ولم يتورعوا عن اظهار استخفافهم بالدين وآدابه ذلك كله الى
جانب التهجم على الاسلام من بعض كتاب الغرب ممن يضمرون الحقد
ويبيتون النية للنيل من قداسته .

من هنا برزت الحاجة الى اظهار شخصية الاسلام ، والكشف عن
مزاياه وبيان خصائصه من خلال ما اشتمل عليه من مبادئ تتصل بحياة
الناس في معاشهم ومعادهم وفي سائر شئونهم السياسية والاجتماعية
والاقتصادية والفكرية ، وقد جال الشعراء في هذا الميدان ولمسوا كثيرا
من معاني العظمة في الشريعة الاسلامية (١) وانتصروا للاسلام ودافعوا

(١) راجع في هذا البحث الفصل الثاني من الباب الثالث . ص ٢١٤ وما بعدها .

عنه ضد مطاعن الخصوم كانتشار الاسلام بالسيف ، والتعصب والجمود
وتبعية المرأة للرجل ، وعدم صلاحية الاسلام - جملة - للحياة العصرية
الحديثة .

وكان لتجلية الحق في هذه القضايا المهمة أثره في تقوية التيسار
الدينى وتغذية الفكر الاسلامى بالمفاهيم الصحيحة ، واقتلاع ما رسخ في
العقول من أوهام وأباطيل .

وبذلك عادت الثقة في الدين الى النفوس التى بهرتها أضواء الحضارة
الوافدة حتى خيل اليها - جهلا - أن الدين لن يقوى على مواجهة الحضارة
الحديثة .



٤ - الدعوة الى مكارم الأخلاق ومجاربة الفساد والانحلال :

وقد ظهرت هذه الفكرة العامة متأثرة بعاملين :

أولهما : دينى يتمثل فى دعوة الاسلام الى حسن الخلق .

ثانيهما : اجتماعى يتمثل فى تلك الهزة الخلقية التى أحدثتها المواجهة
بين الحضارة الأوروبية الطارئة والحضارة الاسلامية الموروثة .

وبتأثير هذين العاملين اتجه الشعراء الى الدعوة الى مكارم الأخلاق ،
والتحذير من عاقبة الفساد والانحراف .

وفى الدعوة الى مكارم الأخلاق أكد الشعراء على أهمية الأخلاق فى
حياة الأمم والشعوب وأنه لا صلاح لأمر من الأمور بغير أساس متين من
الأخلاق والفضائل .

وحول هذا المعنى يقول شوقي : (١)

كذا الناس بالأخلاق يبقى صلاحهم ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب

ويقول : (٢)

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان تولى مضوا فى اثرها قدما

(١) الشوقيات : ج ١ ، ص ٤٤

(٢) السابق : ج ٢ ، ص ٢١٧ .

ويقول : (١)

وليس بعاصر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

ويقول من قصيدة له في « ذكر المولد » (٢) يمدح النبي - صلى الله عليه وسلم - ويعدد منجزات دعوته :

بنيت لهم من الاخلاق ركنا فخانوا الركن فانهدم اضطرابا

ويقول في موشحه « صقر قریش » : (٣)

واذا الاخلاق كانت سلما نالت النجم يد الملتمس

فارق فيها ترق أسباب السما وعلى ناصية الشمس اجلس

★★★

وفي اطار الدعوة الى مكارم الاخلاق ردد الشعراء كثيرا من المعاني الدينية كالصدق والأمانة والعفة والقناعة ، والحلم والوقار ، والتسامح والاخاء والاحسان الى الفقراء ، والرحمة بالضعفاء ، وكفالة الأيتام وصلة الأرحام والبر بالوالدين (٤) وغير ذلك من معاني الفضيلة وحسن الخلق .

وفي هذا المجال كانت أخلاق النبي - صلى الله عليه وسلم - وشأنه مثلا حاضرا ، ونموذجا عمليا ركز عليه الشعراء في مدائحهم النبوية .

★★★

وكانت محاربة الفساد والتصدي لألوان الانحراف بالنقد والتحليل تارة وباللوم والتقريع تارة أخرى ، أسلوبا من أساليب التوجيه نحو مكارم الأخلاق . وفي هذا الصدد أخذ الشعراء ينمون الخمر والميسر ، وينتقصون الخلعة والمجون ، ويعيبون السفور والاختلاط ، وينكرون التخنث والتبرج (٥) . ويواجهون تيار الحضارة المادية الدافقة بألوان المفاصد ، يبتغون حماية الشباب من آفات المدنية وآثامها .

(١) السابق : ص ٦٤ .

(٢) الشوقيات : ج ١ ، ص ٧٢ .

(٣) الشوقيات : ج ٢ ، ص ١٧٦ .

(٤) راجع في هذا البحث : الفصل الثاني من الباب الثاني ، ص ١٦٧ .

(٥) راجع في هذا البحث : الفصل الأول من الباب الثاني ، ص ١٠٠ وما بعدها .

وبعد :

فتلك اشارة عامة الى أهم الأفكار والمعاني التي تناولها الشعراء المحافظون في قصائدهم الدينية نتبين من خلالها :

أهم الخصائص الفكرية للشعر الاسلامى المحافظ فى مصر :

١ - التأثير بالثقافة الاسلامية والعربية : ويظهر ذلك فيما اقتبس الشعراء من معاني القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والسيرة النبوية ، والتاريخ الاسلامى وقد تجلى أثر هذه الثقافة الاسلامية فى معالجتهم للقضايا السياسية والاجتماعية والثقافية ذوات الصلة بالدين والتي سبق الحديث عنها .

٢ - التأثير بثقافة العصر وما يجرى فيه من أفكار وما يدور فيه من قضايا كالحديث عن العدل الاجتماعى ، وحقوق العمال والطبقات الفقيرة ، وظهور فكرة الاشتراكية ، وكالثورة على الظلم والاستبداد ، والتعصب والمطالبة بالتححرر من نير الاستعمار والتخلف الاجتماعى .

٣ - كثرة المعانى ووفرتها ويرجع ذلك - فى رأى - الى ما تهيأ لهذا الجيل من الشعراء من فرص الاطلاع على روائع التراث العربى والاسلامى ومن كثرة التجارب والاحتكاك بمشكلات العصر ، ومن معاصرة الزعماء من أمثال : محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وغيرهم من رواد النهضة الحديثة فى مجالاتها المختلفة . فهذه العوامل ولا شك - من شأنها أن توسع النظرة الى الحياة ، وأن يثرى الفكر بتأثيرها .

٤ - من هذه الأفكار ما هو عميق ليظهر فيه أثر الثقافة وعمق الاطلاع كالأفكار التي تدور حول الدفاع عن الاسلام وابرار مزاياه .

ومنها ما هو قريب لا عمق فيه بل هو أقرب الى العام المؤلف كبعض أفكار المدائح النبوية وبخاصة ما يتصل منها بأحوال العرب قبل البعثة أو ما يتصل بأوصاف النبى - صلى الله عليه وسلم - وأخلاقه وشأئله . مما ورد ذكره فى كتب السيرة وترددت نظائره فى شعر المدائح النبوية عبر العصور .

٥ - تأتي الحكمة فى ثنايا الشعر المحافظ خلاصة لتجارب الشعراء فى الحياة وتركيزاً لأفكارهم وقراءاتهم فى التراث العربى والاسلامى ، وتتميز بالعمق والشمول وقوة المضمون .

٦ - الأفكار الإسلامية في شعر المحافظين صحيحة من وجهة نظر الدين وهي تدل في جملتها على ثقافتهم الإسلامية .

ثانيا - العاطفة :

تعد العاطفة في الشعر عنصره الأول الذي يبت في الأفكار روعة وحياة قوية تسهل فهمها وتدفعها في النفوس (١) .
وبقدر ما يتهيأ لهذه العاطفة من قوة الباعث تكون قوتها . ويكون أثرها في التعبير .

والعاطفة الدينية من أقوى العواطف وأنبليها ولا سيما إذا انبعثت عن سبب قوى يستثير أعماقها . ويهيئ سكونها .
وقد ألمحت خلال ما مر من فصول الدراسة إلى الظروف القاسية التي مرت بها الأمة الإسلامية فاعتصرت كيائها ، وكادت تعصف بوجودها وتدمر حضارتها . فلقد كانت المعركة بين الإسلام وخصومه - في هذه الفترة - قوية وشرسة وشاملة .

ظهرت آثارها في السياسة عندما قاوم الاستعمار فكرة الجامعة الإسلامية وعمل على تمزيق وحدة المسلمين ، وتحرش بالخلافة الإسلامية ، وانتقص أطرافها ، واعتدى على شعوبها في مصر وطرابلس وفلسطين وغيرها من أملاك الدولة العثمانية .

وظهرت آثارها في المجتمع من خلال الدعوة إلى السفور وتحرير المرأة ، وتقليد الأجانب في معيشتهم ، وأسلوب حياتهم ما يحمد منها وما لا يحمد .

وظهرت آثارها في الثقافة بالدعوة إلى العامية ، ونبد الفصحى لغة القرآن الكريم .

ثم كان التهجم على الإسلام والطعن في مبادئه هو قمة التحدي للإسلام ولحضارته وللمسلمين وتراثهم .

وقد هزت هذه الأحداث عواطف المسلمين عامة والشعراء المحافظين في مصر خاصة فجادت قرائحهم بأقوى الشعر وأصدق . عبر فيه الشعراء عن عاطفة قوية وصادقة قد احتاجتها أحداث سياسية واجتماعية وثقافية ذوات مساس بالدين .

(١) راجع أحمد الشايب : اصول النقد الأدبي ص ٣٠٤ .

استمع الى « عبد المطلب » يذود عن الخلافة الاسلامية ويدعو المسلمين الى تأييدها ، وقد تألب عليها الاستعمار ، واعتدى عليها الطليان في طرابلس الغرب فيقول :

بنى مصر هذا الدين يدعو فأقبلوا	على الله في تأييده وتقربوا
بنى مصر قد رام الخلافة معشر	تنادوا على غدر بها وتآلبوا
بنى مصر هذا موقف العزم فانهضوا	سراعا الى احرازه وتآلبوا
وكم في سبيل الله من أريحية	لمصر بها راب الخلافة يشعب
تفيض على الاسلام بالجدود أنما	غزارا اذا ما أخلف الدهر صيب (١)

★★★

فنحن اذ نستمع الى هذه الأبيات نحس انعطافا نحو هذا الدين الذى يتهده الاستعمار ، ونحو الخلافة التى تتعرض للعدوان والغدر ، وهذا الاحساس يدعونا الى أن نستجيب لدعوة الشاعر بالبذل والعطاء فى سبيل الله ، رابا لصدع الخلافة ومؤازرة لجهودها فى قتال الباغين الذين تنادوا على الغدر بها .

ومعنى ذلك أن الشاعر قد نجح فى اثارة عواطفنا ، وفى اشراكنا معه فى تجربته النفسية التى ألت به وهو ينظم قصيدته ، وتلك آية الصدق فى التعبير عن العاطفة . فاذا أضفنا الى ذلك مهارة الشاعر فى استخدام المؤثرات النفسية التى تلهب العاطفة الدينية ، وتقوى نشاطها مثل : الدين - الله - الخلافة - سبيل الله - الاسلام .. الى آخره .. كان ذلك دليلا على حضور الشاعر وقوة عاطفته .

ولعلنا فى غير حاجة الى التأكيد على أن مثل هذا الشعر الذى يتصل بأحداث العالم الاسلامى ، أو بالخلافة والخليفة . كان صدى لعاطفة دينية صادقة ذلك لأن الشعراء المحافظين كانوا يرون فى مؤازرة المسلمين فى أى مكان مؤازرة للاسلام ونصرا لدين الله ، كما كانوا يرون فى الدفاع عن الخلافة وتأييد الخليفة تقربا الى الله وزلقى .

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٣١ .

فهذا « عبد المطلب » يرى في عدوان إيطاليا على طرابلس عدوانا على الاسلام يستوجب نفرة المسلمين في كل بقعة وكل أمة لتجدة الاسلام ومؤازرة المجاهدين في سبيله فيقول : (١)

دعا صارخ الاسلام يا لبنى الهدى أغار العدا أين الحسام المشطب
أرادت حمى الاسلام روما فأقبلت زعانفها في بغيتها تتشطب
حذار فللاسلام في كل بلدة دهاة اذا ما أظلم الراى أثقبوا
اذا ما تنادى المسلمون فانما لنجدتنا كل الممالك ترقب

وهذا « شوقى » يرى في الدفاع عن الخلافة حبا لذات الله ، ونصرا لدينه فيقول : (٢)

عهد الخلافة في أول ذائد عن حوضها براءة نضاح
حب لذات الله كان ولم يذل وهوى لذات الحق والاصلاح

ويقول مخاطبا السلطان عبد الحميد : (٣)

زهدت الذى فى راحتك وشاقتنى جوائز عند الله مبتغيات

ويقول مخاطبا السلطان عبد الحميد : (٤)

فلازلت كهف الدين ، والهادى الذى الى الله بالزلفى له نتقرب

واذن . . فلم يكن شعر المحافظين في تأييد الخلافة ومدح الخليفة ومؤازرة المجاهدين من المسلمين تسلية ولا تزجية فراغ وانما كان تعبيرا عن عاطفة دينية صادقة وكذلك كان شعرهم في الدفاع عن الاسلام ضد خصومه ، وفي التحريض على الجهاد ضد الاحتلال ، وفي الدعوة الى البر والاحسان ومكارم الاخلاق وفي الاشادة بحضارة المسلمين والتغنى

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) الشوقيات : ج ١ ص ١٠٨ .

(٣) السابق : ص ٩٧ .

(٤) السابق : ص ٥٨ .

بأمجادهم ، والاعجاب بمزايا الاسلام وفضائله ، وحب النبي - صلى الله عليه وسلم ، والتوسل به الى الله تعالى ، والأسف على ما ضاع من مجد المسلمين ، واستنهاضهم لاسترجاع ما كان لهم من ماضٍ مجيد . كان شعر المحافظين في كل هذه الموضوعات تعبيراً عن عاطفة صادقة مفعمة بالحب لله ولرسوله وللمسلمين .

وهذا الحب للمسلمين هو الذي جعل شاعراً « كشوقي » يأسى على تخلف المسلمين واستكانتهم في قصيدته التي قالها بمناسبة حج الخديوى عباس وزيارته قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وفيها يقول مخاطباً الخديوى عباساً :

اذا زرت يا مولاي قبر محمد	وقبلت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة	لأحمد بين الستر والتجبرات
واشرق نور تحت كل ثنية	وضاع أريج تحت كل حصاة
لمظهر دين الله فوق تنوفة	وبانى صروح المجد فوق فلاة
فقل لرسول الله يا خير مرسل	أبتك ما تدرى من الحسرات
شعوبك في شرق البلاد وغربها	كأصحاب كهف في عميق سبات
بإيمانهم نوران : ذكر وسنة	فما بالهم في حالك الظلمات
وهذا زمان أرضه وسماؤه	مجال لمقدام كبير حياة
مشى فيه قوم في السماء وأنشأوا	بوارج في الأبراج ممتنعات
فقل رب وفق للعظام أمتي	وزين لها الأفعال والعزمات



فها هنا نحس عاطفة صادقة مفعمة بالأسى لما أصاب المسلمين من ضعف وهوان ، شديدة الشوق الى ذلك المجد الفائت ، والحضارة الغاربة عميقة الحب للأمة الاسلامية ، كبيرة الرجاء في توفيق الله للمسلمين ، ثم ان هذه العاطفة قد انعكست على الصورة التعبيرية فجاءت الألفاظ رقيقة صافية سهلة سلسلة مؤثرة بدلالاتها اللغوية ، موحية بإيقاعها الموسيقي ، وبظلالها الذي تلقى في الخيال .

وأيا ما كان موضوع الشعر الاسلامى المحافظ فان للعاطفة فيه وجودا ظاهرا وأثرا باديا يدركه الاحساس ويستشعره القارىء من خلال الروح السارية فى الألفاظ والعبارات والخيال والموسيقى . غاية الأمر أن دفء هذه العاطفة قد يخفف فى موضوع دون آخر ولكنه - أبدا - لا يختفى . والعاطفة الدينية بعامة . ومن خلال موضوعات الشعر الدينى التى ألمحنا إليها فى دراستنا لاتجاهات الشعر الاسلامى المحافظ عاطفة صادقة لأنها قامت على سبب صحيح وهو الدين دفاعا عنه ، أو دعوة إليه أو إعجابا بمبادئه ، أو إشادة بحضارته ، أو تمجيذا لعظمائه .

وهى عاطفة قوية لأنها أثرت فى عواطفنا وهزت مشاعرنا ووجهتنا وجهة الدين وحبيت إلينا الايمان وزينته فى قلوبنا وكرهت إلينا الكفر والفسوق والعصيان .

ثم هى عاطفة سامية لأنها تنبع من الدين وتتصل بقيمه ومبادئه ، وتستهدف الخير والرشاد لعامة المسلمين .

ومن الطبع أن تتفاوت العواطف الدينية من شاعر ومن موضوع لآخر بل تتفاوت عاطفة الشاعر الواحد من موقف لموقف بقدر قربته أو بعده عن وهج العقيدة ومصدر التأثير فى العاطفة الدينية .

ولذلك رأينا ألوانا من العاطفة الدينية تتفاوت حرارتها ، وتعدد مظاهرها ولكنها موجودة فى كل حين .

ثالثا - الموضوعات :

إذا تأملنا موضوعات الشعر الاسلامى فى هذه الفترة فسوف نجد أن بعض هذه الموضوعات كان استمرارا لموضوعات الشعر الدينى فى العصور السابقة ولكن طرأ عليها شئ من التجديد والتطور فى هذه الفترة .

وبعضها كان مستحدثا جاء من وحى الظروف والأحداث التى ألمت بالأمة الاسلامية فى هذا العصر .

فمن الموضوعات الدينية التى سبق إليها الشعراء قبل هذه الفترة :

١ - **المدائح النبوية** : وهى من أقدم أغراض الشعر الدينى التى ظهرت مع الاسلام ثم استمرت عبر العصور الاسلامية الى عصرنا الحديث ، وكان لكل عصر من العصور طابعه الفنى الذى ينعكس بدوره على

شعر المدائح النبوية كما ينعكس على سائر الشعر ولم تكن المدائح النبوية فيما قبل هذه الفترة سوى سرد قصصى لحياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما سجلتها كتب السيرة (١) أما في فترتنا هذه فقد عنى الشعراء في مدائحهم بالدفاع عن الاسلام وبيان مزايا الشريعة ، وتصوير كفاح النبي - صلى الله عليه وسلم - والتركيز على جهاده وغزواته ، واستنهاض همم المسلمين المعاصرين من خلال أحداث السيرة النبوية ، وبذل النصيحة لهم والتحسر على ما أصابهم (٢) .

وبذلك اتسع موضوع المدائح النبوية فلم يعد قاصرا على سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - بل شمل الى جانب ذلك كثيرا من قضايا الاسلام والمسلمين في هذا العصر .

٣ - الخلافة العثمانية : ظلت مصر تدين بالولاء للخلافة العثمانية في تركيا منذ تغلب عليها السلطان « سليم الأول » سنة ١٥١٧ الى أن زالت عنها السيادة العثمانية سنة ١٩١٤ وكان هذا الولاء للخلافة العثمانية ولاء دينيا أساسه نصره الاسلام وحماية المسلمين ، وعلى هذا الأساس كان تعلق المسلمين بالخلفاء ودعمهم لمركز الخلافة ومناصرتها في الدفاع عن الاسلام .

وقد عبر الشعراء فيما قبل هذه الفترة عن شعور المسلمين بالخلافة وامتدحوا الخلفاء من حيث ما يمثلونه من رمز للرابطة الاسلامية .

بيد أن هذه المدائح كانت مجرد اشارات لهذه الرابطة الدينية (٣) أما في فترتنا هذه فقد قوى مركز الخلافة الاسلامية واشتد تعلق المسلمين بالخليفة العثماني الذي أصبح أمل المسلمين في الدفاع عن دينهم . ورد

(١) راجع : سعد الدين الجيزاوي . أصله الدين في الشعر المصري الحديث ص ٨٩ .

٣٦٠ .

(٢) راجع : قصائد شوقي في مدائح النبوة وهي بالترتيب ١ - نهج البردة سنة ١٩١٠ ج ١ ص ١٩٠ ٢ - ذكرى المولد سنة ١٩١١ (نشرت بالجريدة في ٧ مارس سنة ١٩١١ - وهي ليست بالديوان) ٣ - سلوا قلبي سنة ١٩١٤ ج ١ ص ٦٨ .

(٣) الهزلية النبوية سنة ١٩١٧ ج ١ ص ٣٤ .

(٤) راجع : سعد الدين الجيزاوي ص ١٢٢ / ١٢٣ .

العدوان عن ديارهم بعد أن تزايد الخطر المسيحي على الاسلام ، وتأمرت الدول الأوروبية على أملاك الدولة العثمانية (١) .

ومن هنا كثرت مدائح الخلفاء واتسعت موضوعاتها ، وأصبحت ميدانا يتبارى فيه الشعراء ويكثرون من الانشاء لأن الخلافة هنا أصبحت في حاجة الى المساندة والتأييد ورد هجمات خصومها ثم توجيه الخلفاء الى أمثل السبل (٢) .

وليس بين شعرائنا المعاصرين لهذه الفترة من يخلو ديوانه من شعر في مدح الخليفة التركي ، والاشادة بفضله على المسلمين ، وحرصه على اعلاء كلمة الدين وليس فيهم من تخلف عن المشاركة بشعره في حروب تركيا وأحداثها الجسام مثل حرب اليونان وحرب طرابلس وحرب البلقان والدستور العثماني (٣) . وبذلك صار موضوع الخلافة سجلا حافلا بأحداث العصر ، ولم يعد قاصرا على تلك الاشارات العابرة الى تلك العلاقة الدينية بين المسلمين وخليفتهم العثماني .

٣ - المناسبات الدينية : ومن الموضوعات الدينية القديمة التي كان الشعراء يتسابقون الى النظم فيها قبل هذه الفترة . المناسبات الدينية كالمولد النبوي ، والهجرة ، والعيدين ، وغيرها . من المواسم الدينية التي احتفل بها الفاطميون ثم ظل الاحتفال بها موضع عناية الخلفاء والحكام الى عصرنا الحديث .

وكان الشعراء يتخذون من هذه المناسبات فرصة للزلفى والتقرب الى الخلفاء والحكام دون أن يتعمقوا المناسبة أو يستخرجوا العبرة من أحداث التاريخ الاسلامي . فلما كانت هذه الفترة (١٨٨٢ - ١٩١٩) ونما الوعي الاسلامي على يد الأفغانى ، ومحمد عبده ، وتزايدت أحداث الأمة الاسلامية . اتجه الشعراء بهذه المناسبات الدينية وجهة جديدة تتمثل في استنهاض همم المسلمين ، وشحن عزائم الشباب ، والتعبير عن واقع الأمة الاسلامية . وتجنيد آمالها في الحرية والاستقلال ، والدفاع عن الاسلام وبيان مزاياه (٤) .

(١) راجع في هذا البحث : الفصل الأول من الباب الأول .

(٢) سعد الدين الجيزاوى : المرجع السابق ص ٣٦٠ .

(٣) د . محمد محمد حسين : الاتجاهات والوطنية في الأدب المعاصر ج ١ ص ١١ .

(٤) راجع في ذلك دواوين : ١ - شوقي ج ١ ص ٤٩٣ ، ص ٦٠٦ ، ص ٦١١ ،

توثيق د . الحوفى .

وبذلك تطورت المناسبات الدينية واتسعت للتعبير عن المشاعر الدينية والوطنية في هذه الفترة .

تلك كانت أهم الموضوعات الدينية القديمة التي تطورت في فترتنا هذه بحكم الظروف والملايسات .

أما الموضوعات التي استحدثت في هذه الفترة ولم يكن لها نظير قبل ذلك فمنها ما كان استجابة لأحداث معينة كأحداث الفتنة الطائفية ومحاولة التفريق بين عنصرى الأمة ، تلك التي تصدى لها الشعراء وأنشأوا حولها قصائد عديدة تستهدف التأليف بين المسلمين والمسيحيين .

وقد كانت هذه القصائد في مجموعها موضوعا جديدا ارتبط مولده بظروف معينة جرت على الساحة الوطنية المصرية في هذه الفترة (١) . ومنها ما كان صدى لأحداث العالم الاسلامى كالحرب الطرابلسية ، والحرب البلقانية . فقد هزت هذه الحروب وجدان المسلمين عامة والشعراء خاصة فأخذوا ينددون بالعدوان والمعتدين ويدعون لموازنة المجاهدين في ميادين القتال . ودعمهم بالمال والعتاد (٢) .

وكانت القصائد التي أنشئت بمناسبة هذه الحروب موضوعا جديدا ارتبط ظهوره بأحداث هذه الحقبة .

ومنها ما كان صدى للتطور الاجتماعى كالقصائد التي أنشئت في الرد على دعاة السفور وتحرير المرأة (٣) وكالقصائد التي صورت الآفات الاجتماعية ومخازاة المدنية الحديثة كالخمر والميسر وتخنت الشباب وغيرها من آثار الاختلاط بالأجانب (٤) .

ومنها ما كان صدى لانتشار الوعى الاسلامى الذى أيقظه جمال الدين الأفغانى ، و « محمد عبده » . وقد ظهر أثر هذا الوعى الاسلامى فيما أنشئ من قصائد تدعو الى اصلاح العقائد ومحاربة البدع والخرافات ، والاعتقادات الخاطئة (٥) .

٢ - ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ص ٤٢ ، ص ٦٠ .

٣ - ديوان عبد العليم المصرى ج ص ٤٩ .

٤ - ديوان احمد محرم ج ٢ ص ١٩٥ .

٥ - ديوان نسيم ج ٢ ص ٣ .

(١) راجع هذا البحث الفصل الثانى من الباب الاول ص ٨٥ .

(٢) راجع فى هذا البحث : الفصل الاول من الباب الاول ص ٣٦ .

(٣) راجع فى هذا البحث : الفصل الثانى من الباب الثانى ص ١٣٠ .

(٤) راجع فى هذا البحث : الفصل الاول من الباب الثانى . ص ١٠١ وما بعدها .

(٥) راجع فى هذا البحث : الفصل الاول من الباب الثالث . ص ١١٢ وما بعدها .

ومنها ما كان صدى للبعث الحضاري ، وللصحوة الاسلامية في مواجهة الغرب وتحدياته كالقصائد التي أنشئت في الاشادة بالحضارة الاسلامية وتمجيد عظماء الاسلام (١) . والتعريف بالاسلام والرد على مطاعن الخصوم ، فهذه كلها موضوعات جديدة في الشعر الاسلامي خلقتها ظروف معينة لم تكن موجودة قبل هذه الحقبة .

(١) راجع في هذا البحث الفصل الثاني من الباب الثالث . ص ١٧٢ .

أهم نتائج البحث

وبعد ..

فها أنذا أضع بين يدي القارئ الكريم أهم النتائج التي انتهيت إليها في هذا البحث .

ومع أنها لن تكون آخر النتائج ، ستكون - بإذن الله - خطوة على طريق الأدب الاسلامي . الذي ينبغي أن تحتشد له الطاقات الخلاقة وأن توجه إليه البحوث والدراسات الأدبية في ظل هذه الصحوة الاسلامية الكبرى ، وتحت قبة الأزهر الشريف الذي كان ولا يزال حصن الدين وموئل التراث العربي والاسلامي ، وعلى هدى من توجيهات أساتذة الأدب والبلاغة والنقد في جامعاتنا المصرية بعامة ، وفي جامعة الأزهر بخاصة .

وها هي ذى النتائج :

أولاً : أن الاتجاه الاسلامي في شعر مدرسة الشعراء المحافظين في مصر كان استجابة صادقة لمؤثرات سياسية واجتماعية وثقافية وحضارية ذات صبغة دينية .

ثانياً : أن الاسلام كان - ولا يزال - أوثق الوشائج بين شعوب العالم الاسلامي وأنه كان سلاحاً فعالاً في كل معارك النضال التي خاضتها الأمة الاسلامية . فمن خلاله عبأ الزعماء شعور الأمة للجهاد ، وحرصوها على القتال ، وحببوا اليها البذل والعطاء واستثاروا حميتها لمؤازرة المجاهدين في ميادين القتال .

وبذلك كان الاسلام هو الحبل المتين الذي شد المسلمين بعضهم كالبنيان المرصوص في مواجهة الخطر الزاحف ، وكان هو الحصن المنيع الذي قاوم المسلمون من داخل أسواره طلائع الصليبية في العصر الحديث .

ثالثا : أن تمجيد الشعراء للحضارة الإسلامية ، واشادتهم بعطائنها وتعظيمهم للإسلام الذي صنعها وللأمة التي حملتها الى الناس كان استدعاء لمعانى العظمة في تاريخ المسلمين يشد عزائم المعاصرين الى المجد ، ويدفع عنهم ظلمة اليأس ، ويرد اليهم ثقتهم بأنفسهم ويحفزهم الى النضال والمقاومة .

رابعا : أن التحدى الحضارى بين الشرق الاسلامى والغرب الصليبي قد دفع المفكرين من زعماء الاصلاح الاسلامى ومعهم الشعراء المحافظين الى ابراز قسّمات الحضارة الإسلامية من خلال المفاهيم والمبادئ التي جاء بها الاسلام تأكيدا. لصلاحيته لأن تقوم على أساسه حضارة متينة .

خامسا : ان التحدى الحضارى لا يزال قائما ومن هنا كانت الحاجة الى عرض الاسلام والتعريف بخصائصه ومزاياه بصورة تليق بمكانته وتحجب الى الناس منهجه أشد من أى وقت مضى ، وهذا واجب اسلامى عام ينبغى أن ينشط له المسلمون كافة ودعاة الاسلام من علمائه ومفكريه خاصة .

سادسا : أن الشعر المحافظ فى مصر قد أدى رسالته فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ أمته ، فصاغ الشعور الاسلامى ، وعبر عن الآمال الوطنية وشارك فى شرف الاصلاح الاجتماعى . وكان للأداء الفنى الذى تميز به أثره فى نفوس الجماهير التي استمعت اليه وانفعلت به ورددته فى مناسباتها الدينية والوطنية لأنها رأت فيه آمالها وأمانها .

سابعا : أن الشعراء المحافظين لم يهيموا فى أودية الخيال وشعوبهم تتلوى جوعا وتئن تحت وطأة المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وانما نسوا - الى حد ما - ذواتهم وانغمسوا فى تيار الحياة الاجتماعية موقنين بأن من انسانية الشاعر أن يكون فى قومه نغم شادى تستريح اليه نفوسهم ، وتستجيب له عواطفهم ، وتتلاقى عنده آلامهم وآمالهم ، وأن من أمانة الكلمة أن تكون لوجه الحق ولخير المجتمع .

ثامنا : ان ما أشرت اليه خلال البحث من أفكار الشعراء المحافظين حول قضايا المرأة والمال والتعليم والشباب انما يختص بما يقع منها فى فترة البحث فحسب ، وان ما طرحه الشعراء فى هذه الفترة من أفكار اسلامية لم يكن غاية جهادهم الاسلامى فى ميدان الحياة الاجتماعية بل

كانت لهم آراء وأفكار اسلامية أخرى نبعت من وحى الظروف والمتغيرات الاجتماعية الجديدة .

بمعنى أننا لو مددنا هذه الدراسة الى فترة تالية لوجدنا أفكارا ومضامين جديدة ، وهذا يدل على أن الشعر المحافظ لم يجمد في مواجهة الأحداث والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتجددة .

ولعل بهذه الإشارة الى محدودية الأفكار في فترة البحث أنفى عن شعرائنا المحافظين ما قد يهتمون به من سطحية الأفكار ، وضالة الثقافة مؤكداً أن بواكير القضايا - كثيراً ما - يغلب عليها طابع العموم والسطحية .

تاسعاً : ان الشعراء المحافظين لم يكن خط اسلامي متميز يصدر عن عنه دائماً في تناولهم للقضايا الوطنية وغير الوطنية وانما كانت لهم أفكار تنبع حيناً من العاطفة الاسلامية وتنبع حيناً آخر من غير العاطفة الاسلامية :



عاشراً : أن الشعراء المحافظين قد تميزوا بمنهج فني يقوم على التقليد في الشكل والتجديد في المضمون . وبهذا المنهج الفني استطاع هذا الجيل من الشعراء أن يجمع بين المحافظة على المادة الأدبية القديمة في صياغة الشعر وبين التعبير عن آمال الأمة وأمانيتها الوطنية والاسلامية .

وهذا دليل على طواعية اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن قضايا العصر ومشكلاته ، والتعامل مع الحضارة ومستحدثاتها ، ولعل في ذلك ما ينفي عن لغتنا العربية تهمة القصور عن مواكبة التطور الحضاري للأمة الاسلامية والعربية .

هذا .. وبالله التوفيق .



أهم مراجع البحث

أولا - الكتب :

- ١ - إبراهيم أنيس (الدكتور) : موسيقى الشعر . ط ٣ ، سنة ١٩٦٥ .
- ٢ - أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . القاهرة ، ط ١٠ ، سنة ١٩٧٧ .
- ٣ - أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث . ط سنة ١٩٤٨ .
- ٤ - أحمد أمين : فيض الخاطر . ج ٣ .
- ٥ - أحمد بدوى (الدكتور) : أسس النقد الأدبى عند العرب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .
- ٦ - أحمد الحوفى (الدكتور) : أضواء على الأدب الحديث . دار المعارف ط ١ ، سنة ١٩٨١ .
- ٧ - أحمد الحوفى (الدكتور) : الإسلام فى شعر شوقي ، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- ٨ - أحمد الحوفى (الدكتور) : القومية العربية فى الشعر الحديث . دار نهضة مصر .
- ٩ - أحمد الحوفى (الدكتور) : وطنية شوقي . ط ٣ . دار نهضة مصر .
- ١٠ - أحمد الحوفى (الدكتور) : ديوان شوقي . جزآن ، توثيق وتبويب وشرح وتعقيب دار نهضة مصر

- ١١ - أحمد الزين : قلائد الحكمة • نظم أحمد الزين • طبع بمطبعة الحياة ، سنة ١٩١٨ •
- ١٢ - أحمد السايح : مستقبل الحضارة الإسلامية • القاهرة ، سنة ١٤٠٥ هـ •
- ١٣ - أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي • ط (٨) ، سنة ١٩٧٣ • النهضة المصرية •
- ١٤ - أحمد شوقي (الشاعر) : الشوقيات • أربعة أجزاء ، ط المكتبة التجارية بالقاهرة ، سنة ١٩٨٢ •
- ١٥ - أحمد شوقي (الشاعر) : ديوان دول العرب وعظماء الإسلام • سنة ١٩٣٣ ، القاهرة •
- ١٦ - أحمد الكاشف : ديوان الكاشف • ج ١ ، ط ، سنة ١٩٠٣ ، مطبعة جريدة الراوى •
- ديوان الكاشف ، ج ٢ ، ط ، سنة ١٩١٣ ، مطبعة الجريدة •
- ١٧ - أحمد محرم : ديوان أحمد محرم • ج ١ ط ، سنة ١٩٠٨ ، مطبعة الجريدة بمصر •
- ديوان أحمد محرم ، ج ٢ ، ط ، سنة ١٩٢٠ ، مطبعة الفتوح بلعنهور •
- ١٨ - أحمد نسيم : ديوان أحمد نسيم • ج ١ ، طبع سنة ١٩٠٨ ، مطبعة الاصلاح •
- ديوان أحمد نسيم • ج ٢ ، طبع سنة ١٩١٠ ، مطبعة الهلال •
- ١٩ - أحمد هيكل (الدكتور) : تطور الأدب الحديث في مصر • دار المعارف ، ط ، ٣ •
- ٢٠ - اسماعيل صبرى : ديوان اسماعيل صبرى • مطبعة لجنة التأليف ، سنة ١٩٣٨ •
- ٢١ - أنور الجندى : الإسلام في غزوة جديدة للفكر الانسانى • طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية •

- ٢٢ - أنور الجندى : **العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي** . طبع ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .
- ٢٣ - أنور الجندى : **الاسلام في معركة التغريب** . طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، سنة ١٩٦٤ .
- ٢٤ - أنور الجندى : **الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها الى الحرب العالمية الثانية** . مطبعة الرسالة ، سنة ١٩٦٢ .
- ٢٥ - بدوي طبانة (الدكتور) : **قضايا النقد الادبي** . الأنجلو المصرية .
- ٢٦ - حافظ ابراهيم : **ديوان حافظ ابراهيم** . جزآن ، طبعة بيروت ، سنة ١٩٦٩ .
- ٢٧ - حافظ ابراهيم : **ليالي سطوح** . مطبعة الوحدة ، سنة ١٩٥٩ .
- ٢٨ - حسن الفقي (الدكتور) : **التاريخ الثقافي للتعليم في مصر** . دار المعارف ، سنة ١٩٧١ ، ط ٢ .
- ٢٩ - حسن القاياتي : **ديوان القاياتي** . سنة ١٩١٠ .
- ٣٠ - حلمي مرزوق (الدكتور) : **تطورات النقد والتفكير الادبي الحديث في مصر** . دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ . الطبعة الاولى .
- ٣١ - زينب رضوان (الدكتور) : **النظرية الاجتماعية في الفكر الاسلامي اصولها وبنائها** . دار المعارف ، سنة ١٩٨٢ .
- ٣٢ - سالم قنبر : **الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية في الادب المعاصر** . بيروت ، سنة ١٩٦٨ .
- ٣٣ - سالم أحمد الحمداني : **التيار الديني في الشعر العراقي الحديث** . رسالة دكتوراه بأداب عين شمس .
- ٣٤ - سعد الدين الجيزاوي (الدكتور) : **اصدء الدين في الشعر المصري الحديث** . مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الاولى .
- ٣٥ - سعد الدين الجيزاوي (الدكتور) : **العامل الديني في الشعر المصري الحديث** . طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، سنة ١٩٦٤ .
- ٣٦ - سيد قطب : **النقد الادبي اصوله ومناهجه** . ط (٤) ، دار الشروق ، سنة ١٩٨٠ .

- ٣٧ - سيد قطب : معالم فى الطريق • دار الشروق ، د • ت •
- ٣٨ - سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام • ط (٧) دار الشروق ، سنة ١٩٨٠ •
- ٣٩ - شكيب أرسلان : لماذا تاخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم • المركز السلفى ، سنة ١٩٨١ •
- ٤٠ - شكيب أرسلان : شوقى او صداقة اربعين عاما • مطبعة الحلبي ، سنة ١٩٣٦ •
- ٤١ - شوقى ضيف (الدكتور) : فى النقد الأدبى • دار المعارف ، ط (١) •
- ٤٢ - طه حسين (الدكتور) : حافظ وشوقى • ط سنة ١٩٧٤ ، ط وزارة التربية والتعليم •
- ٤٣ - طه حسين (الدكتور) : مستقبل الثقافة فى مصر • دار المعارف ، سنة ١٩٣٨ •
- ٤٤ - طه وادى (الدكتور) شعر ناجى الموقف والأداة • دار المعارف ، ط (٢) ، سنة ١٩٨١ •
- ٤٥ - عباس محمود العقاد : حقائق الاسلام وأباطيل خصومه • ط (١) ، سنة ١٩٥٧ ، مطبعة مصر •
- ٤٦ - عباس محمود العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى • دار نهضة مصر •
- ٤٧ - عباس محمود العقاد : ما يقال عن الاسلام • سنة ١٩٦٦ ، ط الهلال •
- ٤٨ - عباس محمود العقاد : عبقرية محمد • صلى الله عليه وسلم •
- ٤٩ - عباس محمود العقاد : خلاصة اليومية والشلور • مطبعة الهلال ، سنة ١٩١٢ •
- ٥٠ - عبد الحلیم المصرى : ديوان عبد الحلیم المصرى • الجزء الأول سنة ١٩١٠ ، والجزء الثانى ، سنة ١٩١١ ، الجزء الثالث ، سنة ١٩١٨ •
- ٥١ - عبد الحى دياب : العقاد ناقدا • دار الشعب •

- ٥٢ - عبد الرحمن الرافعي : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال .
سنة ١٩٤٢ . ط (الأولى) .
- ٥٣ - عبد الرحمن الرافعي : محمد فريد رمز الاخلاص والوطنية .
ط (٣) ، سنة ١٩٦١ .
- ٥٤ - عبد الرحمن الرافعي : شعراء الوطنية . ط (١) ، سنة ١٩٥٤ .
مكتبة النهضة المصرية .
- ٥٥ - عبد الكريم الخطيب : التعريف بالاسلام في مواجهة العصر
الحديث وتحدياته . ط (١) ، سنة ١٩٦٥ ، دار
الكتاب العربي .
- ٥٦ - عبد اللطيف خليف (الدكتور) : التيارات الجديدة في الشعر
العربي الحديث في مصر . سنة ١٩٧٧ .
- ٥٧ - عبد الهادي النجار (الدكتور) : الاسلام والاقتصاد . عالم المعرفة،
سنة ١٩٨٣ .
- ٥٨ - علي حسنى الخربوطلي (الدكتور) : غروب الخلافة الاسلامية .
مؤسسة المطبوعات الحديثة . د . ت .
- ٥٩ - علي الفاياتي : وطنيتي . ديوان الفاياتي ، القاهرة ، سنة ١٩٣٨ .
- ٦٠ - علي النجدي ناصف : الدين والأخلاق في شعر شوقي . ط (٢) ،
سنة ١٩٦٤ . مكتبة نهضة مصر .
- ٦١ - عمر أبو النصر : محمد بن عبد الله وآراء مشاهير الغرب في
رسائله ونبوته والاسلام . سنة ١٩٣٥ . مطبعة الوفاء ،
بيروت .
- ٦٢ - عمر الدسوقي : في الأدب الحديث . ج ٢ ، ط ٤ ، سنة
١٩٦١ .
- ٦٣ - عمر دقاق : الاتجاه القومي في الشعر المعاصر . القاهرة ، سنة
١٩٦١ .
- ٦٤ - غوستاف لوبون : حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر . مطبعة
الحلبي ، د . ت . ط (٤) .
- ٦٥ - قاسم أمين : تحرير المرأة . مكتبة الترقى ، سنة ١٨٩٩ .

- ٦٦ - لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى • نقله الى العربية عجاج فويهض ، المطبعة السلفية ، سنة ١٩٢٥ •
- ٦٧ - ماهر حسن فهمى (الدكتور) : حركة البعث فى الشعر العربى الحديث • مكتبة الهلال ، د • ت •
- ٦٨ - ماهر حسن فهمى (الدكتور) : قاسم أمين • مطبعة مصر ، سنة ١٩٦٣ •
- ٦٩ - محمد ابراهيم الجيوشى : شاعر العروبة والاسلام احمد محرم • دار العروبة ، سنة ١٩٦١ •
- ٧٠ - محمد حمدى النشار : ثمرات الأفكار • مطبعة الاسكندرية ، سنة ١٩٢١ •
- ٧١ - محمد رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده • ج ١ ، طبع سنة ١٣٢٤ هـ ، ط (١) • ج ٢ ، طبع سنة ١٣٤٤ ، ط (٢) بمطبعة المنار بمصر •
- ٧٢ - محمد سيد كيلانى : ترام القاهرة • سنة ١٩٦٨ •
- ٧٣ - محمد سيد كيلانى : السلطان حسين كامل فترة مظلمة من تاريخ مصر • القاهرة •
- ٧٤ - محمد صبرى (الدكتور) : الشوقيات المجهولة • مطبعة دار الكتب ، سنة ١٩٦١ •
- ٧٥ - محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب • مطبعة الترقى ، سنة ١٨٩٩ •
- ٧٦ - محمد عبد المحسن بدر (الدكتور) : التطور والتجديد فى الشعر المصرى الحديث • رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة القاهرة ، سنة ١٩٥٧ •
- ٧٧ - محمد عبد المطلب : ديوان عبد المطلب • مطبعة الاعتماد بمصر •
- ٧٨ - محمد العزب (الدكتور) : ظواهر التمرد الفنى فى الشعر المعاصر • القاهرة ، سنة ١٩٧٨ •
- ٧٩ - محمد عمارة (دكتور) : تيارات اليقظة الاسلامية الحديثة • القاهرة ، سنة ١٩٨٢ •

- ٨٠ - محمد عمارة (دكتور) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده •
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ط (٢)
سنة ١٩٨٠ •
- ٨١ - محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ١٩٠٢ • مطبعة
المقتطف •
- ٨٢ - محمد الغزالي : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام •
- ٨٣ - محمد الغزالي : الاسلام والاستبداد السياسي •
- ٨٤ - محمد كرد علي : القديم والحديث • مطبعة الرحمانية ، القاهرة
سنة ١٩٢٥ •
- ٨٥ - محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية • القاهرة ، لجنة
التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤ - ١٩٣٦ •
- ٨٦ - محمد محمد حسين (الدكتور) : الاتجاهات الوطنية في الأدب
المعاصر • ط (٣) ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، سنة
١٩٨٠ •
- ٨٧ - محمد مندور (الدكتور) : الشعر المصري بعد شوقي • مكتبة
نهضة مصر ، سنة ١٩٥٥ •
- ٨٨ - محمود سامي البارودي : ديوان البارودي • دار المعارف ، القاهرة ،
سنة ١٩٧١ •
- ٨٩ - مصطفى صادق الرافعي : ديوان الرافعي • ج ١ ، سنة ١٣٢١ هـ
المطبعة العمومية بمصر ، ج ٢ طبع بمطبعة الجامعة
الجامعة بالاسكندرية ، سنة ١٣٢٢ هـ ، ج ٣
بمطبعة الأخبار ، سنة ١٣٢٣ هـ •
- ٩٠ - مصطفى كامل : المسألة الشرقية • ط أولى ، سنة ١٨٩٨ •
- ٩١ - مكرم عبد الفتاح عبد الخالق : العلاقات المصرية العثمانية • رسالة
دكتوراه بكلية الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة
١٨٨٢ •
- ٩٢ - نصر الدين عبد الحميد نصر : مصر وحركة الجامعة الإسلامية •
الهيئة العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٤ •
- ٩٣ - نفوسة زكريا : تاريخ الدعوة الى العامة وأثرها في مصر • نشر
دار الثقافة بالاسكندرية ، سنة ١٩٦٤ •

ثانيا - النوريات :

- ١ - العروة الوثقى : ١٨٨٤
- ٢ - الأستاذ : ١٨٩٣
- ٣ - المؤيد : ١٨٩٧/١٩٠٨/١٨٩٩
- ٤ - المنار : ١٨٩٩
- ٥ - اللواء : ١٩٠٨/١٩٠٠/١٩٠١
- ٦ - وادي النيل : ١٩١٥
- ٧ - الأمل : ١٩١٥
- ٨ - الأهرام : ١٩٨٥/٣/٢٩
- ٩ - مجلة الفصول : المجلد الثالث ١٩٨٢/١٩٨٣

فهرس الاتجاه الاسلامى فى الشعر المحافظ

الاهداء	٥
المقدمة	٧
الباب الأول : الاتجاه السياسى	١٥
الفصل الأول : الجامعة الاسلامية	١٧
الفصل الثانى : السيادة الوطنية المصرية	٥٩
الباب الثانى : الاتجاه الاجتماعى	٩١
الفصل الأول : الحياة الاجتماعية فى مصر تصوير عام	٩٣
الفصل الثانى : الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى	١١٩
الباب الثالث : الاتجاه الحضارى	١٦٨
الفصل الأول : الاشادة بالحضارة الاسلامية	١٦٩
الفصل الثانى : التعريف بالاسلام فى مواجهة التحديات	٢٠٣
الباب الرابع : الدراسة الفنية	٢٣٧
الفصل الأول : الشكل الفنى للقصيدة الاسلامية	
فى الشعر المحافظ	٢٣٩
الفصل الثانى : المضمون الاسلامى فى الشعر المحافظ	
فى مصر	٢٧٧
أهم نتائج البحث	٢٩٩
أهم مراجع البحث	٣٠٢
اولا : الكتب	٣٠٢
ثانيا : الدوريات	٣٠٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٠/٢١٥٥

ISBN ١ - ٢٣٦٤ - ٠١ - ٩٧٧ -

هذا الكتاب دراسة في الشعر المصري الحديث من منظور إسلامي
يتمثل في إبراز المفاهيم الإسلامية التي أثارها شعراء الاتجاه
المحافظ في مختلف القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية
والحضارية في الفترة ما بين الاحتلال البريطاني في ١٨٨٢
والثورة المصرية ١٩١٩ .

وقد أكدت هذه الدراسة من خلال النصوص الشعرية أن
الإسلام كان — ولا يزال — أوثق الوشائج بين شعوب العالم
الإسلامي ، وأنه كان سلاحا فعالا في كل معارك النضال التي
خاضتها الأمة الإسلامية ضد الاستعمار بكل أشكاله وصوره .
كذلك أكدت الدراسة أن الشعر المصري المحافظ قد أدى
رسالته في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ امته فصاغ الشعور
الإسلامي وعبر عن الآمال الوطنية وشارك في شرف الإصلاح
الاجتماعي، وأن الشعراء المحافظين لم يهيموا في أودية الخيال
وشعوبهم تتلوى جوعا ، وتئن تحت وطأة المشكلات السياسية
والاجتماعية والاقتصادية بل انغمسوا في تيار أمتهم موقنين بأن
من إنسانية الشاعر أن يكون في قومه نغما شاديا تستريح إليه
نفوسهم وتستجيب له عواطفهم وتتلاقى عنده آلامهم وأمالهم ،
وأن من أمانة الكلمة أن تكون لوجه الحق ولخير الناس .